تحفة العروس

ونزهة النفوس

(ما تحبه المرأة فى الرجل وما يحبه الرجل فى المرأة)

تأليف العالم

العلامة والحبر البحر الفهامة

الإمام القطب الرباني أبى عبد الله محمد

ابن أحمد التجاني تغمده الله برحمته وأسكنه

فسيح جنته ... آمين

حقق نصوصه وخرج أحاديثه

المحدث الشيخ/ صلاح محمد عويضه

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ — ٢٠١٠م

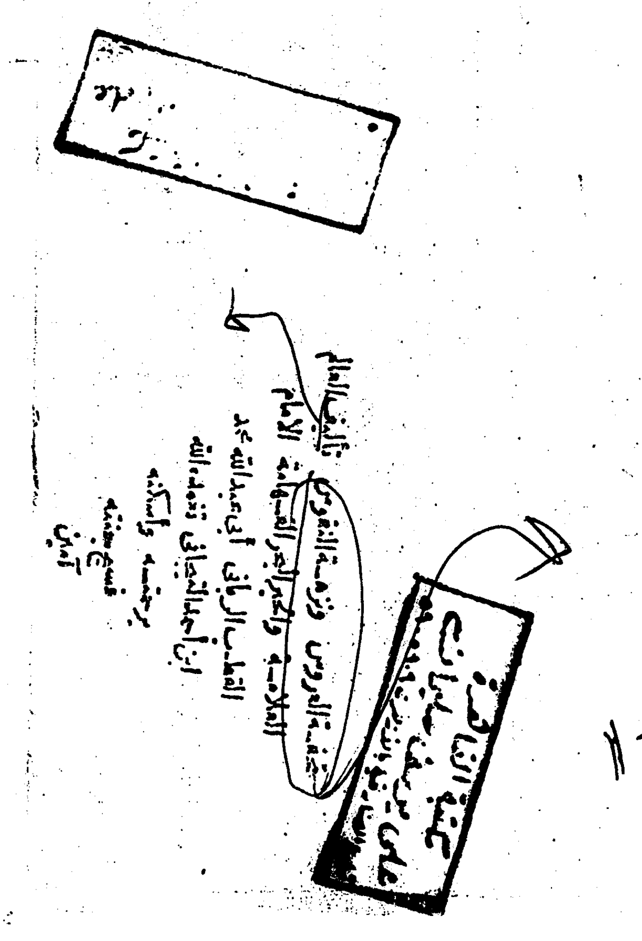


تأسست ١٩٣٥



رقم الإيداع بدار الكتب
٢٣٩٠٢ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى I.S.B.N
٩-٠٦٣-٤٠١-٩٧٧

لصاحبها: على يوسف سليمان وأولاده
١٢ شارع الصنادقية بالأزهر ت : ٢٥٩٠٥٩٠٩
١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت : ٢٥١٤٧٥٨٠
جوال : ٠١٢٢٧٥٠٩٤٢
ص . ب ٩٤٦ العتبة ـ رمز بريدى ١١٥١١
العتبة ـ الأزهر ـ القاهرة
Tarekali٥٩@yahoo.com Alqahirah٥٥@yahoo.com
جمهورية مصر العربية


تحفة العروس ونزهة النفوس تأليف العالم
العلامة والحبر البحر الفهامة الإمام
القطب الرباني أبي عبد الله محمد
ابن أحمد التيجاني تغمده الله
برحمته وأسكنه
فسيح جنته
آمين

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الحمد لله) الذي سوغنا الفضل جزيلا * وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا
وأسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة ما جعل كثير الشكر بالنسبة إليه
قليلا * وصلى الله على سيدنا محمد الذي ابتعثه للخلق رسولا ونزل عليه
وحيه تتزيلا * وتخيره من أطهر الأعراق * وجعل شرعه القويم متمما لمكارم
الأخلاق * وعلى آله وأصحابه الذين كمل لهم بوقيته واتباعه الفضائل تكميلا
وسلم عليه وعليهم تسليما ابنا ذي روحه إلى أرواحهم المقدسة بكرة وأصيلا
﴿أما بعد﴾ فإن الله تعالى بلطيف حكمته * وما أودعه في ابداع العالم من
عجائب قدرته * خلق الإنسان مجبولا على الافتقار * وطبعه في أصل خلقته
على الاحتياج إلى السكن والاضطرار * ثم أراد سبحانه أن ييسر ما أحوجه إليه
فضلا منه ونعمة * فخلق له من نفسه زوجا ليسكن إليها وجعل بينهما مودة
ورحمة * وجعل ما ركبه فيهما من الشهوة * والحرص على استكمال النعيم
واللذة * داعية إلى حفظ الوجود * وبقاء النسل المقصود * وشرع للخلق
من النكاح المباح حكما هدى من الحيرة * وجدع به أنف الأنفة والغيرة
(ولما) كان التلذذ بالنساء أعظم اللذات وكان لهن من التقدم في قلوب الرجال
ما قدمهن الله سبحانه في كتابه على سائر الشهوات رأينا أن نجمع من ملح
أخبارهن ومستظرف نوادرهن وأشعارهن وما يستفل من أوصافهن

ويستقبح

حوالته على الحدعانقها

أنا والله أصلح للمعالي ✽ وأمشي مشيتي وأتيه تيها

(وكتبت في الطراز الآخر)

وأمكن عاشقي من صحن خدي ✽ وأمنح قبلتي من يشتهيها

وهي التي أولع بها أبو الوليد بن زيدون وإياها يخاطب بقوله

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ✽ والافق طلق ووجه الارض قد راقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم ✽ كما حللت عن اللبات أطواقا ✽

وللنسيم اعتلال في أصائله ✽ كأنه رق لي فاعتل اشفاقا ✽

لا سكن الله قلبا عن تذكركم ✽ فلم يطر بجناح الشوق خفاقا ✽

لو شاء حملي نسيم الريح نحوكم ✽ وافاكم بفتى أضناه مالاقى ✽

(ومن) كلام ابن زيدون مخبرا عن أول اجتماعه بها مما لم يثبت في الذخيرة قال كنت في أيام الشباب هائما غائما أرى الحياة متعلقة بقربها ولا يزيدني امتناعها الا اغتباطا بها فلما ساعد القضاء وآن اللقاء كتبت الى

ترقب اذا جن الظلام زيارتي ✽ فاني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك مالو كان بالشمس لم تلح ✽ وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

ثم لما طوى النهار كافوره ونشر الليل عنبره أقبلت بقد كالقضيب في ردف كالكثيب وقد أطبقت نرجس المقل على ورد الخجل فملنا الى روض مدبج وظل سجسج قد قامت رايات أشجاره وامتدت سلاسل أنهاره ودر الطل منثور وجيب الراح مزرور فلما شببنا نارها وادركت منا ثارها برح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه وبتنا بليلة نجتني أقحوان الثغور ونقتطف رمان الصدور ولما نشر الصبح لواءه وطوى الليل ظلماءه ودعتها وأنشدتها

ودع الصبر محب ودعك ✽ ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن ✽ زاد في تلك الخطى اذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسنا ✽ حفظ الله زمانا أطلعك

ان يطل بعدك ليلي فلكم ✽ بت أشكو قصر الليل معك

وذكر ابن بشكوال في الصلة ولادة هذه فقال كانت أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر قال ولم يكن لها تصاون يطابق شرفها وذكر انها توفيت سنة ثمانين واربعمائة ثم استدرك بعد ذلك فذكر انها توفيت سنة اربع وثمانين (ابو سعيد في المقتطف) قال كان أبو الفرج بن الجوزي اذا جلس على المنبر للوعظ رفع الناس اليه رقاعا بما يعرض لهم من المسائل فيقرؤها ويجيب عنها وهو على

المنبر

٢٠٣

المنبر قال فرفعت له ذات يوم امرأة مشهورة بالجمال والزعامة رقعة فيها ما يقول سيدنا الامام أمتع الله ببقائه وقد ألف في كل فن الا في الطب في امرأة ضربت عليها ما بين فخذيها وتجد أكالا شديدا بين شفريها وقد سألت عن ذلك جميع الاطباء فلم تجد لدائها دواء ولا علمت لعلتها غاية ولا انتهاء فلما وصلت الرقعة اليه قال واين صاحب الرقعة التي تتضمن مسئلة الطب الجواب وبالله التوفيق

يقولون ليلى في العراق مريضة ✽ فيا ليتني كنت الطبيب المداويا

قال فبكى الناس وتواجدوا ولم يعلموا ما تحت ذلك (ابو سعيد في كتابه المسمى بالطالع السعيد) قال كتبت حفصة بنت الحاج الركونية المشهورة بالادب والجمال الى بعض من كان بينها وبينه في ذلك الزمان صحبة واتصال

أزورك أم تزور فان قلبي ✽ الى ما شئتم أبدا يميل

وقد أمنت أن تظما وتضحى ✽ اذا وافى اليك بي المقيل

فثغري مورد عذب زلال ✽ وفرع ذوائبي ظل ظليل

فعجل بالجواب فما جميل ✽ اناتك عن بثينة يا جميل

(يشبه هذه الابيات) الابيات التي أنشدها ابن الحصين في تاريخه لسلمى بنت القراطيسي من أهل بغداد قال وكانت مشهورة بالجمال والادب وهي

عيون مها الصريم فداء عيني ✽ واجياد الظباء فداء جيدي

أزين بالعقود وان نحري ✽ لأزين للعقود من العقود ✽

ولا أشكو من الاوصاف ثقلا ✽ وتشكو قامتي ثقل النهود ✽

(قال) ابن الحصين وبلغت هذه الابيات المقتفي فقال اسألوا عنها هل تصدق صفتها قولها فقالوا اما يكون اجمل منها فقال اسألوا عن عفافها فقيل هي اعف الناس فارسل اليها مالا جزيلا وقال تستعين به على صيانة جمالها ورونق أدبها

✽ وهنا انتهى الكتاب ✽ والحمد لله على حسن معونته وصلواته المتوالية على خير بريته سيدنا محمد وآله وذريته واستغفر الله تعالى مما خطته يميني ونطق به لساني من لغط الكلام وسقطه وفضول القول وهذره

✽ يقول مصححه الراجي غفر المساوي السيد حماد الفيومي الحماوي ✽

نحمدك اللهم يا من خلقت نوع الانسان بباهر قدرتك في أحسن تقويم وأعليت من شئت من أفراده باختصاصك له الى ذروة التفضيل والتكريم وخلقت له زوجا من نفسه ليميل بغريزي طبعه اليه ✽ وجعلت بينهما من المودة

مقدمة المحقق

أحمدك يا رب العالمين حمدًا كثيرًا ملء السموات والأرض وما بينهما، وأشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأشهد أن محمدًا عبدك ورسولك، وأسألك أن تصلى وتسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعهم الذين اهتدوا بهديه وتبعوا سنته.

أما بعد: فقد اطلعت على كتاب «تحفة العروس» للعالم الكبير محمد بن أحمد التجاني فوجدته درَّة نفيسة في بابه لما تضمنه من أبواب متنوعة في الحض على النكاح، واختيار الزوجه، والوقت المستحب لعقد النكاح، ومعاشرة النساء، والغيرة المحمودة والمذمومة وغيرها من أبواب.

وقد وضع مؤلفه في كل باب من هذه الأبواب فوائد شوارد لا توجد مجموعة إلا فيه، فجاء كما وصفه مؤلفه «تحفة العروس ونزهة النفوس»، وأسأل الله تعالى أن ينفع به كل من قرأه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد.

كتبـــه

المحدث الشيخ/

صلاح محمد محمد عويضه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي سوّغنا الفضل جزيلاً، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، وأسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة ما جعل كثير الشكر بالنسبة إليه قليلاً، وصلى الله على سيدنا محمد الذي ابتعثه للخلق رسولاً، ونزل عليه وحيه تنزيلاً، وتخيره من أطهر الأعراق، وجعل شرعه القويم متممًا لمكارم الأخلاق، وعلى آله وأصحابه الذين كمل لهم برؤيته واتباعه الفضائل تكميلاً وسلم عليه وعليهم تسليمًا يتأدى روحه إلى أرواحهم المقدسة بكرةً وأصيلاً.

أما بعد: فإن الله تعالى بلطيف حكمته، وما أودعه في إبداع العالم من عجائب قدرته. خلق الإنسان مجبولاً على الافتقار، وطبعه في أصل خلقته على الاحتياج إلى السكن والاضطرار، ثم أراد سبحانه أن ييسر ما أحوجه إليه فضلاً منه ونعمة، فخلق له من نفسه زوجًا ليسكن إليها، وجعل بينهما مودّة ورحمة، وجعل ما ركبه فيهما من الشهوة، والحرص على استكمال النعيم واللذة، داعية إلى حفظ الوجود، وبقاء النسل المقصود، وشرع للخلق من النكاح المباح حكمًا هدى من الحيرة، وجدع[1] به أنف الأنفة[2] والغيرة .

ولما كان التلذذ بالنساء أعظم اللذات وكان لهن من التقدم في قلوب الرجال ما قدمهن الله سبحانه في كتابه على سائر الشهوات رأينا أن نجمع من ملح أخبارهن ومستظرف نوادرهن وأشعارهن وما يستحلى من أوصافهن ويستحب من ألوانهن وأسنانهن ويستحسن من آدابهن ويمدح من خلقهن وأخلاقهن، ومن ينبغي للرجل أن يتخير لنكاحه منهن وبيان جمل أحكامهن نبذًا تجمع بين إفادة العلم وإمتاع النفوس. فجمعنا هذا الكتاب المسمى بـ «**تحفة العروس**» .

وانتظم ما تضمنه من الفنون في خمسة وعشرين بابًا، يشتمل كثير منها على فصول تتعدد بحسب ما تتنوع ترجمة الباب إليه. وقد أثبتها مسرودة على تواليها بائحة بما تضمنته قبل النظر فيها :ـ

---

(١) جدع: قطع. المعجم الوسيط (١/١١٠).

(٢) الأنفة: العزة والحمية. المعجم الوسيط (١/٣٠).

الباب الأوّل: جامع في النساء وما يتقى من فتنتهن وما زينه الله ﷻ في قلوب الرجال منهن، وحكمة الله سبحانه في أن خلقهن والرجال من نفس واحدة ليسكن بعضهم إلى بعض وكراهة الخلوة مع غير ذوات المحارم، وما يؤمر الرجل أن يفعله إذا رأى امرأة فأعجبته.

الباب الثاني: في العفاف والتصوّن وثواب من منع النفس هواها وقمعها عن شهواتها المحرمة ومناها.

الباب الثالث: في الحض على النكاح والإنكار على من ترك النساء زهدًا، وذكر اختلاف الناس في وجوبه أو استحبابه.

الباب الرابع: في تخير الرجل لنطفته وبيان الخصال التي تتزوّج لها المرأة، وما ينبغي للرجل أن يقصده من ذلك، ومن يتجنب من النساء.

الباب الخامس: فيما يباح للرجل من النظر إلى المرأة إذا أراد نكاحها.

الباب السادس: في ذكر الصدقات وما ورد في كثرتها وقلتها وكراهة المغالاة فيها.

الباب السابع: في الوقت المستحب لعقد النكاح والوليمة، وما ينبغي أن يدعى به للمتناكحين.

الباب الثامن: في جلاء العروس عند ابتناء زوجها بها ودخولها على الرجل ليلاً أو نهارًا، واستحباب اللهو في ذلك، وما ينبغي للرجل والمرأة أن يمتثلا عند الاجتماع وقبل الوقاع، وذكر جمل من آداب الجماع.

الباب التاسع: في الزينة والطيب، وما ينبغي للمرأة من ملازمة ذلك، وأنه من أعظم الأسباب الموجبة لحظوتها عند زوجها.

الباب العاشر: في زينة الرجل، وما يستحب له من التهيؤ لزوجته كما يجب أن تتهيأ له، والنهى عن إكراه المرأة الحسناء على تزوج الرجل القبيح، والحدثة على تزوّج المسن.

الباب الحادي عشر: في معاشرة النساء وموافقتهن، وحقوق المرأة على الرجال، وماله من الحق عليها، وذكر وصايا من وصايا الحكماء لبناتهم عند هدائهن.

الباب الثاني عشر: في السراري.

فصل: في ذكر الخصور.

فصل: في ذكر العكن.

فصل: في السرر.

فصل: في ذكر الفرج وما قيل في النظر إليه منعًا وإباحة.

فصل: في ذكر الأرداف.

فصل: في ذكر للسوق.

فصل: في ذكر الأقدام.

الباب الحادي والعشرون: جامع لذكر الجماع، وبيان ما فيه من المنافع والمضار وما قيل في الإقلال منه والإكثار، ومذاهب العرب في وطء الليل ووطء النهار، وذكر أسماء من أسماء النكاح منزلة على حسب ما نزلتها العرب في لغاتها.

الباب الثاني والعشرون: في الزهد في الجماع.

الباب الثالث والعشرون: في الوطء فيما دون الفرج، وذكر صور من صور النكاح ورد ذكرها في بعض الأحاديث.

الباب الرابع والعشرون: في الغيرة، وما يحمد منها وما يذم.

الباب الخامس والعشرون: يشتمل على ملح من ملح المفاكهات والمطايبات تتعلق جميعها بالنكاح وهو خاتمة الأبواب.

(وذكرنا) في كل باب من هذه الأبواب ما يليق به من الأحاديث النبوية، وتعرضنا لإيراد ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية وتبيين كثير مما يشكل من الألفاظ اللغوية، وكثيرًا ما نتعرض لشرح الأحاديث التي نذكرها إما بنقل أقوال الناس فيها، وإما بمعان منتزعة يظهرها النظر ويبديها، وربما تعرضنا لتصحيح ما حكم العلماء بصحته من تلك الأحاديث وتسقيم ما حكموا بتسقيمه بحسب العلم والإحاطة، وإذا ذكرنا في باب من الأبواب حديثين فأكثر وحكمنا بصحة أحدهما أو ضعفه فليس سكوتنا عن الباقي حكمًا بأنه على خلاف ذلك. بل إنما ننبه على ما أمكن ونذكر من ذلك ما تيسر، وذلك بحسب النشاط والتفرغ للنظر، وليس كتابنا هذا في الحقيقة كتاب سمر، وإنما هو كتاب علم ونظر، ومن الله ﷻ نستمد الإعانة، وإياه نسأل الهداية، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الأول

جامع في النساء وما يتقى من فتنتهن وما زينه الله سبحانه في قلوب الرجال منهن وحكمة الله سبحانه في أن خلقهن والرجال من نفس واحدة ليسكن بعضهم إلى بعض وكراهة الخلوة مع غير ذوات المحارم وما يؤمر الرجل أن يفعله إذا رأى امرأة فأعجبته

(قال) الله ﷻ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾[آل عمران: ١٤]، فجعل الله ﷻ النساء في هذه الآية رأس الشهوات بتقديمه إياهن على ما ذكر منها، وذلك لتقدمهن في قلوب الرجال على جميعها (وكانت) عائشة رضي الله عنها تقول: من شقوتنا أن الله سبحانه قدمنا حيث ذكر الشهوات ثم تتلوا هذه الآية.

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم: ٢١]، فجعل ﷻ خلق بعضهم من بعض علة لسكون بعضهم إلى بعض، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[الأعراف: ١٨٩]، إذ الإنسان لجنسه أميل وعليه أقبل (جاء) في الحديث أن الله سبحانه لما خلق آدم وأسكنه جنته بقي في الجنة مستوحشًا ليس له من يسكن إليه فألقى الله سبحانه عليه السنة، ثم أخذ ضلعًا من أضلاعه من شقه الأيسر وهو القصير فخلق منها حواء فاستيقظ فإذا هي عند رأسه، فسألها: من أنت؟ فقالت: امرأة، قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي، فذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[الأعراف: ١٨٩]، وكان من هبوطهما إلى الأرض وانتشار الذرية منهما ما كان .

(وروي) عبد الرحمن بن ميسرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ الرجل يتزوّج المرأة لا يعرفها ولا تعرفه، ثم لا يكون إلا ليلة حتى لا يكون شيء أحب إليه منها وإليها منه، فقال رسول الله ﷺ: «تلك ألفة الله»، وتلا قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[الروم: ٢١]، (وقال) طاوس في قوله تعالى ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[النساء: ٢٨]، قال: إذا نظر إلى النساء لم يتمالك (وقال) قتادة في قوله ﷻ ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا

بِهِۦ ﴾[البقرة: ٢٨٦]، قال: هو الصبر عن النساء. وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يقول في تعوذه: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النساء وعذاب القبر». عبد الرحيم بن زيد العمى بإسناده عن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا النساء لعبد الله حقًا» عبد الرحيم راويه منكر الحديث (البخاري) عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء» (مسلم) عن أبى سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعلمون، فاتقوا الله واتقوا النساء، فإن أوّل فتنة في بني إسرائيل كانت في النساء» (البزار) عن أبى سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صباح إلا وملكان يناديان سبحان الملك القدوس، وملكان يناديان اللهم أعط منفقًا خلفًا وممسكًا تلفًا، وملكان موكلان بالصور حتى يؤمران فينفخان، وملكان يناديان يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر، وملكان يناديان ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال» وقال ﷺ في بعض خطبه: «النساء حبائل الشيطان والشباب شعبة من الجنون» (وقال) سعيد بن المسيب: ما يئس الشيطان من ولى قط إلا أتاه من قبل النساء، وكان سعيد قد بلغ بضعًا وثمانين سنة، وكان يقول: ما أمسيت أخاف على نفسي إلا النساء، (أبو عثمان النهدى) قال: مر أبو بكر الصديق ﷺ في خلافته بطريق من طرق المدينة فسمع جارية تهتف بمحمد بن القاسم بن جعفر بن على بن أبى طالب في شعر غنت به فسألها أحرة هي أم مملوكة؟ فقالت: مملوكة، فاشتراها وبعث بها إليه وقال له: هؤلاء فتن الرجال، كم مات بهن من كريم وعطب بهن من سليم.

(قال) يونس بن عبيد: صحبت الحسن البصري ثلاثين سنة ما سمعته قط خاض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا إنما كان أكثر ذكره الموت حتى أتته امرأة يومًا ناهيك من امرأة شبابًا وجمالاً وشحمًا ولحمًا يدفع بعضها بعضًا فجلست بين يديه وقالت: يا شيخ أيحل للرجل أن يتزوّج على امرأته وهى شابة جميلة ولود؟ قال: نعم أحل الله له أربعًا، قال: فكشفت عن وجه لم ير مثله حسنًا، وقالت: أو على مثلى؟ قال: نعم، قالت: سبحان الله العظيم بعيشك يا أبا سعيد! لا تفت الرجال بهذا، ثم قامت منصرفة وأتبعها الحسن بصره، ثم قال: ما ضر امرأ كانت هذه عنده ما فاته من دنياه (وأنشد) أبو الفرج في كتاب النساء للأسود الخاقانى وقد عاتبته امرأة على هوى له:

ويـك إن المـلام يفـرى الملومـا ... لـيس جرمـي كمـا زعمـت عظيمـا

إن أكــن عاشــقاً فلــم آت إلا ... مــا أتتــه الرجــال قبلــي قــديما

إنمــا يكثــر التعجــب ممــن ... كــان مــن فتنــة النــساء سـليما

(الجوزى) في «كتاب الأذكياء» قال: مر شاعر بنسوة فأعجبه حسنهن، فأنشد يقول:

إن النــساء شــياطين خلقــن لنــا ... نعــوذ بــالله مــن شــر الــشياطين

قال: فأجابته واحدة منهن:

إن النــساء ريــاحين خلقــن لكــم ... وكلكــم يــشتهى شــم الريــاحين

(وعلى) قولها إن النساء رياحين حكي صاحب كتاب «واجب الآداب» قال: وقع خالد بن يزيد بن معاوية يومًا في عبد الله بن الزبير وأقبل يصفه بالبخل وزوجته رملة بنت الزبير أخت عبد الله جالسة فأطرقت ولم تتكلم بكلمة، فقال لها خالد: مالك لا تتكلمين أرضًا بما قلته أم تنزها عن جوابي؟ فقالت: لا هذا ولا ذاك، ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال إنما نحن رياحين للشم والضم فما لنا وللدخول بينكم، فأعجبه قولها فقام وقبل بين عينيها، والأصل قول على بن أبى طالب ﷺ لولده: لا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها، فإنما هي ريحانه وليست بقهرمانة[1] (يزيد بن حبيب) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كلكم حصان ما لم يراود. قال الراوي: تريد ما لم يتعرض له النساء، (قال) أبو المختار: لقيت امرأة من قومي بمكة فجلست أحدثها وعبد الله بن عباس ﷺ يصلى فسمعني أقول لها يا فلانة استوحش لفراقك القلب وجاورني من لا أهوى، فكنت كما قال الأوّل :

أيبعـد مـن أهـوى ويـشعفنا النـوى ... بمــن لا يبــالى أن يفارقــه أهلــي

فأقبل عليّ ابن عباس؛ وقال: ما هذه المرأة منك؟ قلت: من العشيرة وبنات العم، فقال: قم وإلا وقعتهما في فتنة إن النساء حبائل الشيطان، فإياك أن تخلو بامرأة إلا أن تكون محرمًا (البخاري) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم»**[2] وفي حديث آخر: **«لا يخلون رجل بامرأة، فأيما رجل خلا بامرأة**

(١) قهرمانة: مديرة البيت ومتولية شئونه. المعجم الوسيط (٢/٧٦٤).

(٢) البخاري في: النكاح: حديث (٥٢٣٣)، ومسلم في: الحج: حديث (٤٢٤/١٣٤١).

كان الشيطان ثالثهما»[1] (وعن) ابن عباس أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء» قال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو، قال: «الحمو الموت»[2] قال الهروى في "غريبة": أراد أن خلوة الحمو معها أشد من خلوة غيره من البعداء. قال ثعلب: سألت ابن الأعرابي عن قوله: "الحمو الموت؟" فقال: هذه كلمة تقولها العرب مثلاً كما يقولون: الأسد الموت، وكما يقولون: السلطان نار. والمعنى: أحذروهما كما تحذرون الموت والنار (مسلم) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امرأته زينب فقضى حاجته منها، ثم خرج إلى أصحابه فقال: «إن المرأة تقبل وتدبر في صورة شيطان فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يردّ ما في نفسه»[3] (وعنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت في قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها فإن ذلك يردّ ما في نفسه»[4] قال عياض في "الإكمال": قوله "إن المرأة تقبل وتدبر في صورة شيطان" أشارة إلى أنها تدعو إلى الهوى والفتنة بجمالها وما جعل الله في طباع الرجل من الميل إليها، كما يدعو الشيطان بوسوسته وإغوائه لذلك، وقوله «فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله» .

تنبيه : لدواء الداء المحرك للشهوة بإطفائه بالمواقعة وتسكين النفس بإراقة ما تحرك من الماء، قال: ولا تظن بمواقعة النبي ﷺ لزينب حين رأى المرأة أنه وقع في نفسه شيء منها بل هو ﷺ منزه عن الميل، ولكنه ﷺ فعل ذلك لتقتدي به أمته في الفعل ويمتثلوا أمره بالقول، قال: وقد يكون ﷺ عند رؤية شخص ظاهر الحسن تذكر به من عنده، فذهب فقضى حاجته منها.

وبالله سبحانه أستعين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) [صحيح] الترمذي في: الفتن: حديث (٢١٦٥).

(٢) البخاري في: النكاح: حديث (٥٢٣٢)، ومسلم في: السلام: حديث (٢٠/٢١٧٢).

(٣) مسلم في: النكاح: حديث (٩/١٤٠٣)، وأبو داود في: النكاح: حديث (٢١٥١)، وأحمد في «مسنده» (٣/٣٣٠).

(٤) مسلم في: النكاح: حديث (١٠/١٤٠٣)، وأحمد في «مسنده» (٣/٣٤٨).

الباب الثاني

في العفاف والتصون وثواب من منع النفس هواها وقمعها عن شهواتها المحرمة ومناها

(قال) الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[النازعات:٤٠،٤١]، وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب فعف فمات فهو شهيد» ذكره أبو الفرج في كتاب النساء،[١] وفي رواية «من أحب فكتم وعف فمات»[٢] يروى هذا الحديث سويد بن سعيد عن يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وسويد بن سعيد قد تكلم فيه على أن مسلمًا رحمه الله خرج له في صحيحة، وعيب ذلك على مسلم أيضًا. (مالك) عن حبيب بن عبد الرحمن الأنصاري عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد أو عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم إلا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «شابًا نشأ في عبادة الله ﷻ ورجلاً دعته امرأة ذات حسن وجمال؛ فقال: إني أخاف الله» وهكذا روى هذا الحديث عن مالك رضي الله عنه على الشك في أبي سعيد وأبي هريرة، والحديث محفوظ لأبي هريرة،[٣] وكذا رواه غير مالك رضي الله عنه عن[٤] عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «يعجب ربك من شاب ليست له صبوة»[٥] (ابن عمر) قال: كانت يمين رسول الله ﷺ "لا ومقلب القلوب"،[٦] قال: وكان يقول: «أفضل الجهاد جهاد الهوى». وفي غير هذا الحديث أن رسول الله ﷺ كان يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك"، قالت عائشة: فقلت يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء، فهل تخشى؟ قال: «وما يؤمنني، يا عائشة قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن فإذا أراد أن يقلب قلب عبده قلبه وقلب السبابة والوسطى»[٧]

---

(١) [موضوع] الأسرار المرفوعة (٣٥٣).

(٢) [موضوع] الأسرار المرفوعة (٣٥٢).

(٣) البخاري في: الأذان: حديث (٦٦٠)، ومسلم في: الزكاة: حديث (١٠٣١/٩١).

(٤) لفظة « عن » زيادة من المحقق.

(٥) أحمد في «مسنده» (١٥١/٤).

(٦) البخاري في: الأيمان والنذور: حديث (٦٦٢٨)، وأبو داود في: الأيمان والنذور: حديث (٣٢٦٣) ، والترمذي في: الأيمان والنذور: حديث (١٥٤٠)، والنسائي في: الأيمان والنذور جـ (٧) ص(٢٣)، والدارمي في: النذور والأيمان: حديث (٢٣٥٠).

(٧) [حسن] الترمذي في: القدر: حديث (٢١٤٠)، وأحمد في «مسنده» (١١٢/٣).

(وجاء) في أثر: اعص الهوى والنساء، واصنع ما شئت (على بن أبى طالب ﷺ) قال: سمعت رسول الله ﷺ وذكر النظر إلى النساء فقال: «النظرة الأولى لك -يعنى نظرة الفجأة- والثانية عليك لا لك، والنظرة إلى المرأة سهم من سهام إبليس؛ فمن تركه خوف الله تعالى آتاه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»[1] وقال الأعمش في قول الله ﷻ ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾[النور:٣١]، قال: نهيت المرأة أن تنظر إلى غير زوجها، (قال) أبو الفرج في "كتاب النساء": سأل رسول الله ﷺ عليًا ﷺ وجماعة من الصحابة ﷺ عما هو خير النساء فلم يدروا ما يقولون فانصرف على ﷺ إلى فاطمة فذكر لها ذلك، فقالت: إن خير النساء اللائي لا يرين الرجال ولا يرونهن، فأخبر على ﷺ بذلك رسول الله ﷺ، فقال: أعنك هذا أم عن غيرك؟ فقال: بل أخبرتني به فاطمة، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ. وقال: «إنما فاطمة بضعة منى». (سعد مولى طلحة) قال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا لو لم أسمعه منه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبعًا لما حدثت به، ولكنى سمعته أكثر من ذلك قال: «كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا ينزع عن ذنب يأتيه، فأتته امرأة فأعطاها دنانير على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت فرائصها فقال لها: ما شأنك أأكرهتك؟ قالت: لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط، قال: فما حملك عليه؟ قالت: الحاجة، قال: فترك، ثم قال: اذهبي والدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصى الله ذو الكفل أبدًا فمات من ليلته فأصبح مكتوبًا على بابه قد غفر الله لذي الكفل»(البخاري) عن نافع عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما ثلاثة نفر يمشون إذ أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت عليهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم الغار، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله تعالى صالحة فادعوه بها، فقال أحدهم: اللهم إنه كانت لى ابنة عم فأحببتها كأحب ما يحب الرجال النساء فطلبت إليها نفسها فأبت أو آتيها بمائة دينار فبقيت وفي رواية أخرى: فسعيت حتى جمعتها فأتيتها بها فلما قعدت بين رجليها قالت يا عبد الله اتق الله ولا تفضض الخاتم إلا بحقه فقمت عنها، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة قال: ففرج الله من الصخرة فرجة، وقال الآخران مثل ذلك في أعمال عملاها خالصة لله تعالى ففرج الله عنهم بقية الصخرة»، وفي بعض روايات البخاري: «فطلبت إليها نفسها فامتنعت حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بيني وبينها ففعلت، فلما قدرت

---

(١) أحمد في «مسنده» (٣٥١/٥)، والحاكم في «مستدركه» (٣١٤/٤).

عليها قالت: يا عبد الله لا يحل لك أن تفتح الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها وانصرفت عنها وهي أحب الناس إلى وتركت لها ما كنت أعطيتها»[1]. (فضيل بن رزين) قال: دخل رجل غيضة[2] له، فقال: لو خلوت هنا بفلانة فلم يرنا أحد، فسمع صوتًا ملأ الغيضة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤]، وهذا كما قال نابغة بن شيبان أنشده أبو على في الأمالي:

إن مــن يركــب الفــواحش ســرًا ... حــين يخلــو بــسره غــير خــالى

كيــف يخلــو وعنــده كاتبــاه ... شــاهداه وربــه ذو الجــلال

وقال آخر:

إذا ما خلوت الـدهر يومـا فـلا تقـل ... خلـوت ولكـن قـل علـى رقيـب

ولا تحـــسبن الله يغفــل ســاعة ... ولا أن مــا تخفيــه عنــه يغيــب

(قال) رجل: خرجت في ليلة مظلمة فإذا أنا بجارية كأنها علم فتعرضت لها، فقالت: أمالك يا هذا زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين؟ قلت: يا هذه إنه والله لا يرانا إلا الكواكب، فقالت: يا جاهل وأين مكوكبها ثم ذهبت عنى (قال) أبو الفرج في الأغاني: كان عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمار من بني جشم بن معاوية ينزل مكة وكان من عباد أهلها فسمى القس لعبادته فمر ذات يوم بدار سلامة المغنية المعروفة بسلامة القس وإنما سميت به لأنه من مر بدارها وهى تغنى فوقف يسمع غناءها فرآه مولاها فدعاه إلى أن يدخل إليها ليسمع منها فأبى، فقال له: إني أقعدك في مكان تسمع منها ولا تراها ولا تراك، قال: أما هذا فنعم فأدخله داره وأجلسه حيث يسمع غناءها، ثم أمرها فخرجت إليه فلما رآها علقت بقلبه فهام بها واشتهر وشاع خبرة، قال: وجعل يتردد إلى منزل مولاها مدة طويلة، ثم إن مولاها خرج يومًا لبعض شأنه وخلفه مقيمًا عندها فقالت له: والله إنى لأحبك، فقال لها: وأنا والله كذلك، قالت: فما يمنعك، فوالله إن المكان لخال؟ قال: يمنعني قول الله ﷻ ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧]، فأكره أن تتحول مودتي لك عداوة يوم القيامة، ثم نهض فخرج وهو يبكى فما عاد لها، (صاعد في الفصوص) قال: خلا أعرابي بامرأة فهم منها بريبة فساعدته فلما قعد منها مقعد

---

(١) البخاري في: الحرث والمزارعة: حديث (٢٣٣٣)، ومسلم في: الذكر والدعاء: حديث (١٠٠/٢٧٤٣).

(٢) غيضة: موضع يكثر فيه الشجر ويلتف. (المعجم الوجيز) ص: ٤٥٨.

الرجل من المرأة أدركته عصمة الله تعالى، فتنحى عنها، ثم قال: إن امرأ باع جنة عرضها السموات والأرض بمقدار ما بين رجليك لمغبون الحظ، وفي رواية أخرى: لقليل البصر بالمساحة (وقيل) لبعض الأعراب وقد طال حبه لجارية: ما كنت صانعًا لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله تعالى؟ قال: أخاف الله لا أجعله أهون الناظرين، ولكن أصنع معها ما أصنع بحضرة أهلها حديث طويل ولحظ كليل وترك ما يكرهه الرب وينقطع به الحب.

(قال) سعيد بن عقبة: قلت لأعرابي من بني عذرة ممن أنت يا أعرابي؟ فقال: من قوم إذا عشقوا ماتوا، قلت: فأنت إذا من بني عذرة، قال: أجل، قلت: ولم كان ذلك فيكم؟ قال: في نسائنا صباحة، وفي فتياننا عفة (وقال) سفيان بن زياد: قلت لرجل من بني عذرة ورأيت به هوى غالبًا: ما بال العشق يقتلكم يا بني عذرة من بين أحياء العرب؟ قال: فينا جمال وتعفف ونرى محاجر لا ترونها (وأنشد) أبو الفرج في (كتاب النساء) لأم فروة الغطفانية:

وما ماء مزن أي مزن تقوله	تحدر من غر طوال الذوائب
نفى نسم الريح القذى عن متونه	فليس به عيب تراه لشارب
بمنعرج من بطن واد تقابلت	عليه رياح الصيف من كل جانب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه	تقي الله واستحياء بعض العواقب

وذكر هذه الأبيات صاحب الزهر، وقال: إنها لعاتكة المرية في ابن عم لها كانت تهواه. (وروى) سفيان الثوري أن على بن أبى طالب ﷺ كان كثيرًا ما يتمثل بقول الشاعر:

تفنى اللذاذة ممن نال شهوته	من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها	لا خير في لذة من بعدها النار

(وكان) الرشيد يستحسن قول ابن مطير:

وقد تغدر الدنيا فيضحى غنيها	فقيرًا ويغنى بعد بؤس فقيرها
فلا تقرب الأمر الحرام فإنه	حلاوته تفنى ويبقى مرها

(قال اليزيدى): دخلت على الرشيد وفي يده ورقة تارة ينظر فيها وتارة ينظر إلى فسألته عنها، فقال: بيتان وجدتهما، فأضفت لهما ثالثًا:

إذا سد باب عنك من دون حاجة فدعه لأخرى ينفتح لك بابها

فإن قراب البطن يكفيه ملؤه ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها

ولا تك مبذالاً لعرضك واجتنب ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

(وأنشد) صاحب الزهر لإبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه:

ليس الظريف بكامل في ظرفه حتى يكون عن الحرام عفيفا

فإذا تعفف عن محارم ربه فهناك يدعى في الأنام ظريفا

(ابن الجوزى) في كتابه المؤلف في أخبار عمر بن الخطاب ﷺ بسنده عن السائب بن جبير مولى ابن عباس وعن مجالد يدخل حديث بعضهما في حديث بعض قال: خرج عمر ابن الخطاب ﷺ يطوف بالمدينة ليلة وكان يفعل ذلك كثيرًا فسمع امرأة تغنى تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني إذ لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله لا رب غيره لزعزع من هذا السرير جوانبه

وبت الهي غير بدع منعما هضيم الحشا لا يحتويه مصاحبه

ولكنني أخشى رقيباً موكلاً بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

ثم تنفست الصعداء، وقالت: لهان على عمر بن الخطاب وحشتي وغيبة زوجي عني فتأوّه عمر، ثم توجه إلى ابنته حفصة فقالت: ما جاء بك يا أمير المؤمنين في هذه الساعة؟ قال لها: أردت أن أسألك كم تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها؟ قالت: ستة أشهر، فكتب عمر بإقفال زوجها عليها، وكان بعد ذلك لا يغزى جيشًا له أكثر من ستة أشهر، (ونحو من هذه الحكاية) الحكاية الأخرى التي يرويها الشعبي قال: مر عمر بن الخطاب ﷺ ليلاً في بعض طرق المدينة فسمع امرأة تقول:

دعتني العين بعد فراق عمرو إلى اللذات تطلع اطلاعا

فقلت أبى فؤادي أن تطاعي وإن طالت إقامته أطاعا

أحاذر إن أطعتك حر نار ومخزاة تجللني قناعا

فضرب عليها الباب واستعادها الأبيات فأعادتها عليه، فقال لها: وما يمنعك من مطاوعة عينك؟ قالت: الحياء وإكرام عرضي، فقال عمر: من استحى ومن وفي اتقى، أين زوجك؟ قالت: في بعث كذا، فكتب إلى صاحب جيشه فأقفله عليها، (الهيثم بن عدى) قال: قدمت امرأة من مكة وكانت من أجمل النساء فنظر إليها عمر بن أبى ربيعة فوقعت في قلبه فكلمها فلم تجبه، فلما كان في الليلة الثانية تعرض إليها، فقالت: إليك عنى فإنك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة، فألح عليها في الكلام فخافت الشهرة، فقالت لأخيها في الليلة الثالثة: أخرج معي فأرني المناسك، فتعرض لها عمر، فلما رأى أخاها معها أعرض عنها. فتمثلت بقول الشاعر:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ... وتتقي صولة المستأسد الضاري

وسمع أبو جعفر المنصور هذا الخبر، فقال: وددت لو أنه لم تبق فتاة من قريش إلا سمعت هذا الخبر (وذكر) أبو الفرج في الأغاني هذا الخبر على وجه آخر فذكر أن أبا الأسود الدؤلى حج مع امرأته وكانت جميلة، فبينما هي تطوف بالبيت عرض لها عمر فلم تكلمه فأخبرت أبا الأسود بذلك فلامه فأنكر عمر، ثم طافت ثانية فعاد عمر إلى معارضتها فأخبرت أبا الأسود فعاتبه فأنكر ذلك وكذلك ثالثة، ثم خرجت في الليلة الرابعة وخرج معها أبو الأسود مشتملاً على سيفه فلما رآهما عمر أعرض عنهما فتمثل أبو الأسود بالبيت المذكور أوّلاً.

(حصين بن عبد الرحمن) عن أبى عطية قال: أتانا كتاب عمر بن الخطاب ﷺ أن حلوا نساءكم الفضة ولا تحلوهن الذهب وعلموهن سورة النور إنما خص عمر ﷺ النساء بتعلم هذه السورة ليبعثهن بذلك على العفة ولزوم الحياء والتخفر، وذلك أنهن إذا تأملن ما فيها من أحكام الزناة وإغلاظ العقوبة لهم وترك الهوادة في أمورهن ارتدعن عن الفواحش وإذا تدبرن ما فيها من بيان أمر الحجاب وما أخذ عليهن من غض البصر وحفظ الأطراف وترك التبرج بالزينة لزمن الحياء والتخفر. ويأتي الكلام على هذا الأثر إن شاء الله تعالى.

الباب الثالث

في الحض على النكاح والإنكار على من ترك النساء زهداً وذكر اختلاف الناس في وجوب النكاح أو استحبابه

(قال) الله ﷻ: ﴿ وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النور:٣٢]، (قال) سفيان بن عيينة: حدثنا ابن عجلان قال: قال عمر بن الخطاب ؓ: إني لأعجب ممن يدع النكاح بعد سماعه لهذه الآية.

(أبو بكر بن شبل) في (كتاب النساء) له من حديث سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة عن عبيد بن معمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب فطرتي فليستن بسنني ومن سنتي النكاح»[١] (أبو داود) عن ابن نجيح ويقال ابن أبي نجيح قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان موسرًا لأن ينكح فلم ينكح فليس منا»[٢] والحديث مرسل (ومن) مراسيل أبي داود أيضًا عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنكحوا النساء فإنهن يأتينكم بالمال»[٣] وهو معنى قوله تعالى ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النور:٣٢]، (النسائي) عن معاوية بن قرة عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[٤] وفي بعض روايات هذا الحديث «فإني مباه بكم» فيه تنبيه على أن فائدة النكاح كثرة النسل وحفظ الوجود إذ لا يمكن بقاء العالم إلا بالنكاح، والفقهاء يقولون: من فوائده الاطلاع على بعض اللذات الأخروية (قال) الغزالي رحمه الله تعالى في الأحياء: ولعمري إن ما قالوه لصحيح وإن في هذه اللذة التي لا توازيها لذة لو دامت لتنبيها على اللذات الموعودة في الجنان إذا الترغيب في لذة لا تعرف لا ينفع، فلو رغب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة الملك لم ينفع الترغيب فيه فإحدى فوائد هذه اللذة في الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ليكون ذلك باعثًا على عبادة الله ﷻ، قال: فانظر إلى حكمة الله تعالى ثم رحمته كيف جعل تحت شهوة واحدة حياتين حياة ظاهرة وحياة باطنه. فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله، والحياة الباطنة هي الحياة الأخروية

---

(١) [ضعيف] البيهقي في «السنن الكبرى» (٧٨/٧).

(٢) أبو داود في «المراسيل» (٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧٨/٧).

(٣) [ضعيف] أبو داود في «المراسيل» (٢٣)، والحاكم في «مستدركه» (١٦٢/٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤٧/٩).

(٤) [صحيح] أبو داود في: النكاح: حديث (٢٠٥٠)، والنسائي في النكاح: جـ (٦) ص(٦٥٦٦).

فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة في الكاملة بلذة الدوام، فتحث على العبادة الموصلة إليها. انتهى كلام الغزالي رحمه الله تعالى .

(ويروى) عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يقول: إني لأتزوج المرأة ومالي بها حاجة فأطؤها ومالي فيها شهوة، قيل: فما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أحب أن يخرج مني من يكاثر به النبي ﷺ النبيين عليهم الصلاة والسلام يوم القيامة. (مسلم) عن علقمة بن قيس قال: كنت أمشي مع عبد الله يعني ابن مسعود بمنى فلقيه عثمان فقام معه يحدثه، فقال له عثمان: يا أبا عبد الرحمن ألا أزوجك جارية شابة لعلها تذكرك بعض ما مضى من زمانك وفي رواية: لعلها ترجع إليك ما كنت تعهد، فقال عبد الله: لئن قلت ذلك لقد قال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1] الباءة تطلق ويراد بها النكاح الذي هو العقد، وتطلق ويراد بها الوطء. (قال) المازرى في المعلم «بها في الحديث العقد؛ لأنه قال: والمراد ومن لم يستطع فعليه بالصوم» ولو كان غير مستطيع للوطء لم يكن به حاجة إلى الصوم، ولا يبعد عندي أن يكون الباءة في الحديث بمعنى الوطء، وتكون الاستطاعة كناية عن وجود الأسباب أي من قدر على أن يتوصل إلى الوطء بوجود أسبابه وهي المال مثلاً فليتزوّج، ومن لم يقدر عليه أي تعذرت أسبابه فليصم (وقوله) فعليه بالصوم قال المازرى: فيه إغراء بالغائب، ومن أصول النحاة أن لا يغرى بغائب. قال عياض: هذا الذي قاله المازرى موجود لبعضهم بنصه وفيه غلط من وجهين، أحدهما: قوله لا يغرى بغائب وهو لفظ جاء على غير تأمل، وإنما الصواب أن يقول فيه إغراء الغائب ولا يغرى غائب. والوجه الثاني: عند قوله فعليه من إغراء الغائب قال: والصواب أنه ليس فيه إغراء غائب جملة وأن الكلام كله والخطاب للحاضرين الذين خاطبهم النبي ﷺ من الشباب فقال «من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم» قال: فالهاء هنا ليست لغائب، وإنما هي لمن خصه من الحاضرين بعدم الاستطاعة إذ لا يصح خطابه بكاف المخاطبة لأنه لم يتعين منهم مع أنه حاضر، قال: وهذا كثير في القرآن والحديث والكلام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى إلى قوله فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ﴾[البقرة:١٧٨]، فهذه الهاء لحاضر في الحقيقة وليست لغائب قال: ومثل ذلك قولك لرجلين حاضرين: من قام منكما الآن فله درهم فهذه الهاء لمن قام منهما وهما حاضران هذا

(١) البخاري في: النكاح: حديث (٥٠٦٥٠٦٦)، ومسلم في: النكاح: حديث (١٤٠٠/١٣).

معنى كلام عياض رحمه الله تعالى.

فأما الوجه الأول: من الوجهين اللذين ذكر فكلامه فيه بين صحيح.

وأما الوجه الثاني: فهو فيه إلى الغلط أقرب من المازرى، وذلك أنه فهم من الحضور المشترط في الإغراء الشهود وعدم الغيبة فأخذ يذكر ما ذكر من الآيات والمثل، ولم يعلم أن المراد بالحضور فيه أن يتصل بالعامل ضمير من ضمائر الخطاب وأن لا يكون الضمير المتصل به من ضمائر الغيبة وإن كان صاحبه حاضرًا فإن كلام النحوي وصناعته إنما هي في الألفاظ وشهود صاحب الضمير حين التكلم أو غيبته لا اعتبار به عند النحوي، فتأمل هذا الموضع فإنه من أغلاط القاضي رحمه الله تعالى وقد أطال الكلام على هذه اللفظة، ومن تأمل كلامه وجد فيه أغلاطًا أخر يخرج تتبعها عما نحن بسبيله (وقوله) فإنه له وجاء أي يقوم له مقام الوجاء وهو رض الخصيتين، يعنى في عدم التشوق إلى النكاح (البخاري) عن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم نقالوها. فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبدًا. وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال لهم: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منى»[1] (وقال) مسلم في الحديث: وقال بعضهم: لا آكل اللحم وقال بعضهم: لا أنام على فراش[2] (قال) عياض: قد يحتج بقوله «من رغب عن سنتي فليس منى» من يقول بوجوب النكاح، قال: ولا حجة في الحديث لأنه قال في أوله عن بعضهم أنه قال: لا أنام على فراش، وعن بعضهم أنه قال: لا آكل اللحم، ثم قرن ﷺ ذكر النكاح بالأكل والنوم، وعلى جميعه رد قوله: «فمن رغب عن سنتي فليس منى» لا على النكاح وحده ولا قائل بوجوب النوم على الفراش ووجوب أكل اللحم. انتهى كلام عياض رحمه الله.

(وهذه) مسألة قد وقع الخلاف فيها بين الفقهاء أعنى وجوب النكاح واستحبابه. قال المازرى في المعلم: المشهور من قول فقهاء الأمصار أن النكاح مستحب على الجملة، وذهب داود إلى وجوبه وسبب الخلاف تعارض الظواهر فلداود قوله تعالى ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا

---

(١) البخاري في: النكاح: حديث (٥٠٦٣)، ومسلم في: النكاح: حديث (١٤٠١/٥).

(٢) راجع تخريج الحديث السابق.

طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[النساء:٣]، والأمر على الوجوب، ولفقهاء الأمصار عليه أن الله خير في الآية بين النكاح وملك اليمين، والتسري غير واجب باتفاق، فلو كان النكاح واجبًا ما صح التخيير بينه وبين ملك اليمين، إذ لا يصح على مذهب أهل الأصول التخيير بين واجب وما ليس بواجب لأن ذلك مؤد إلى إبطال حقيقة الواجب وأن يكون تاركه غير آثم، قال: والذي يطلق في هذا من مذهب مالك أن النكاح مندوب إليه، وقد يختلف حكمه بحسب اختلاف الأحوال، فيجب تارة في حق من لا يكف عن الزنا إلا به، ويكون مندوبًا إليه في حق من يكون مشتهيًا له ولا يخشى على نفسه الوقوع في المحرم ولا ينقطع به عن أفعال الخير، ويكون مكروهًا لمن لا يشتهيه وينقطع به عن العبادات والقربات، قال: وقد يختلف فيمن لا يشتهيه ولا ينقطع به عن فعل الخير، فيقال يندب إليه للظواهر الواردة في الشرع بالحض على النكاح ويقال في حقه مباح. قال عياض -رحمه الله-: أما في حق من يرجى منه النسل ولا يخشى العنت على نفسه وإن لم تكن له إليه شهوة فهو في حقه مندوب لقوله ﷺ «فإني مكاثر بكم الأمم» ولظواهر الحض على النكاح والترغيب فيه، وكذلك كل من كان له رغبة في نوع من الاستمتاع بالنساء وإن كان ممنوعًا من الوطء لكن النكاح يغض بصره، وأما في حق من لا ينسل ولا أرب له في النساء جملة ولا مذهب له في الاستمتاع بشيء منهن، فهذا هو الذي قد يقال في حقه إنه مباح إذا علمت المرأة بحاله، وقد يقال إنه مندوب لعموم الأوامر بالتزويج (مكحول) عن عطية بن بشر عن عطاف بن وداعة أن رسول الله ﷺ قال له: «يا عطاف ألك امرأة؟ قال: لا، قال: فأنت إذا من إخوان الشيطان إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وإن كنت منا فأنكح فإن من سنتنا النكاح»[1] (مسلم). عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: أراد عثمان بن مظعون التبتل، فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك ولو أجاز له ذلك لاختصينا. وفي حديث آخر خرجه النسائي عن سعيد بن هشام: أنه دخل على عائشة رضي الله عنها فقال لها: إني أريد أن أسألك عن التبتل فما ترين فيه؟ قالت: لا تفعل، أما سمعت الله ﷺ يقول: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[الرعد:٣٨]، فلا تبتل مع هذا.[2] التبتل: الانقطاع عن النساء وترك النكاح ومنه امرأة بتول إذا كانت لا شهوة لها في الرجال، وأصل التبتل القطع. قال بعض العلماء: أما التبتل الذي هو ترك النساء فقد يجوز للإنسان إذا علم أنه الأصلح له في دينه. وأما الاختصاء فلا يجوز لأحد أصلاً لما في ذلك من إفساد خاصية

---

(١) مسلم في: النكاح: حديث (١٤٠٢/٦٨).

(٢) [صحيح] النسائي في: النكاح: جـ(٦) ص(٦٠).

الذكورية وتغيير خلق الله تعالى وإذهاب حكمته في خلق ذلك العضو وتركيب الشهوة فيه لعمارة الأرض وذرء النسل (البخاري) عن ابن عباس ﷺ قال: «**أفضل هذه الأمة أكثرها نساء**» (قال) عياض ﷺ في الشفاء: **يشير بذلك إلى النبي ﷺ فإن كان ما قاله عياض صحيحًا فيريد ابن عباس ﷺ كثرة من اجتمع عنده ﷺ منهن في وقت واحد فإن نساءه ﷺ كن تسعًا، أو كثرة من أبيح له منهن فإنه قد كان أبيح له ﷺ أن يتزوّج من النساء ما شاء** لابد من أحد هذين الاعتبارين، ولابد على هذا أن يجعل النبي ﷺ داخلاً في لفظة الأمة، فتكون الأمة كناية عنه ﷺ وعن أتباعه. وفاء بشرط أفعل في أن لا يضاف إلا لما هو بعضه وقد استوفينا الكلام في هذا كله في كتابنا في شرح الشفاء (محمد بن كثير) قال: كان الأوزاعى -رحمه الله- يقول: ليس حب النساء من حب الدنيا. يريد الأوزاعى والله أعلم ليس من حب الدنيا المذموم، وإلا فقد قال رسول الله ﷺ: «**حبب إلى من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وقرة عيني في الصلاة**»[1] فذكر منها النساء، أو يقال إن الشيء قد يكون من الدنيا، ويكون حبه من الآخرة لإعانته عليها.

(ويروى) عن عمر ﷺ أنه قال: ليس في النساء شرف، ولا في تركهن عبادة ولا زهد (الزبير) بسنده إلى سفيان قال: كان عند على بن أبى طالب ﷺ أربع زوجات وتسع عشرة وليدة، وكان يقول: إني لمشتاق إلى العرس (مسلم) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[2] ومن مراسيل عطاء بن رباح عن النبي ﷺ قال: «**إن من خير فائدة يفيدها المرء المسلم بعد الأخ الصالح المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله**»[3] ورواه منصور عن مجاهد مرسلاً أيضًا.

(قال) عبد الحق في الأحكام: لا يصح فيما أعلم قوله بعد الأخ الصالح.

---

(١) [صحيح] النسائي في: عشرة النساء: جـ (٧) ص(٦١٦٢)، وأحمد في «مسنده» (١٢٨/٣)، والحاكم في «مستدركه» (١٦٠/٢).

(٢) مسلم في: الرضاع: حديث (١٤٦٧/٥٩).

(٣) [ضعيف] ابن ماجه في: النكاح: حديث (١٨٥٧).

الباب الرابع

في تخير الرجل لنطفته وبيان الخصال التي تتزوج لها المرأة وما ينبغي للرجل أن يقصده من ذلك ومن يتجنب من النساء

(قال) الدارقطني من حديث الحارث بن عمران الجعفي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم**»[1] يرويه الحارث عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها والحارث ضعيف. قال أبو حاتم: وهذا حديث لا أصل له، انتهى كلام أبي حاتم. وقد رواه عن هشام أيضًا أبو أمية الثقفي وعكرمة بن إبراهيم وأيوب بن واقد ومندل بن علي وكلهم ضعفاء، ورواه أبو المقداد عن هشام عن أبيه مرسلاً (مسلم) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[2] يقول النبي ﷺ إن أغراض الناس تختلف. فمنهم من يقصد المال، ومنهم من يقصد الجمال، ومنهم من يقصد الدين، فحض رسول الله ﷺ على قصد الدين، وهو معنى الحديث الآخر الذي يرويه عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «**لا تنكحوا المرأة لجمالها، فلعل جمالها أن يرديها، ولا تنكحوا المرأة لمالها فلعل ما لها أن يطغيها، وعليكم بذات الدين**»[3] .

(قال) الغزالي -رحمه الله- في الإحياء: وليس أمره ﷺ بمراعاة الدين نهيا عن مراعاة الجمال ولا أمرًا بالإضراب عنه، وإنما هو نهي عن مراعاته مجردًا عن الدين، فإن الجمال في غالب الأمر يرغب الجاهل في النكاح دون الالتفات إلى الدين ولا نظر إليه، فوقع النهي عن هذا، وأمر أن لا يعقل النظر فيه، قال: وأمر النبي ﷺ من يريد التزويج بالنظر إلى المخطوبة يدل على مراعاة الجمال، إذ النظر لا يفيد معرفة الدين وإنما يعرف به الجمال أو القبح. (قال) عياض -رحمه الله- في الإكمال: وفي قوله «**تنكح المرأة لمالها**» دليل على أن للرجل الاستمتاع بمال الزوجة وإلا فكانت كالفقيرة، ولم يكن لهذا الكلام فائدة، قال: فإن كان استمتاعه عن طيب نفس منهما فذلك ما لا إشكال في جوازه، وإن امتنعت فله بقدر ما بذل من الصداق، قال: ومن هذا اختلفوا في إجبارها على التجهيز بصداقها، فألزمها مالك

---

(١) [صحيح] ابن ماجه في: النكاح: حديث (١٩٦٨)، والحاكم في «مستدركه» (١٦٣/٢).

(٢) البخاري في: النكاح: حديث (٥٠٩٠)، ومسلم في: الرضاع: حديث (١٤٦٦/٥٣).

(٣) المغني عن حمل الأسفار (٣٩/٢).

ذلك، ولم يجز لها منه قضاء دين ولا نفقة في غير الجهاز إلا الشيء اليسير من الكثير. وقال غيره: لا تجبر على شيء من ذلك وهو مالها تفعل فيه ما شاءت (قال) المازرى: وفي ظاهره حجة لقولنا إن المرأة إذا رفع الرجل في صداقها ليسرها ولأنها تحمل إلى بيته من الجهاز ما جرت به عادة أمثالها فجاء الأمر بخلافه أن للزوج مقالاً في ذلك، وأنه يحط عنه من الصداق الزيادة التي زادها لأجل الجهاز على الأصح عندنا إذا كان القصد من الجهاز في حكم التبع لقصد استباحة البضع (وقوله) «لحسبها» قال الهروى: احتاج أهل العلم لمعرفة الحسب؛ لأنه مما يعتبر في مهر مثل المرأة، فقال سمر الحسب الفعال الحسان للرجل ولآبائه مأخوذ من الحساب كأنهم يحسبون مناقبهم ويعدونها عند المفاخرة فالحسب بالسكون العدّ، والحسب بالتحريك الشيء المعدود على القياس في مثل هذا (النسائي) عن أبى هريرة ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ أي النساء خير؟ قال: «التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا في ماله بما يكرهه»[1] (قال) القضاعى في الشهاب: قال رسول الله ﷺ: «إياكم وخضراء الدمن»[2]. خضراء الدمن: هي المرأة الحسناء التي لا أصل لها تشبيهًا بما ينبت في الدمنة وهى السباطة، فهو يكون غضًا ناضرًا، ثم لا يثبت ولا ينتفع به، وإذا أكلته الماشية في حال خضرته أصابها منه وجع في بطونها. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: إياكم وخضراء الدمن؛ فإنها تلد مثل أصلها، وعليكم بذوات الأعراق فإنها تلد مثل أبيها وعمها وأخيها (قال) الجاحظ في البيان: لما قدم ابن الزبير بفتح أفريقية أمره عثمان ﷺ فقام خطيبًا، فلما فرغ ابن الزبير من كلامه قال عثمان ﷺ: أيها الناس، أنكحوا النساء على آبائهن وإخوتهن؛ فإني لم أر في ولد أبى بكر الصديق ﷺ أشبه منه بهذا. أم عبد الله بن الزبير هي أسماء بنت أبى بكر الصديق ﷺ (قال) الأصمعي: حدثني عمرو بن العلاء قال: قال رجل إني لا أتزوّج امرأة حتى أنظر ولدى منها، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: أنظر إلى أبيها وأخيها، فإنها تجيء بأحدهما (قال) قاسم بن ثابت: وقال أكثم بن صيفي: يا بني تميم لا يغلبنكم جمال النساء على صراحة الحسب. فإن المناكح الكريمة مدرجة للشرف. (وقال) بكير الأسدى:

وأوّل خبث المرء خبث ترابه ... وأول لؤم المرء لؤم المناكح

(أبو على) في الأمالي قال: قال مروان بن زنباع العبسى -وهو مروان القرظ-: يا بني

(١) [صحيح] الحاكم في «مستدركه» (٢/١٦١).

(٢) [موضوع] الفتني في «تذكرة الموضوعات» (١٢٧)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (١٣٠).

عبس احفظوا عني ثلاثًا: إنه لم ينقل أحد إليكم حديثًا إلا نقل عنكم مثله، وإياكم والتزوج في بيوتات السوء فإن له يومًا ناجشًا، واستكثروا من الصديق ما قدرتم واستقلوا من العدوّ ما استطعتم فإن استكثاره ممكن. قال أبو علي: الناجش: الحافر، والنجشة: ما يخرج من تراب البئر . (وقال ابن الدمنية في معنى ما تقدم):

إذا كنـت تبغـي أيمـا بجهالـة ... من الناس فانظر مـن أبوهـا وخالهـا

فإنهمـا منهـا كمـا هـي منهمـا ... كقـدك نعـلا إن أريـد مثالهـا

ولا تطلـب البيـت الـدنيء فعالـه ... ولا يـدع ذا عقـل لورهـاء مالهـا

فـإن الـذي ترجـو مـن المـال عنـدها ... سـيأتي عليهـا شـؤمها وخبالهـا

الأيم: المرأة التي لا زوج[1] لها صغيرة كانت أم كبيرة بكرًا كانت أوثيبًا. (وأنشد أبو على في الأمالي)

وتعرف في مجـد امرئ مجـد خالـه ... وينـذل أن تلقـى أخـا أمـه نـذلاً

(وأنشد أيضًا)

عليـك الخـال إن الخـال يـسرى ... إلى ابـن الأخـت بالـشبه المـبين

(ومثلهما قول الآخر)

وأدرنـه خالاتـه واختزلنـه ... ألا إن عـرق الـسوء لابـد مـدرك

(وقال آخر أنشده أبو العباس في الكامل)

والله مـا أشـتهي عـصام ... لا خلـق منـه ولا قـوام

نمـت وعـرق الخـال لا ينـام

(وفي) حديث طويل ذكره أبو الفرج في الأغاني: أن عروة بن الورد خرج متصعلكًا فدنا من منازل هذيل ليلاً، وأوقد نارًا ثم دفنها على مقدار ثلاثة أذرع، وصعد صرحة ووصل الحي بعد وهن، قال: فوقف رجل منهم على فرس له على موضع النار وقال: أقسم بالله

---

(١) في هامش المخطوط : قوله «التي لا زوج لها» إلخ قال الباجي في منتقاه: لفظ الأيم لا يستعمل إلا في التي لا زوج لها بعد أن كان لها زوج. أهـ

لقد رأيت على البعد نارًا أوقدت ههنا، فنزل الرجل واحتفر قدر ذراع فلم يجد شيئًا، فأقبل الحي على الرجل يؤنبونه ويقولون له: كذبتك عينك ثم انصرفوا، قال عروة: فتبعت الرجل فدخل إلى بيت من بيوت الحي، فدخلت وراءه واختبأت في كسر البيت، وخرج الرجل لبعض مآربه فخالفه إلى امرأته رجل وأنا أنظر، فقدمت له لبنًا فشرب منه ثم شربت بعده وانصرف، ووصل الرجل فعرضت له بقية اللبن، فلما ذهب ليكرع فيه قال: أقسم بالله لقد شممت في هذا اللبن ريح رجل، فقالت: وأي رجل يدخل بيتك وجعلت تؤنبه وتعذله إلى أن قر وسكن وأوى إلى فراشه، قال عروة: فقمت إلى فرس له لآخذه فضرب برجله ونفخ فثار الرجل؛ وقال: ما كنت لتكذبيني فمالك؟ فأقبلت عليه امرأته لومًا وعذلا فعاد الرجل، قال عروة: فاغرورنت الفرس وسرت به ركضًا فلحقني الرجل على فرس له أنثى، وسمعته يقول في أثناء ركضه: الحقي فإنك من نسله، فلما انقطع عن البيوت قلت: أيها الرجل إنك لو عرفتني لم تقدم عليّ، أنا عروة بن الورد، وقد رأيت منك الليلة عجبًا فأخبرني عنه وأنا أرد إليك فرسك، قال: ومازاك؟ قلت: جئت مع قومك حتى ركزت رمحك في موضع نار كنت أوقدتها فثنوك عن ذلك فانثنيت، ثم شممت رائحة رجل في إنائك فصدقت في ذلك، وقد رأيت الرجل وبينه وبين زوجتك ما لا تحب فثنتك عن ذلك فانثنيت، ثم خرجت إلى فرسك فتحرك فقمت ثم ثنتك زوجتك فانثنيت، فرأيتك في هذه الخصال أكمل الناس ولكنك تنثني وترجع، قال: فضحك؛ وقال: أما ما رأيت من صرامتي فمن قبل أعمامي وهم من هذيل، وأما ما رأيت من كعاعتي فمن قبل أخوالي وهم بطن من خزاعة والعرق دساس، ولولا ذلك لم يقو على مناوأتي أحد من العرب، قال عروة: فقلت له خذ فرسك راشدًا، فقال: ما كنت لآخذه منك، فإن عندي من نسله جماعة خيرًا منه، فخذه مباركًا لك فيه (وقال) الشاعر مخالفًا لجميع ما تقدم :-

لا تشتمن امرأ من أن تكون له ... أم من الروم أو سوداء عجفاء

فإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللإنجاب آباء

ورب مغربة ليست بمنجبة ... وربما أنجبت للفحل عجماء

(قال الجاحظ في البيان): قال عثمان بن أبى العاص لبنيه: يا بني؛ إن المناكح مغترس فلينظر امرؤ حيث يضع غرسه، والعرق السوء قلما ينجب، وإني قد أنجبتكم في أمهاتكم. قال الراوي: فسمع ابن عباس هذا الكلام، فأمر بكتبه (قال) الزبير في الموقفيات

بسنده عن قدامة بن إبراهيم الجهمي قال: حضرت رجلاً من ربيعة الوفاة، فقال لابنه: يا بني إذا أحزنك أمر فأحكك ركبتيك بركبة من هو أسن منك ثم استشره، قال: فمات أبي، فأردت التزوّج فجئت شيخًا من قومه فجلست في ناديه، فلما قام الناس من عنده قال: ألك حاجة يا ابن أخي؟ قلت: نعم يا عم، إني أريد التزوّج، قال: أطويلة النسب أم قصيرته، فوالله ما اخترت ولا أريت؟ فقال: إني أعرف في العين إذا عرفت وأعرف في العين إذ أنكرت وأعرف في العين إذا لم تعرف ولم تنكر، فأما إذا عرفت فإنها تخاوض للمعرفة، وأما إذا نكرت فإنها تجحظ للنكرة، وأما إذا لم تعرف ولم تنكر فإنها تشجو شجوا، يا ابن أخي إياك أن تتزوّج إلى قوم أهل دناءة أصابوا من الدنيا عسرة فتشركهم في دناءتهم ويستأثروا عليك بدنياهم، فقمت وقد اكتفيت به (ابن الكردبوس في تاريخه) قال: جمع أبو جعفر المنصور يومًا أولاده فذمهم ووبخهم لتبذلهم وانهماكهم، فقال له أحدهم: لم نفسك يا أمير المؤمنين في هذا إذ لم تتخير أمهاتنا كما تخير أبوك لك سيدة من عقائل العرب، فعمدت إلى قيان العراق وفواسقه فجعلت أرحامهن أوعية لنطفك، قال: فاستحسن كلامه وأعجبه كذا ذكر ابن الكردبوس في هذا الخبر، وليست أم المنصور من العرب، وإنما هي مولدة من مولدات البصرة (ابن سعيد) في كتابه كنوز المطالب قال: كان على بن موسى الرضي أسود اللون فسبق يومًا غلمانه إلى الحمام واضطجع للراحة فيه، فحركه أحد العامة وقال: قم أيها العبد وناولني كذا، فقام وناوله ما طلب، وعلى أثر ذلك دخل من غلمان على من ارتج الحمام له فدهش الرجل، فقال له علي: لا ذنب لك أيها الرجل، الذنب لمن وضعني في أمة سوداء (وذكر ابن سعيد) في موضع آخر من الكتاب المذكور أن عليًا قال في هذه القضية:

ليس لى ذنب ولا ذنب لمن	قال لى يا عبد أو يا أسود
إنما الذنب لمن ألبسني	ظلمة وهو سني لا يحمد

(أبو داود) عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال وإنها لا تلد أفأتزوّجها؟ قال: لا، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فنهاه وقال: «تزوّجوا الولود الودود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» .

(قال) النسائي في هذا الحديث ذات حسب ومنصب[1] وفي حديث ذكره أبو الفرج في

---

(١) [صحيح] أبو داود في: النكاح: حديث (٢٠٥٠). والنسائي في: النكاح: جـ (٦) ص(٦٥٦٦).

في كتاب النساء قال: قال رسول الله ﷺ: «**سوداء ولود خير من حسناء عقيم**»[١] وسيأتي الكلام على هذا الحديث بعد هذا (وكيع) في مصنفه عن معرب بن واصل عن محارب بن دثار قال: قال رسول الله ﷺ «**أنكحوا، وإياكم والعجز والعقر**» حديث مرسل، ويقال معروف بن واصل (ومن) حديث أبي حنيفة عن حماد بن سليمان عن إبراهيم النخعي عن عبد الله بن بحينة قال: جاء زيد بن حارثة إلى النبي ﷺ فقال له: «**أتزوجت يا زيد؟**» قال: لا، قال: «**تزوج تستعفف، ولا تتزوج خمسًا: لا تتزوج شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيدرة ولا لفوتا**» قال زيد: والله يا رسول الله، ما أعرف مما قلت شيئًا، قال: «**أما الشهبرة فالزرقاء البذية، وأما اللهبرة فالطويلة الهزيلة، وأما النهبرة فالعجوز المدبرة، وأما الهيدرة فالقصيرة القبيحة، وأما اللفوت فذات الولد من غيرك**»، وكان أبو حنيفة يضحك إذا حدث بهذا الحديث (وقال) بعض العرب لولده: يا بني إياك والرقوب الغضوب العطوب، فالرقوب التي ترقب موت زوجها لترثه والغضوب العطوب معلوم (وقال) بعض الحكماء لابنه: يا بني لا تتزوّج أنانة ولا حنانة ولا منانة، فالأنانة التي مات زوجها وتزوجت بعده فهي إذا رأت الثاني أنت لمفارقة الأول وترحمت عليه، والحنانة التي لها ولد من زوج سابق فهي تحن عليه، والمنانة التي لها مال واسع فهي تمن به على زوجها (وعلى ذكر الأنانة) كانت عند لقيط بن زرارة القدور بنت قيس بن مسعود بن خالد بن ذي الجدين وكان يحبها وتحبه، فمات عنها فخلف عليها عمرو بن الجون الكندي، وكان يسمعها تكثر ذكر لقيط وتظهر الجزع عليه وتصف محاسنه، فقال لها يومًا: ويلك، والله ما كان لقيط إلا كبعض عبيدي، فصفي لي بعض ما أعجبك من محاسنه، فقالت: بلى تطيب يومًا وقد ظعن الحي في يوم ذي زهر وطل وكنت نائمة فكره أن يوقظني، فقعد ينتظر انتباهي ومعه فضلة من شراب فجعل يشرب منها حتى استيقظت فحملني وركب فرسه فعرضت لنا غابة فحمل عليها فصرع منها حمارًا ثم رجع إلي ومنه ريح المسك وريح الشراب وريح الطل وريح الزهر، فتدليت إليه فضمني ضمة وشمني شمه فليتي مت ثمة، فتطيب عمرو وتناول من الشراب وخرج فتصيد ثم عاد إليها فضمها إلى نفسه، وقال: أين أنا من لقيط؟ فقالت: مرعى ولا كالسعدان وماء ولا كصدأ فطلقها، فرجعت إلى قومها وقالت: ابنوا على قبة الأيمة، فوالله لا جمعني الله مع رجل بعد لقيط أبدًا (وكانت) عائشة بنت طلحة رضي الله عنها مغايظة لأزواجها وكانت كثيرًا ما تصف مصعب بن الزبير لعمرو بن عبيد

---

(١) [ضعيف] الطبراني في «الكبير» (٤١٦/١٩)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢٥٣/٣).

الله بن معمر وكانت عند مصعب قبله وتذكر جماله وكرمه وحسن خلقه فكاد يموت غمًّا (قال) المديني: دخل عمرو بن عبيد الله يومًا على عائشة بنت طلحة وقد ناله حر شديد وغبار، فقال لها: انفضي الغبار عني، فأخذت منديلاً وجعلت تنفض التراب به عنه، ثم قالت: ما رأيت الغبار على وجه أحد أحسن منه على وجه مصعب لعهدي به يومًا وقد دخل علي وكان قد فتح فتحًا عظيمًا وهو في الحديد وكانت بيني وبينه وحشة فخرجت فهنأته والغبار على وجهه، فقال: إني لأشفق عليك من رائحة الحديد، وأقبلت تصفه وعمرو يتقد غيظًا ويكاد يموت غيره وحيرة (أبو الفرج في كتاب الأغاني) قال: لما[1] تزوج الحجاج هند بنت أسماء بن خارجة -وكانت قبله عند عبد الله بن زياد- حملها معه إلى البصرة وبني هنالك القصر المنسوب إليه، فلما كمل بناؤه قال لها: هل رأيت قط مثله؟ قالت: إنه لحسن، قال لها: لتصدقنني، قالت: أما إذا أبيت، فوالله، ما رأيت مثل القصر الأحمر وفيه عبد الله بن زياد، والقصر الأحمر هو دار الإمارة بالبصرة وكان عبد الله بن زياد بناه بطين أحمر فغضب الحجاج غضبًا شديدًا وطلقها بسبب ذلك، ثم بعث إلى القصر الأحمر فهدمه وبناه بنيانًا آخر، ثم هدم بعد ذلك وأدخل في جامع البصرة، فهذا ما حضرنا ذكره على ذكر الأنانة (صاعد في الفصوص) قال بعضهم: سألت ناسًا من أهل اليمن إلى من أنكح؟ فقالوا: لا تنكح الدقة المتوارثة وانكح إلى من شئت، قلت: وما الدقة المتوارثة؟ قالوا: أخلاق سيئة يرثها آخر عن أول (الغزالي) -رحمه الله- في الأحياء قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنكحوا القرابة القريبة؛ فإن الولد يخلق ضاويًا» (وقال) عمر ﷺ: يا بني السائب. قد أضويتم فانكحوا في الغرائب -وهم الذين لا قرابة بينك وبينهم- وكانت العرب تزعم أن ولد الرجل من قرابته يجيء ضاويًا أي نحيفًا مهزولاً، وقد أضوى الرجل: إذا ولد له ولد كذلك، وفي بعض لآثار: اغتربوا ولا تضووا (وقال الشاعر):

فتـى لم تلـده بنـت عـم قريبـة ... فيضوى وقـد يـضوى رديـد القرائـب

(وقال آخر)

إن بـــلالا لم تـــشنه أمـــه ... لم يتناســـب خالـــه وعمـــه

(وقال الشاعر)

تنخبتهـا للنـسل وهـي غريبـة ... فجـاءت بـه كالبـدر خرقـاً معممـا

---

(١) كلمة «لما» زيادة من المحقق.

فلـو شـاتم الفتيـان في الحـي ظالمـا لمـا وجـدوا غـير التكـذب مـشتما

(وقال آخر)

تخيرتهـا للنـسل وهـي غريبـة وقـد أنجبـت والمنجبـات الغرائـب

وقال الأصمعي في قول كعب بن زهير:

حـرف أخوهـا أبوهـا مـن مهجنـة وعمهـا خالهـا قـوداء شمليـل

قال: هذه ناقة كريمة مداخلة للنسب لشرفها، فأنكر ذلك أبو المكارم على الأصمعي وقال: ألم يعلم قائل هذا أن تداخل النسب ومقاربته مما يضعف الناقة، وذكر البكري في اللآلئ عند قول الأعرابي وما قريني إلا الكريم: يعنى أن أباه طلب المناكح الكريمة في أهله فجاء ولده بسبب ذلك ضاويًا انتهى كلام البكري. قال غيره: وسبب هذا أن ابنة العم ونحوها من ذوى القرابة القريبة لا تقع في نفس الزوج موقع الغريبة إما لألفته لها ودوام النظر إليها إن كانت كذلك، وإما لأنه يقع بينه وبينها من الحشمة والخجل ما يكسل به وتضعف شهوته والولد لا يكمل خلقه وتتم قوته إلا بكمال الشهوة وقوتها، ولهذا قالوا: من استحيا من امرأته لم ينجب (أبو الفرج) في الأغاني قال: جاء منظور بن زمّان الفزارى إلى حسن بن حسن وهو جده أبو أمه فقال له: لعلك أحدثت بعدى أهلاً، فقال: نعم، تزوّجت بنت عمى الحسين، فقال له: بئس ما صنعت، أما علمت أن الأرحام إذا التقت أضوت! كان ينبغي أن تتزوّج في البعداء قال: قد نكحت، وقد رزقني الله منها ولدًا، وذكر بقية الحديث (الأعمش) عن إبراهيم قال: كان علقمة إذا خطب في نكاح قصر دون أهله. قال ابن نمير: معناه يخطب إلى من هو دونه ويمسك عمن هو فوقه (قال) بعض الحكماء: ينبغي أن يكون الرجل فوق المرأة بثلاث: بالسن والمال والحسب، وإلا احتقرته، وأن تكون المرأة فوقه بثلاث: بالصبر والجمال والأدب، وإلا احتقرها، وبالله ﷻ التوفيق.

الباب الخامس

فيما يباح للرجل من النظر إلى المرأة إذا أراد نكاحها

(مسلم) عن أبي هريرة ﷺ قال: كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فأخبره أنه تزوّج امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله ﷺ: **«أنظرت إليها؟»** قال: لا، قال: **«فاذهب فانظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئًا»**[١] قيل: كان في أعين كثير من الأنصار حول، وقيل: كان في أعينهم صغر (النسائي) عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: خطبت امرأة على عهد رسول الله، فقال لي النبي ﷺ: **«أنظرت إليها؟»** قلت: لا، قال: **«فانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما»**[٢] يقال: أدم الله بينكما بالقصر، أدماً بفتح الميم وسكون الدال وآدم بالمد أي وفق وأصلح فعل وأفعل بمعنى (أبو داود) عن واقد بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»**[٣] قال جابر: فخطبت امرأة من بني سلمة، فكنت أتخبأ لها تحت الكرب حتى رأيت منها بعض ما دعاني إلى نكاحها، فتزوّجتها. واقد بن عبد الرحمن راوي هذا الحديث مجهول، وليس بواقد بن عمرو، فإن واقدًا هذا ثقة معلوم الحال. وقال البزار: بعد ذكره لهذا الحديث: لا نعلمه يروى عن جابر إلا من هذا الوجه، ولا أسند واقد يعنى ابن عبد الرحمن عن جابر إلا هذا الحديث، والكرب: أصول سعف النخل، واحدتها كربة بالتحريك، وهى التي تشبه الكتف. (حجاج بن أرطاة) عن محمد بن سليمان بن أبي خيثمة عن أبيه قال: كنت جالسًا مع محمد بن سلمة في داره، فرأى امرأة من الأنصار -يقال لها بثينة- فطاردها ببصره، فقلت له: يرحمك الله أتنظر هذا النظر وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا قذف الله في قلب رجل خطبة لامرأة، فلا بأس أن ينظر إليها»**[٤] حجاج بن أرطاة ضعيف، ومحمد بن سليمان لا يعرف حاله، والصحيح في هذا الباب حديث مسلم المبدأ به، وحديث النسائي الذي يليه .

---

(١) مسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٤/٧٤).

(٢) [صحيح] النسائي في: النكاح: جـ (٦) ص(٦٩٧٠).

(٣) [حسن] أبو داود في: النكاح: حديث (٢٠٨٢)، وأحمد في «مسنده» (٣٣٤/٣)، والحاكم في «مستدركه» (١٦٥/٢).

(٤) [ضعيف] الطبراني في «الكبير» (٢٢٥/١٩).

(قال) الغزالي -رحمه الله- في الإحياء: كان من تقدم من المتورعين لا ينكحون بناتهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور. قال: والغرور يقع في الخلق والخُلُق جميعًا، فيستحب إزالة الغرور في الخلق بالنظر، وفي الخُلُق بالبحث والاستيصاف، قال: وينبغي أن يكون ذلك مقدمًا على النكاح، ولا يستوصف إلا بصيرًا حاذقًا خبيرًا بالظاهر والباطن من أحوالها ذا دين لا يميل إليها فيفرط في الثناء ولا يحسدها فيقصر، فالطباع مائلة في مبادئ النكاح ووصف المنكوحات إلى الإفراط والتفريط، وقل من يصدق فيه ويقتصد والخداع أغلب، فالاحتياط في ذلك من المهمات. قال ابن القطان في فصل من كتابه المسمى بالنظر في أحكام النظر: نظر الذي يريد أن يتزوّج مندوب إليه، وقال بعضهم: هو مباح، وهو مذهب الشافعي ﷺ وكرهه بعضهم (وقال) أبو الوليد بن رشدان: من أهل العلم من لم يجزه، وحكي ذلك أبو حامد الإسفرايني عن بعضهم، وذكر احتجاجه بالآية الآمرة بالغض، قال: مذهب مالك ﷺ من هذه الأقوال هو الإباحة إذا كان ذاك بإذنها، ينظر إلى وجهها كما يجوز ذلك في الشهادات لها وعليها، ومذهب القاضي أبى بكر بن أبى الطيب وأبى حامد الإسفراينى جواز النظر إلى وجهها وتكرار ذلك والتأمل، إلا أن أبا حامد شرط أن تكون قد أجابته إلى التزويج، واختار ابن القطان الندب وقوفًا مع ظاهر الأمر بالنظر ووجود الإجماع على أن ذلك ليس على الوجوب، قال: ولا يحتاج في نظره إليها بعد عزمه على نكاحها وخطبته لها إلى استئذانها خلافًا لمالك ﷺ فإنه شرط استئذانها، وكره أن يستغفلها من كوّة ونحوها، (قال) ابن القطان: ولعل معناه في ذلك سد الذريعة فإنه من أصوله، كأنه خاف أن يتسلق به أهل الفساد إلى الاطلاع على مواضع الفتن، فإذا عثر على أحدهم قال أنا خاطب، وإلا فالحديث يبيح النظر مطلقًا دون تفصيل، قال: وهذا هو مذهب الشافعي ﷺ وابن وهب من أصحاب مالك فإنهما لا يشترطان إذنها، وقيل لأصبغ: إن ابن وهب روى عن مالك إجازته يعنى النظر إليها بغير إذنها، فقال: لم يكن ابن وهب يرويه، وإنما كان يقوله برأيه (قال) ابن القطان: وقد ورد في غير هذه المسألة حديث رواه قيس بن الربيع عن عبد الله بن عيسى عن موسى بن عبد الله عن أبى حميد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حرج على الرجل أن ينظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوّجها من حيث لا تعلم» إلا أن قيس بن الربيع راويه أحد من ساء حفظه بعد ولايته القضاء والأكثرون على تضعيفه، قال: واقتصر مالك ﷺ على جواز النظر إلى الوجه والكفين خاصة، وزاد أبو حنيفة -رحمه الله- ظهور القدمين على أصله في أنها ليس عليها سترهما في الصلاة، وأباح غيرهما النظر إلى جميع بدنها ما عدا السوءتين، وهذا الذي يدل عليه إطلاق لفظ الأحاديث، ويكون تقييده بالتنزيل

على مستقر العادة فيما هو ظاهر منها إلا أن يستر بقصد، أما ما هو مستور إلا أن يظهر بقصد فلا، قال: وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن محمد بن على أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب إلى على رضي الله عنه ابنته أم كلثوم، فذكر له صغرها، فقيل له: إنه ردّك، فعاوده، فقال له على رضي الله عنه: أبعث بها إليك فإن أرضتك فهي امرأتك، فأرسل بها إليه فكشف عن ساقيها، فقالت: مه، لولا أنك أمير المؤمنين للطمت عينك، وكانت أم كلثوم هذه ولدت قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وأمها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه القصة رواها قاسم بن أصبغ عن الخشنى عن أبى عمر عن سفيان كما ذكرنا، ورواها عبد الرزاق في كتابه عن سفيان نحوه. ويزيد فيها أهل الأخيار: أنه بعثها إليه بثوب، وقال لها قولي له: هذا هو الذي أخبرك عنه، فقال لهما عمر رضي الله عنه: قولي له رضينا به، فلما أدبرت كشف عن ساقيها فقالت له ما تقدم، ولما رجعت إلى أبيها قالت: بعثتني إلى شيخ سوء فعل كذا وكذا، فقال: هو زوجك يا بنية (قال) ابن القطان: فأما السوءتان، فلا نظر في أنه لا يباح له النظر إليهما إلا ما يحكى عن داود من إباحة النظر إلى سائر جسد المخطوبة حتى إلى الفرج، قال: وهذه الرواية لم أرها عنه في كتب أصحابه، وإنما حكاها عنه أبو حامد الإسفرايني، والأدلة المانعة من النظر إلى العورة تمنع من ذلك، قال: ولا بأس أن يبعث امرأة تنظر له وتؤدى إليه ما رأته. فقد روى ابن أبى شيبة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل أم سليم تنظر إلى امرأة، فقال: «شمي عوارضها، وانظري إلى عرقوبيها»[1]، وروى وكيع عن سفيان: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب امرأة فبعث عائشة -رضي الله عنها- تنظر إليها، فجاءت فقالت: يا رسول الله ما رأيت طائلاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيت بخدّها خالا اقشعر له كل شعرة منك» فقالت: يا رسول الله: ما دونك سر. قال: ويجوز للمرأة المخطوبة مع ذلك أن تتجمل لمن أراد رؤيتها من الرجال وتشوّق بزينتها، بل لو قيل إنها مندوبة لذلك ما كان بعيدًا، فإن النكاح مأمور به للنساء كما هو للرجال إمّا وجوبًا وإما ندبا، وما لا يتم الواجب والمندوب إلا به فهو واجب أو مندوب. قول ابن القطان هنا: ما لا يتم الواجب والمندوب إلا به فهو واجب أو مندوب إن عنى به أن تجملها للخطاب شرط في وقوع النكاح لا يمكن أن يوجد إلا به فليس كذلك، وإن عنى به أنه سبب من الأسباب التي يوجد النكاح عنها غالبًا فالأمر كذلك، ولا يتم له الاستدلال بهذا القدر، قال: ويتناقض أن يباح للرجل النظر إليها بقصد واستعمال، ثم تكون هي منهية عن البدوّ له،

---

(١) أحمد في «مسنده» (٣/٢٣١)، والحاكم في «مستدركه» (٢/١٦٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/٨٧).

ولو قيل إنها يجوز لها التعرض بإبداء زينتها لمن لم يخطبها بعد إذا سلمت نيتها في قصد النكاح لم يبعد، فإن العادة جارية بتخلف النكاح وتعذره وتأخر الخطاب عمن لا يعرف حالها، ولقد نهى عمر ﷺ الولي عن الإخبار بالمنفر، فقال: مالك والإخبار. (ولما) تعلت سبيعة الأسلمية من نفاسها بعد وفاة زوجها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال: مالي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح، والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما سمعت ذلك جمعت على ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ وسألته عن ذلك، فأفتاني أنى قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج، ذكره مسلم رحمه الله تعالى،[١] وفي رواية: تشوّفت للأزواج، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «ما يمنعها وقد انقضى أجلها»[٢] وفي قوله تشوّفت للأزواج وعلمه ﷺ بذلك وتركه إياها ولم[٣] ينهها دليل على جواز ما فعلت، وكان الذي فعلت تحليها بالزينة، يقال دينار مشوف أي مجلو، ولم يرد بقوله تجملت للخطاب الذين خطبوها بعد، وإنما معناه الذين هم بصدد أن يخطبوها، وهذا الذي ذكر ابن القطان هنا إنما بناه على أنه فهم من قوله تجملت للخطاب أنها تزينت لأن يراها الخطاب بأنفسهم، وليس الحديث نصًا في ذلك إذ يحتمل أن تكون تزينت لأن يرسل الخطاب إليها من يراها من النساء على ما جرت به العادة في ذلك، وقد روى وكيع عن العلاء بن عبد الكريم عن عمار بن عمران عن امرأة تيم عن عائشة: أنها شوفت جارية لها، وقالت: لعلنا نتصيد بها بعض شباب قريش، إلا أنه أثر ضعيف للجهل بمن فوق وكيع في هذا السند (قال) ابن القطان: وأما الرجل ففي جواز ذلك له من التزين والتعرض بالمحاسن التي لا يجوز له إبداؤها لغير المخطوبة من السواك والخضاب وتحسين اللبسة والركانة والمشية نظر. قال ابن القطان: والظاهر جواز ذلك إن لم يتحقق في المنع منه إجماع، أما إذا لم يكن خطب، ولكنه يتعرض بنفسه ذلك التعرض للنساء، فلا يجوز ذلك له لأنه تعرض للفتن وتعريض لها، والله ﷻ أعلم وبه التوفيق.

---

(١) مسلم في: الطلاق: حديث (١٤٨٤/٥٦).

(٢) [صحيح] النسائي في: النكاح: جـ (٦) ص(١٩٠،١٩١).

(٣) في المخطوط «لم»، وزيادة «الواو» من المحقق.

الباب السادس

في ذكر الصدقات وما ورد في كثرتها وقلتها وكراهة المغالاة فيها

(قال) الله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾[النساء:٤]، قال بعض العلماء: المخاطب بهذه الآية الأزواج، أي أدوا الصدقات عن طيب نفس منكم كما تطيبون نفسًا بسائر المعاوضات. وقال بعضهم: بل الخطاب بذلك للأولياء دون الأزواج، وكان الأولياء في الجاهلية لا يعطون النساء من مهمورهن شيئًا، وكانوا يقولون لمن ولدت له بنت: هنيئًا لك النافجة بالجيم يعنون: أنه يأخذ مهرها إبلا فيضيفها إلى إبله فتنفجها أي تكثرها، وقوله تعالى ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾[النساء:٤]، قال ابن العربي في أحكام القرآن: لم تختلف العلماء أن المالكة لأمر نفسها إذا وهبت صداقها لزوجها أن ذلك ينفذ عنها ولا رجوع لها فيه إلا ما روى عن شريح أنه رأى أن لها الرجوع في ذلك، وزعم أنه أخذ ذلك من الآية فإنها لو طابت به نفسًا لم تطالبه. **قال:** وهذا ليس كذلك، فإنها قد كانت طابت به نفسًا حين ملكته إياه، ورجوعها بعد ذلك فيه لا ينفى طيب نفسها أوّلاً به (وقال تعالى) ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[النساء:٢٠]، يريد -والله أعلم- إذا لم يكن ذلك بمرادهن واختيارهن، وأما إذا طبن به نفسًا فيجوز لهم أخذه، كما تقدم في الآية السابقة (الزبير) في الموفقيات عن عمر عن عبد الله بن مصعب قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ يومًا على المنبر: ألا لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، ولو كانت بنت ذي الغصة -يعنى يزيد بن الحصين الحارثي- فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال، فقامت امرأة من صف النساء طويلة فقالت: ليس ذلك لك، قال: ولم؟ قالت: لأن الله ﷻ يقول: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾[النساء:٢٠]، فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ .

(قال) الغزالي -رحمه الله-: وهذا لم يقله عمر على وجه التحريم، ولكن على وجه الندب والتعليم، قال: وقد تناهى الناس في الصدقات حتى بلغ صداق امرأة ألف ألف، وهذا قل أن يوجد من حلال، قال: وقد سئل عطاء عن رجل غالى في صداق امرأة أيرده السلطان؟ قال: لا ، قال: وقد ورد أن عمر تزوّج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ﷺ وأمها فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ وأصدقها أربعين ألف درهم، قال: وتزوّج عروة

البارقي بنت هانئ بن قبيصة على أربعين ألف درهم (وعن) غيلان بن جرير أن مطرفًا تزوّج امرأة على عشرة آلاف أوقية، قال: وقال إبراهيم: السنة في الصداق الرطل من الورق، وكانوا يكرهون أن يكون مهور الحرائر مثل أجور البغايا. (قال) عياض -رحمه الله- في الإكمال: لا خلاف بين العلماء أنه لاحد لأكثر الصداق، وأما أقله، فقال مالك: لا يجوز النكاح بأقل من ربع دينار التفاتًا لقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾[النساء: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾[النساء: ٢٥]، فدل على أن المراد ما له بال من المال، وأقله ما استبيح به العضو في السرقة وذلك ربع دينار، وهذا مما تفرد به مالك وكافة العلماء من الحجازيين والبصريين والكوفيين والشاميين، وغيرهم على جوازه بما تراضى عليه الزوجان أو من له العقد مما فيه منفعة كالسوط والنعل ونحوه، وإن كانت قيمته أقل من درهم وهو قول الشافعي وربيعة وأبى الزناد وابن أبى ذئب ويحيى بن سعيد والليث بن سعد وسفيان الثوري والأوزاعى وابن أبى ليلى وداود وفقهاء الحديث ﷺ مع استحباب بعضهم أن يكون ماله بال. وقال أبو حنيفة وأصحابه: أقله عشرة دراهم، وقال ابن شبرمة: أقله خمسة دراهم اعتبارًا بما يستباح به العضو في السرقة على مذهبهما، وكره النخعي أن يتزوّج بأقل من أربعين درهمًا (قال) ابن العربي في أحكام القرآن: وقد روى أن رجلاً تزوّج على عهد النبي ﷺ على نعلين، فقال لها النبي ﷺ: «أرضيت بمالك -بفتح اللام- بهاتين النعلين؟» فقالت: نعم، فأجازه النبي ﷺ. قال غيره: وزوّج سعيد بن المسيب ابنته على أربعة دراهم، ويقال على درهمين. قال عياض -رحمه الله-: واستحب مالك ﷺ تقديم ربع دينار فأكثر قبل الابتناء، قال: ومطالبة النبي ﷺ للرجل الذي أراد أن يتزوّج المرأة بأن يحضر ولو خاتمًا من حديد دليل على أنه لابد من تقديم ما يصلح أن يكون مهرًا؛ إذ لو ساغ الدخول قبل التقديم لسأله هل يرجو أن يكتسب في المستقبل شيئًا، ولم يطالبه بإحضاره الآن (مجاهد) عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة»[1] (أبو داود) عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النكاح أيسره»[2] (النسائي) عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «أعظم النساء بركة أيسرهن

---

(١) أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/٢٥٧).

(٢) [صحيح] أبو داود في: النكاح: حديث (٢١١٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦/١٥٠).

مؤنة»[١] (الخطابي) في غريب الحديث عن أبي حسين قال: قال رسول الله ﷺ: «**تياسروا في الصداق فإن الرجل ليعطى المرأة حتى يبقى ذلك في نفسه عليها حسيكه**»[٢] تياسروا: أي ارضوا بما تيسر، والحسيكة: العداوة. ونحو هذا أيضًا عن ابن عمر رضي الله عنه قال: ألا لا تغالوا بصدق النساء، فإن الرجل ليغالى بصداق المرأة حتى يكون ذلك لها في قلبه عداوة. (أبو العجفاء السلمي) قال: خطبنا عمر رضي الله عنه فقال: ألا لا تغالوا في مهور النساء، فإنه لو كان تقوى أو مكرمة في الدنيا لكان نبيكم ﷺ أولاكم بها، لم يصدق رسول الله ﷺ أحدًا من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية. وفي رواية أخرى: أكثر من أربعمائة وثمانين درهمًا، ولم يذكر عمر ههنا النش. وقد ثبت في الصحيح عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ: كم كان صداق النبي ﷺ لأزواجه؟ قالت: كان صداقه ﷺ لأزواجه ثنتى عشرة أوقية ونشًا، قالت: أتدري ما النش؟ قلت: لا، قالت: نصف أوقية فذلك خمسمائة درهم، فهذا صداق النبي ﷺ لأزواجه. خرجه مسلم[٣]. (قال) الخطابي: النش اسم لما ذكرته عائشة -رضي الله عنها- غير مشتق من شيء. وقال كراع: النش نصف الشيء. ولا يعترض على هذا الحديث والأثر الذي قبله بالحديث الذي يرويه يونس عن الزهري: أن النجاشي زوّج أم حبيبة بنت أبى سفيان من رسول الله ﷺ وأمهرها عنه أربعة آلاف درهم، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فقبله، فإن هذا شيء فعله النجاشي وتطوع به من ماله، ولم يبتدئه النبي ﷺ ولا أداه من ماله. (البخاري) عن أنس: أن عبد الرحمن بن عوف تزوّج امرأة على وزن نواة فرأى النبي ﷺ عليه بشاشة العرس فسأله؟ فقال: تزوّجت على وزن نواة. وفي رواية: على وزن نواة من ذهب[٤]. (قال) المبرد في الكامل: أصحاب الحديث يقولون على وزن نواة من ذهب: قيمتها خمسة دراهم، وهذا خطأ وغلط، وإنما النواة اسم لخمسة دراهم، كما يقال لعشرين درهمًا نش ولأربعين درهمًا أوقية، فإنما هذا أسماء لهذه المعاني. (قال) الوقشى في طرره على الكامل: إنما روى أصحاب الحديث ما تقدم يعنى ما ذكرناه في حديث البخاري «أنه تزوّج على وزن نواة من ذهب» فكأنه قال تزوّجت على خمسة دراهم من ذهب فلم تخرج

---

(١) [ضعيف] أحمد في «مسنده» (١٤٥/٦)، والحاكم في «مستدركه» (١٧٨/٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٨٦/٢).

(٢) ذكره الهندي في «كنز العمال» (١٠٣٩٨).

(٣) مسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٦/٧٨)، وأبو داود في: النكاح: حديث (٢١٠٥)، وابن ماجه في: النكاح: حديث (١٨٨٦)، والدارمي في: النكاح: حديث (٢١٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٣٨٧/٢).

(٤) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٤٨)، ومسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٧/٧٩٨٣).

النواة في الحديث عن معناها عند العرب، وهذا الذي قال الوقشي يحتاج إلى بيان، ومعناه أن المجرور الذي هو قوله من ذهب صفة للوزن الذي هو بمعنى الموزون لا للنواة أي على شيء من ذهب وزنه نواة أي خمسة دراهم (مسلم) عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: **«هل نظرت إليها»** قال: قد نظرت، قال: **«على كم تزوّجتها؟»** قال: على أربع أواق، فقال النبي ﷺ: **«على أربع أواق لكأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه»** قال: فبعث بعثًا إلى بني عبس، بعث ذلك الرجل فيهم[1] (محمد) بن علي بن أبي طالب ﷺ قال: أصدق علي فاطمة عليها السلام بنت محمد ﷺ درعًا من حديد. هذه الدرع هي درعه المعروفة بالحطمية. (قال) ابن العربي في أحكام القرآن: وقد روى شريك عن سعيد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة عن علي قال: زوّجني رسول الله ﷺ فاطمة على أربعمائة وثمانين درهمًا، قال: وهذا ضعيف، بل زوّجه إياها على درعه الحطمية، والحطمية: بفتح الحاء وسكون الطاء المهملتين منسوبة إلى حطمة بطن من عبد قيس مخصوصين بعمل الدروع. وقال محمد بن حبيب النسابة: حطمة بطن من محارب، وقد يقال في النسبة إليهم: حطمي بضم الحاء وفتح الطاء، وهو من شواذ النسب (أبو الفرج) في كتاب النساء قال: قال رجل لحيوة بن شريح: إني أريد أن أتزوّج، فقال: كم المهر؟ قال: مائة دينار، قال: لا تفعل، تزوّج بعشرة دنانير فإن وافقتك ربحت تسعين، وإن لم توافقك تزوّجت بعشرة أخرى، ولابد في عشر نسوة من امرأة توافقك (أبو الفرج) في الأغاني والزبير في الموفقيات يدخل حديث بعضهما في بعض قال: تزوّج مصعب بن الزبير سكينة بنت الحسن وعائشة بنت طلحة، فأمهر كل واحدة منهما ألف ألف درهم، قال الزبير: فقال فيه عبد الله بن همام:

أبلـــغ أمـــير المـــؤمنين رســـالة ... مـــن ناصـــح لـــك لا يريـــد خـــداعًا

بـــضع الفتـــاة بـــألف ألـــف كامـــل ... وتبيـــت حـــراس الثغـــور جياعًـــا

(وقال أبو الفرج): إن هذا الشعر لأنس بن زنيم الليثي، وأظن ابن[2] العربي حيث قال: وقد تناهى الناس في الصدقات حتى بلغ صداق المرأة ألف ألف، إنما أشار إلى هذا.

---

(١) مسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٤/٧٥).

(٢) في المخطوط «بن».

قال أبو الفرج: فبلغ ذلك أخاه عبد الله، فقال: إن مصعبًا قدم أيره وأخر خيره، وكتب إليه يؤنبه على ما فعل، ويأمره بالشخوص ويقسم عليه أن لا ينزل بمكة ولا بالمدينة، وأن يكون نزوله بالبيداء، وقال: إني لأرجو أن يكون هو الذي يخسف به في البيداء، فصار إليه مصعب يترضاه، فقال: ويحك يا مصعب، أرأيت من صنع ما صنعت أتعمد إلى مال الله فتمهر منه عائشة ألف ألف درهم، أتراك تغرف من بحر، فلان له مصعب وقال: قد كان ما كان فتغافل عنه، وعاد مصعب إلى عمله ودخل بها، ولما بلغ عبد الملك بن مروان قوله إن مصعبًا قدم أيره وأخر خيره فتعجب منه، وقال: أرأيتم هذا اللئيم كيف عير أخاه بما فعل، لكنه والله أخر أيره وأخر خيره فلا منفعة لأحد فيه، وكان عبد الله بن الزبير بخيلاً، ولم يكن في آل الزبير جوادًا غير مصعب. (أبو داود) عن يحيى بن يعمر قال: قال رسول الله ﷺ: «استحلوا فروج النساء بأطيب أموالكم» مرسل[1].

---

(١) أبو داود في «المراسيل» (٢٣).

الباب السابع

في الوقت المستحب لعقد النكاح وذكر الوليمة وما ينبغي أن يدعى به للمتناكحين

قال حمزة بن حبيب: كان أشياخنا يستحبون النكاح يوم الجمعة لما في ذلك من لفظ الاجتماع، وكانوا يختارون آخر النهار دون أوّله، ذهبوا إلى تأويل القرآن واتباع السنة في الفأل، لأن الله ﷻ سمى الليل سكنًا والنهار نشورًا، وقال رسول الله ﷺ في الطيرة: **«أصدقها الفأل»**[1]، فآثر الناس استقبال الليل بعقد النكاح تيمنًا بما فيه من الهدوّ والسكون، وكرهوا الاجتماع على صدر النهار لما فيه من التفرق والانتشار، وأما كراهة الناس الاجتماع في شوّال فإن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون منه، ويقولون: إنه يشول بالمرأة، من قولك شالت نعامتهم وشالت النوق بأذنابوا فعلقه الجهال منهم وأبطله النبي ﷺ بنكاحه عائشة رضي الله عنها في شوّال فكانت عائشة تستحب نكاح نسائها في شوّال، وتقول: أيّ النساء كان أحظى عند رسول الله ﷺ مني، وكان قد تزوّجني في شوّال وبني بي في شوال، خرجه عنها مسلم[2]. (أبو الفرج) في كتاب النساء قال: تزوّج رسول الله ﷺ أم سلمة في شوال، وبني بها في شوال (وورد أيضًا) ترغيب في شهر صفر، روى الزهري أن رسول الله ﷺ زوج ابنته فاطمة رضي الله عنها عليًّا ﷺ في شهر صفر، على رأس اثني عشر شهرًا من الهجرة.

(قال الغزالي) -رحمه الله- في الإحياء: ويستحب أيضًا أن يكون العقد في المسجد، وأن يحضر لذلك جمع من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة، وذكر حديثًا عن النبي ﷺ أنه قال: **«أعلنوا النكاح، واجعلوه في المسجد»**[3] (مسلم) عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة فقال: **«ما هذا؟»** قال: يا رسول الله، إني تزوّجت امرأة، قال: **«بارك الله لك، أولم ولو بشاة»**[4] وعنه قال: ما رأيت رسول الله ﷺ أولم على امرأة ما أولم على زينب فإنه ذبح شاة[5] (وفي

---

(١) [ضعيف] ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٨٨).

(٢) مسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٣/٧٣)، والنسائي في: النكاح: جـ(٦) ص(١٣٠)، وابن ماجه في: النكاح: حديث (١٩٩٠)، والدارمي في: النكاح: حديث (٢٢١١)، وأحمد في «مسنده» (٥٤/٦).

(٣) [حسن] الترمذي في: النكاح: حديث (١٠٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٧/٦)، والحاكم في «مستدركه» (١٨٣/٢).

(٤) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٥٥)، ومسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٧/٧٩).

(٥) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٦٨)، ومسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٨/٩٠).

رواية): ما أولم رسول الله ﷺ على امرأة من نسائه ما أولم على زينب، فقال ثابت البناني: بم أولم؟ قال: أطعمهم خبزًا ولحمًا حتى تركوه[١] (البخاري) عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دعي أحدكم إلى الوليمة فليأتها»**[٢] وفي بعض روايات مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسًا كان أو نحوه»**[٣] قال: فكان ابن عمر يأتي الدعوة في العرس وغير العرس ويأتيها وهو صائم (مسلم) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن شاء طعم وإن شاء ترك»**[٤]. وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دعي أحدكم فليجب، فإن كان فاطرًا فليطعم»**[٥] قوله فليصلّ: أي فليدع وليبرّك (وعنه) أن النبي ﷺ قال: **«شر الطعام طعام الوليمة، يمنعها من يأتيها ويدعى إليها من يأباها، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله»**[٦] (قال) صاحب العين: الوليمة طعام النكاح، وقال الخطابي: هي طعام الإملاك ولعل كلاهما واحد، وقال المازرى في المعلم: الوليمة عندنا مستحبة ليست بواجبة خلافًا لداود، وأحد قولي الشافعي في إيجابها أخذًا بظاهر قوله ﷺ**«أولم»**[٧] وقوله ﷺ: **«ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله»**[٨] قال: وعندنا أن قوله ﷺ **«أولم»** على الندب، ولا حجة لهم في قوله **«ومن لم يجب الدعوة فقد عصي الله»** لأنه رتب العصيان على ترك الإجابة، وهى ولو كانت واجبة لا تدل على وجوب الوليمة إذ غير بعيد أن تكون الوليمة غير واجبة، والإجابة واجبة كما أن الابتداء بالسلام غير واجب والرد واجب (وقال عياض): استدل بعضهم من ظاهر حديث عبد الرحمن بن عوف على استحباب الوليمة بعد الدخول، قال: وهو ظاهر قول مالك ﷺ في كتاب محمد. وحكي ابن حبيب استحبابها عند الأملاك وعند الدخول، ورآها بعض شيوخنا قبل الدخول آكد حتى يكون الدخول بعد الشهرة. قال وقوله: **«ولو بشاة»** دليل على أن التوسعة فيها لأهل الوجد بالذبح وغيره، وأن الشاة لأهل الجدة والقدرة أقل ما يمكن، وليس على طريق التحديد وأنه لا يجزئ أقل منها لمن يجدها بل على طريق الحض والإرشاد، ولا خلاف أنه لاحد لها ولا توقيت،

---

(١) مسلم (١٤٢٨/٩١).

(٢) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٧٣)، ومسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٩/٩٦).

(٣) مسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٩/١٠٠).

(٤) مسلم في: النكاح: حديث (١٤٣٠/١٠٥).

(٥) الترمذي في: الصوم: حديث (٧٨٠).

(٦) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٧٧)، ومسلم في: النكاح: حديث (١٤٣٢/١٠٧١١٠).

(٧) سبق تخريجه.

(٨) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٧٧)، ومسلم في: النكاح: حديث (١٤٣٢/١١٠).

قال: واختلف السلف في تكرارها أكثر من يومين، فمن قائل بإباحة ذلك، ومن قائل بكراهيته، واستحب أصحابنا لأهل السعة تكرارها أسبوعًا، قال بعضهم: وذلك إذا دعي في كل يوم من لم يدع قبله ولم يكرر عليهم كراهة للمباهاة والسمعة، قال: ولم يختلف العلماء في وجوب الإجابة في وليمة العرس -يعني النكاح- واختلفوا فيما عداها، فمالك وجمهورهم على أنها لا تجب، وذهب أهل الظاهر إلى وجوب الإجابة في كل دعوة بظاهر الحديث المتقدم، وقال الشافعي: ذلك واجب في الوليمة، ولا أرخص في ترك غيرها من الدعوات التي لا يقع عليها اسم الوليمة كالختان والإملاك والنفاس وحادث سرور، ولا يتبين لى أن تاركها عاص كتارك الوليمة، وقد كره مالك لأهل الفضل الإجابة إلى الطعام يدعون إليه. قال بعضهم: يعنى في غير الوليمة، وقال بعضهم: فيما يصنع تفضلاً دون موجب من ختان أو نفاس أو ما أشبه ذلك، قال: واختلف في وجوب الأكل للمفطر فيها فلأهل الظاهر فيها قولان، وقال الشافعي: إن كان مفطرًا أكل، وإن كان صائمًا صلى -أي دعا- على ما جاء في الحديث[1]. قال مالك: يجيب وإن لم يأكل، وخفف أصبغ في الإجابة إذا لم يكن معها الأكل. ورأى الإجابة إنما تتعين لأجله. واختلفوا أيضًا في الحضور إذا كان في الوليمة لعب مباح أو منكر، فالمباح الأكثرون يبيحون الحضور فيه إلا لذوى الفضل والهيآت، وفي مذهبنا في ذلك قولان، والمنكر الأكثرون يمنعون من الحضور فيه إلا أبا حنيفة ﷺ وبعضهم فإنهم يجيزونه، قال: وعندنا فيه قول شاذ (أبو ياسر البغدادي) في رسالته المعروفة برسالة الطيب. قال: ويقال: إن وليمتين كانتا لم يكن في الإسلام مثلهما ولا تقدم لهما نظير قبلهما.

(فالوليمة الأولى) وليمة الرشيد عند دخوله بزبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور (قال) أحمد بن طاهر صاحب تاريخ بغداد: لما زوّجها المهدي من ابنه هارون استعد لها ما لم يستعد لأحد قبلها من الآلات والآنية والفرش والمتاع والثياب والطيب والجوهر والخدم والوصائف، وعمل لها درع در يتجاوز الصفة لم يقف المقوّمون له على قيمة، ويقال إنه الدرع الذي كان لعبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية امرأة هشام بن عبد الملك، ودخل بها في المحرم سنة خمس وستين ومائة في قصر الخلد، وحشر الناس من الآفاق، وفرق في ذلك العرس من الأمور ما لم يتوهم أن بيوت الأموال تحويه، وكانت أواني الذهب تملأ بالدراهم وأواني الفضة تملأ بالدنانير، ويدفع ذلك لوجوه الناس إلى ما يتبع ذلك من

(١) سبق تخريجه.

نوافج[1] المسك وقطع العنبر، وتخلع عليه الخلع الوشي،[2] قال: وأحضر المهدي نساء بني هاشم جميعًا، فكان يدفع لكل واحدة منهن ثوب وشي وخريطة فيها دنانير ودراهم وآنية طيب، قال: ويقال إن العود القمارى إنما سقط وتقدمه العود الهندي في هذه الوليمة لما امتحنا جميعًا فوجد الهندي أطيبهما وأبقاهما في الثياب، قال: ونظمت الشعراء في هذه الوليمة نظمًا يمدحونه فيها ويهنئونه، وكتب أهل البلاد للمهدي والرشيد يهنئونهما بها، فيقال إنه لم يكن في الإسلام وليمة مثلها (قال) أبو ياسر: وبلغت النفقة في هذه الوليمة من بيت مال الخاصة سوى ما أنفقه الرشيد من ماله خمسين ألف ألف دينار.

(وأما الوليمة الثانية) فهي وليمة المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل (قال أبو الفرج): لما خطبها المأمون استعد لها استعدادًا يجل عن الوصف، وخرج المأمون إلى فم الصلح في شعبان سنة عشر ومائتين فأملك بها، وفعل الحسن في تلك الوليمة ما لم يفعله ملك في جاهلية ولا إسلام، نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وتعيين صلات وغير ذلك من كل شيء نفيس، فكان إذا وقع شيء من ذلك في يد من نثر عليه شيء منها فتحه وتوجه فاستوفى قبض ما فيه، ثم نثرت بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وقطع العنبر، وأقام الوظائف والنفقات لجميع ما اشتمل عليه عسكر المأمون لكل رجل على قدره، فيقال إن العسكر اشتمل على ستة وثلاثين ألف ملاح سوى أهل العسكر من سائر الناس. وقال أبو ياسر البغدادي حاكيًا عن الحسن بن رجاء: على نيف وسبعين ألف ملاح (قال) أبو الفرج: ولما جلبت بوران القرشية فرش لها حصير من ذهب وجيء بإناء عظيم من ذهب مملوء درًّا فنثر على الحصير، وكان فيمن حضر من النساء زبيدة وحمدونة بنت الرشيد وغيرهما من بنات الخلفاء، فلم تلتقط واحدة منهن شيئًا من الدر، فقال لهن المأمون: أكرمنها بالتقاطكن، فمدت كل واحدة منهن يدها وأخذت واحدة وبقي الدر ظاهرًا على حصير الذهب، فقال المأمون: قاتل الله الحسن بن هانئ كأنه كان حاضرًا مجلسنا، حيث قال:

كأن كبرى وصغرى من فواقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

(قال أبو ياسر): وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها ثمانون رطلاً، فأنكر المأمون ذلك، وقال: هذا سرف، فأمرت زبيدة برفعها، وقالت: هاتوا الشمع المستعمل. قال: وسأل

---

(١) نوافج المسك: أوعية المسك التي في أجسام الظباء.

(٢) الوشي: نوع من الثياب.

المأمون زبيدة عن مقدار النفقة في هذه الوليمة، فقالت: ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف إلى سبعة وثلاثين ألف ألف. فبلغ ذلك الحسن بن سهل فقال: كأن النفقة كانت على يديها، والله لقد حصرتها فكانت ثمانية وثلاثين ألف ألف، قال: **وأقامت البغال وعدتها أربعة آلاف بغل تنقل الحطب قبل الوليمة أربعة أشهر، ففي أثناء الوليمة أعوزهم الحطب، فكانوا يوقدون الكتان[1] عوضًا عن الحطب.**

(الهيثم بن عدى) قال: لما زوّج الحجاج ابنه محمدًا قال: لأطعمن في عرسه طعامًا لم يعمل أحد قبله ولا أحد بعده مثله، فقيل له: أصلح الله الأمير، لو بعثت إلى من أدرك كسرى أبرويز فوصف لك شيئًا مما عمله في بعض أيامه لتعمل على رسمه فإن معهم المعرفة والسياسة، فأرسل إلى شيخ ممن أدرك كسرى، فقال له: صف لى أطيب طعام عمله كسرى وأكثره وأشهره، قال: نعم، أصف لك بعلم، لما أراد كسرى أن يبتنى بابنة فلان بعث إلى عماله في مملكته كلها فأشخص من كل بلد عامله وكاتبه ورجلين من وجوه أهل البلد، فاجتمع عنده منهم أربعة آلاف رجل، فبسط لهم بسط الديباج المنسوجة بالذهب عليها وسائد منها، ثم أتوا بأخاوين[2] الفضة عليها صحاف الذهب فيها من كل غريب الطعام، فإذا فرغ كل رجل من طعامه أعطى مثقال مسك لغسل يده يصنع به ما شاء، فصنع بهم ذلك ثلاثة أيام، ثم قسمت بينهم الفرش والآنية وأعظمت لهم الجوائز وردهم إلى بلدانهم، فقال الحجاج: أفسد علينا هذا العلج[3] ما أردناه انظروا جزائر فأنحروا في كل مربعة من مربعات واسعًا جزورًا يقسمها أهلها. (مسلم) عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: لما بني بى رسول الله ﷺ أخذت بيدي أم رومان فأدخلتني بيتًا فإذا نسوة من الأنصار، فقلن: على الخير والبركة وأيمن طائر[4].

وقال البخاري: على اليمن والبركة وعلى خير طائر[5] (وقال) عياض في الإكمال: فيها حجة لما يقال للمتزوج، قال: وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ من رواية معاذ نحوه، وأنه دعا لرجل من الأنصار شهد أملاكه فقال: **«على الألفة والخير والطير الميمون والسعة في الرزق، بارك الله لكم»**. قال: وروى عنه كراهة قول العرب في ذلك بالرفاء والبنين

---

(١) الكتان: جمع «كُنَّة»، وهى المخدع أو الرف يشرع في البيت. المعجم الوسيط (٨٠٢/٢).

(٢) أخاوين: جمع «خوان»، وهو ما يؤكل عليه. «المعجم الوسيط» (٢٦٣/١).

(٣) العلج: كل جاف شديد من الرجال. «المعجم الوسيط» (٦٢١/٢).

(٤) مسلم في: النكاح: حديث (١٤٢٢/٦٩).

(٥) البخاري في: النكاح: حديث (٣٨٩٤).

(وقال) ﷺ لبعضهم: «بارك الله لكم وعليكم»[1] قال: ومعنى الطائر هنا الحظ أي على أيمن حظ وأفضله، ويقال للحظ من الخير والشر طائر، وقيل ذلك في قوله تعالى ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾[الإسراء:١٣]، انتهى كلام عياض، رحمه الله تعالى. قوله فيه وروى عنه كراهة قول العرب في ذلك بالرفاء والبنين وجاء ذلك في حديث يرويه الحسن بن دينار عن الحسن البصري «أن رسول الله ﷺ نهى أن يقال بالرفاء والبنين»[2] الحديث مرسل، والحسن بن دينار متروك. وتزوّج عقيل بن أبي طالب فقيل له بالرفاء والبنين، فقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رفي أحدكم فليقل على الخير والبركة بارك الله لك وبارك عليك»[3].

(قال) إسحق بن يحيى: رأيت عقيل بن علقة يقول لرجل من الأنصار: بالرفاء والبنين واليمن والطائر المحمود، قال: فقلت له يا أبا علقة إنه يكره أن يقال هذا، فقال: يا ابن أخي، إن هذا قول أخوالك في الجاهلية، وإلى اليوم لا يعرفون غيره. قال إسحق: فحدثت الزهري بذلك، فقال: إن عقيل بن علقة كان جاهلاً جافيًا. (أبو داود) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا رفي المتزوّج يقول له «بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير»[4]. (سعيد بن المسيب) عن ابن عباس ﷺ قال: لما ابتنى على ﷺ بفاطمة –عليها السلام– دخل رسول الله ﷺ عليهما فقال: «قوما إلى بيتكما، جمع الله بينكما، وبارك فيكما، وأصلح بالكما» ثم قام فأغلق عليهما الباب بيده. (وفي رواية) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لعلى حين أراد تزويجه «إن الله أمرني أن أزوّجك فاطمة بنت خديجة إن رضيت» قال: قد رضيت يا رسول الله، قال أنس: فقال النبي ﷺ: «جمع الله شملكما وأقر أعينكما، وأسعد جدكما، وأخرج منكما خيرًا كثيرًا طيبًا» قال أنس: فوالله، لقد خرج منهما خير كثير طيب[5]. رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

---

(١) [صحيح] أبو داود في: النكاح: حديث (٢١٣٠)، والترمذي في: النكاح: حديث (١٠٩١)، وابن ماجه في: النكاح: حديث (١٩٠٥)، وأحمد في «مسنده» (٢٠١/١).

(٢) وجاء النهى عن ذلك في الحديث الذي في «سنن الدرامي» رقم (٢١٧٣) وليس في إسناده الحسن بن دينار، والحسن البصري يرويه عن عقيل بن أبي طالب عن النبي ﷺ.

ورواه أيضًا النسائي في: النكاح: جـ (٦) ص(١٢٨) عن الحسن البصري ولفظه. قال: تزوج عقيل بن أبي طالب امرأة من بني جثم، فقيل له: بالرفاء والبنين، قال: قولوا كما قال رسول الله ﷺ: «بارك الله فيكم وبارك لكم».

ورواه أيضًا ابن ماجه في: النكاح: حديث (١٩٠٦).

(٣) راجع تخريج الحديث السابق.

(٤) [صحيح] أبو داود في: النكاح: حديث (٢١٣٠)، وأحمد في «مسنده» (٣٨١/٢).

(٥) [موضوع] الطبراني في «الكبير» (١٩٤/١٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٤١٥/١)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (٣٩٠).

الباب الثامن

في جلاء العروس عند ابتناء زوجها بها ودخولها على الرجل ليلاً أو نهاراً واستحباب اللهو في ذلك وما ينبغي للرجل والمرأة أن يمتثلا عند الاجتماع وقبل الوقاع وذكر جمل من آداب الجماع

لم تزل العادة القديمة وإلى الآن جارية بجلاء العروس بين أهلها قبل أن تصل إلى زوجها ثم عند زوجها بعد وصولها إليه، وقد ورد في ذلك حديث يرويه القاسم بن عبيد الله العمري عن ابن دينار عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ اجتلى عائشة -رضي الله عنها- عند أبويها قبل أن يبتني بها» (قال) ابن القطان في كتاب النظر: هو كناية عما جرت به عادة النساء من جلاء العروس بينهن قبل دخولها على زوجها، قال: والقاسم بن عبد الله ضعيف عند المحدثين، وقد رويت هذه اللفظة بالخاء المعجمة (سعيد بن المسيب) عن ابن عباس ﷺ قال: لما زوّج النبي ﷺ فاطمة ابنته -عليها السلام- عليًا ﷺ قام فدخل على النساء، وقال: «**إني زوّجت ابن عمي ابنتي فاطمة وقد علمتن منزلتها مني وأنا أدفعها إليه الآن إن شاء الله تعالى، فدونكن ابنتكن**» قال: فقمن إليها فعلقنها من طيبهن وكسونها من حليهن، ثم إن النبي ﷺ دخل فلما رآه النساء وثبن وتخلفت أسماء بنت عميس، فقال لها النبي ﷺ: «ما أنت؟» قالت: أنا التي أحرس ابنتك فإن الفتاة ليلة يبنى بها زوجها لابد أن تكون امرأة قريبًا منها إن عرضت لها حاجة أو أرادت شيئًا أفضت بذلك إليها، فقال لها النبي ﷺ: «**حرسك الله من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان**» وفي الحديث طول. قالوا: وينبغي للمرأة التي تتولى جلاء العروس أن تعرض على الرجل جميع محاسنها وتظهر له ما خفي من خضابها أو زينتها فإن أغفلت شيئًا من ذلك نبهتها العروس له بيد أو رجل أو إشارة (قالت) رعيب الماشطة: جلوت ريا بنت الحبحاب على زوجها قدامة بن وكيع وكانت جارية تملأ المرط، تنظر بعيني مهاة، وتلتف عن جيد غزال، فائقة الحسن جامعة الخلق، قالت: فإني لأرفع يدها لأرى زوجها حسن خضابها إذ أخرجت رجلها من تحت غلالتها فعلمت ما تريد، فجعلت أريه مرة يدها ومرة رجلها، قالت: فقال لي: يا رعيب، ما رأيت قط خضابًا أحسن من هذا الذي أرى في يدي هذه العروس ورجليها، ولقد شغلني عما سواه، وإني لأنظر إليها بكل نظري فكلما ارتد طرفي إلى يديها مال إلى رجليها فما قضيت وطرى من حلاوة نظري، قالت: فكان ذلك يعجبها،

ويتبين لى منه السرور في وجهها. (قالت): وجلوت أم البنين بنت موسى بن عقال على زوجها عمرو بن الفهيد وكيل المهدي وكانت جارية قد أغناها حسنها على التحلي فزادها الحلي حسنًا وكل النساء يتحدثن بجمالها وكمالها وشدة حيائها، فجعلت لا أمد يدي إلى شيء من محاسنها إلا سبقتني إليه، فلما دخل عليها فركته لنقصان شهوته، ولم تزل تبدى البغضة له والنفور من مضجعه إلى أن أجبر نفسه على طلاقها (قال الهيثم) بن عدى: دخل مصعب بن الزبير على عائشة بنت طلحة وهى تمتشط فتمثل بقول جميل:

ما أنس لا أنـس منهـا نظـرة سـلفت ... بـالحجر لـما جلتهـا أم منظـور

فقيل له: إن أم منظور ههنا وكانت عجوزًا من عذرة، فاستدعى بها فأقبلت، فقال: يا أم منظور أخبريني كيف كان جلاؤك لبثينة؟ قالت: مشطت رأسها، وجعلت فيه شيئًا من خلوق وألبستها وشاحا وقلادة من بلح، ثم أقبل جميل على راحلته فوقف مليًا ينظر إليها ثم انصرف، قال: فقال لها مصعب: فإني أقسم عليك إلا جلوت عائشة كما جلوت بثينة ففعلت ووقف مصعب ينظر إليها مليًا ثم انصرف. ويختار أن يكون دخول المرأة على زوجها ليلاً فإنه وقت السكون والهدوّ وانقطاع التصرف، والنهار هو محل التفرق والانتشار، وقد سمى الله تعالى: الليل سكنًا وجعل النهار نشورًا. (وورد) شيء من الابتناء نهارًا، قالت عائشة -رضي الله عنها-: تزوّجني رسول الله ﷺ لست سنين وبني بى وأنا بنت تسع سنين، قالت: فقدمنا المدينة فوعكت شهرًا فوقي شعري جميعه فأتتني أم رومان وأنا على أرجوحة ومعي صواحبي، فصرخت بى وأنا لا أدرى ما تريد فأخذت بيدي وأدخلتني بيتًا فإذا نسوة من الأنصار، فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر[1] فأسلمتني إليهن، فغسلن رأسي وأصلحنني فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى فأسلمنني إليه، خرجه مسلم. (قال) عياض -رحمه الله- في الإكمال في جواز الابتناء بالأهل بالنهار، وعليه ترجم البخاري في باب الابتناء بالأهل نهارًا بغير مركب ولا نيران. (وقال) بعضهم: كلما أشهر النكاح بمركب أو نيران كان أولى، قال: ومعنى النيران كثرة السرج عند الزفاف، وذلك إنما يكون ليلاً، قال: وقد تكون النيران كناية عن الولائم، كما قال بعضهم في الحديث الآخر ويروى دخان، وسيأتي ما قيل في الوطء ليلاً والوطء نهارًا في باب بعد هذا. (البخاري) عن عائشة -رضي الله عنها- أن امرأة زفت إلى رجل من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة أما كان معهم لهو، فإن الأنصار يعجبهم اللهو» ذكره البخاري في باب النسوة

---

(١) سبق تخريجه.

يهدين المرأة إلى زوجها[1]. (النسائي) عن محمد بن حاطب الجمحي قال: قال رسول الله ﷺ: «**فصل ما بين الحلال والحرام الصوت والدف في النكاح**» ذكره المهدوى[2]، وقال فيه: حسن، وقال غيره: صحيح. (قال) شريح: ومن السنة إذا دخل الرجل على المرأة أن يصلى ركعتين وتصلى خلفه، فيسألان الله تعالى خير ليلتهما ويتعوذان بالله من شرها. (قال) ابن سيرين: تزوّجت امرأة من بني تميم فلما كان ليلة البناء بها دخلت عليها، فإذا هي جالسة على باب خدرها، فأهويت إليها بيدي، فقالت: على رسلك، فحمدت الله وأثنت عليه، ثم قالت: إن الله يضع العلم حيث يشاء، وإنه بلغني أن الرجل يؤمر إذا دخل على أهله أن يصلى ركعتين وأن تصلى امرأته معه، فإذا فرغ قال: اللهم بارك لى في أهلي وبارك لأهلي في، اللهم ارزقني ألفتهم ومودتهم وارزقهم ألفتى ومودتي وحبب بعضنا إلى بعض فقمت ففعلت، فلما فرغت أهويت بيدي إليها، فقالت: على رسلك إن الرجل يؤمر إذا أراد غشيان أهله أن يقول: اللهم جنبنا الشيطان ولا تجعل له بيننا نصيبًا فقلت ذلك. فلم أزل أعرف الخير والبركة.

قولها إن الرجل يؤمر إذا دخل على أهله أن يصلى ركعتين وأن تصلى امرأته معه جاء ذلك في حديث خرجه البزار عن الحجاج بن فروخ عن ابن جريج عن ابن عطاء عن ابن عباس عن سلمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تزوّج أحدكم امرأة فكانت ليلة البناء بها فليصل ركعتين، وليأمرها فلتصل ركعتين معه، فإن الله ﷻ جاعل في البيت خيرًا**» الحجاج بن فروخ قال فيه أبو حاتم: شيخ مجهول، وقال ابن معين: ليس بشيء. وقولها إن الرجل يؤمر إذا أراد غشيان أهله أن يقول اللهم جنبنا الشيطان جاء في ذلك حديث خرجه البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما لو أن أحدكم يقول حين يأتي أهله بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدًا**»[3]. (قال) عياض في الإكمال: هو أن لا يصرعه الشيطان، وقيل: أن لا يطعن فيه عند ولادته كما جاء في الحديث، قال: ولم يحمله أحد على عمومه في الوسوسة والإغواء وشبه ذلك (وروى) الزبير في الموفقيات عن عمه عن الهيثم بن عدى عن السري بن إسماعيل عن الشعبي قال: قال لى شريح: عليك يا شعبي بنساء

---

(١) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٦٢).

(٢) [صحيح] النسائي في: النكاح: جـ(٦) ص(١٢٧)، والترمذي في: النكاح: حديث (١٠٨٨)، وابن ماجه في: النكاح: حديث (١٨٩٦)، وأحمد في «مسنده» (٣/٤١٨).

(٣) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٦٥)، ومسلم في: النكاح: حديث (١١٦/١٤٣٤).

بني تميم، قال: وأخبرني أنه تزوّج امرأة منهم، قال: فأقسمت على أهلها بعد تمام العقد أن لا تبيت إلا عندي، فقالوا: اللهم غفرًا نريد أن نصنعها لك ونهيئها، فقلت: حسبي ما رأيت. وقد كنت رأيتها قبل نكاحها فهيئوها ثم زفوها إلى من ليلتهم، فأقبلت إلى مع نساء، فلما وقفت بباب الحجرة فاستخفى تلك النساء منها، ثم دخلت البيت فقمت إليها، فقلت: أيتها المرأة إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم الزوج فيصلى وتصلى خلفه، ويسألان الله تعالى خير ليلتهما ويتعوذان بالله من شرها، ثم تقدمت إلى الصلاة فإذا هي خلفي فصليت ثم انقلبت فإذا هيَ على فراشها فأخذت بناصيتها فدعوت وبركت ثم مددت يدي، فقالت: على رسلك ثم قالت: الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وصلى الله على سيدنا محمد، أما بعد فإني غريبة وأنت رجل لا أعرف أخلاقك، فأخبرني بما تحب فآتيه وبما تكره فأتجنبه، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم، قال: فقلت: الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد أما بعد فإنك قدمت خير مقدم على أهل دار زوجك خير رجالهم، وأنت -إن شاء الله تعالى- خير نسائهم، أحب كذا وأكره كذا، قالت: فأخبرني عن أختانك أتحب أن يزوروك، قال: فقلت إني في رجل قاض فأكره أن يملوني. فبت بخير ليلة وأصبحت فأقمت عندها ثلاثًا، ثم خرجت إلى مجلس القضاء فلبثت فيه حولاً لا أرى فيه يومًا إلا وهو أحب إلى من الذي قبله، فلما كان عند رأس السنة انصرفت من مجلس القضاء إلى منزلي فإذا عجوز تأمر وتنهى، فقالت: كيف أنت يا أبا أمية؟ فقلت: ومن أنت؟ قالت: ختينتك؟ فقلت: حياك الله بالسلام إني بخير عافاك الله، قالت: كيف رأيت صاحبتك؟ قلت: بخير امرأة، قالت: إن المرأة لا تكون في حال أسوأ خلق منها في حالتين إذا حظيت عند زوجها وإذا ولدت غلامًا، فإن رابك منها شيء فالسوط فإن الرجال ما حازت شيئًا إلى بيوتها شرًا من الورهاء المدللة، قلت: أشهد أنها ابنتك قد كفتني الرياضة وأحسنت السياسة والأدب، قال: فكانت تأتي في كل سنة توصى بهذه الوصية ثم تنصرف، فذلك حيث أقول

إذا زينـــب زارهـــا أهلـــها ... حـــشدت وأكرمـــت زوّارهـــا

وإن هـــي زارتهـــم زرتهـــا ... وإن لم أكـــن آتهـــا دارهـــا

قال: فأقامت عندي عشرين سنة ما غضبت عليها يومًا قط ولا ليلة إلا يومًا كنت لها ظالمًا، وذلك أني كنت أمام قومي فصليت ركعتي الفجر فأبصرت في الدار عقربا فأعجلني المؤذن عن قتلها، فكفأت عليها إناء وأمرتها أن لا ترفعه حتى أرجع، فجئت فوجدتها قد

رفعته فضربتها العقرب، فلو رأيتني يا شعبي وأنا استخرج الدم من أصبعها وأقرأ عليها فاتحة الكتاب والمعوذتين (قال): وكان لي جار من كندة لا يزال يضرب امرأته، فذلك حيث أقول:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلت يميني حين أضرب زينبا
أأضربها من غير جرم أتت به إلى فما عذري إذا كنت مذنبًا
فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكبًا

وماتت، فوالله لقد بغضت إلى الحياة وأفسدت على النساء، فوددت أنى تبعتها (ويشبه) هذا الخبر الخبر الذي يرويه مالك عن يحيى بن سعيد قال: كان لسعيد بن المسيب جليس يقال له عبد الله بن أبي وداعة، فأبطأ عنه أيامًا فسأل عنه، فقيل له: إن سعيد بن المسيب سأل عنك، فأتاه وسلم عليه ثم جلس، فقال له سعيد: أين كانت غيبتك يا أبا محمد؟ فقال: إن أهلي كانت مريضة فمرضتها، ثم ماتت فدفنتها، فقال: يا عبد الله أفلا أعلمتنا بمرضها فنعودها أو بموتها فنشهد جنازتها، ثم عزاه عنها ودعا له ولها، ثم قال: يا عبد الله تزوّج ولا تلق الله وأنت عزب، فقال: يرحمك الله، ومن يزوّجني؟! فوالله ما أملك غير أربعة دراهم، فقال: سبحان الله، أو ليس في أربعة دراهم ما يستعف به الرجل المسلم؟! يا عبد الله، أنا أزوجك ابنتي إن رضيت، قال عبد الله: فسكت استحياء منه وإعظامًا لمكانه، فقال: مالك سكت لعلك سخطت ما عرضنا عليك، قال: فقلت يرحمك الله، وأين المذهب عنك فوالله إني لأعلم أنك لو شئت زوّجتها بأربعة آلاف وأربعة آلاف، قال: قم يا عبد الله فادع لى نفرًا من الأنصار، فقمت فدعوت له حلقة من بعض حلق الأنصار، فأشهدهم على النكاح بأربعة دراهم ثم انقلبنا، فلما سلينا العشاء الآخرة وصرت إلى منزلي إذا برجل يقرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد، فوالله خطر ببالى كل سعيد بالمدينة غير سعيد بن المسيب، وذلك أنه ما رؤى قط خارجًا من داره إلا إلى جنازة أو إلى المسجد، فقلت: من سعيد؟ قال: سعيد بن المسيب، فارتعدت فرائضي، وقلت: لعل الشيخ ندم فجاء يستقيلنى، فخرجت إليه أجر رجل وفتحت الباب فإذا أنا بشابة متلففة بساج ودواب عليها متاع وخادم بيضاء، فسلم على، ثم قال لى: يا عبد الله، هذه زوجتك، فقلت مستحيًا منه: يرحمك الله كنت أحب أن يتأخر ذلك أيامًا، فقال لى: لم أولست أخبرتني أن عندك أربعة دراهم؟ قال: هو كما ذكرت لك، ولكن كنت أحب أن يتأخر

ذلك. قال: إنها إذا عليك لغير ميمونة، وما كان الله ليسألني عن عزبتك الليلة وعندي لك أهل، هذه زوجتك وهذا متاعكم وهذه خادم تخدمكم معها ألف درهم نفقة لكم، فخذها يا عبد الله بأمانة الله، فوالله إنك لتأخذها صوّامة قوامة عارفة بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فاتق الله فيها، ولا يمنعك مكانها مني إن رأيت منها ما تكره أن تحسن أدبها، ثم سلمها إلى ومضى. (قال): فوالله ما رأيت امرأة قط اقرأ لكتاب الله تعالى ولا أعرف بسنة رسول الله ﷺ ولا أخوف لله ﷻ منها، لقد كانت المسألة المعضلة تعيى الفقهاء فأسالها عنها فأجد عندها منها علمًا (قال) فأقمت عندها ما شاء الله، ثم رزقني الله منها حملاً، وكان سعيد بن المسيب كثيرًا ما يسأني عنها، فيقول: ما فعلت تلك الإنسانة؟ فأقول: بخير، فيقول: يا عبد الله، إن خف عليك أن تزيرناها فافعل، فلما حضر ولادها خرجت لأنظر في بعض ما ينظر فيه الرجل لأهله ورجعت إلى الدار، وإذا بها شخص ما رأيته قط فرجعت موليا، فنادتني من ورائي يا عبد الله ادخل فقد أحل الله لك هذه النظرة، فقلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قالت: أنا أم الفتاة، يا عبد الله، كيف رأيت أهلك؟ قلت: جزاكم الله من أهل بيت خير القد، ربيتم فأحسنتم وأدبتم فأحكمتم فقالت: يا عبد الله لا يمنعك مكانها منا أن ترى بعض ما تكره فتحسن أدبها، يا عبد الله، لا تملكها من أمرها ما جاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، ولا تكثر التبسم في وجهها فتستخف بك، يا عبد الله بارك الله لكما في المولود وجعله مباركًا خائفًا لله، ووقاه فتنة الشيطان وجعله شبيها بجده سعيد، فوالله إني لزوجته منذ أربعين سنة ما رأيته عصى الله تعالى معصية قط. وهذه نفقة بعث بها إليك، قال: فأخذتها منها فإذا هي خمسة دنانير، ثم خرجت فلم أر لها وجهًا ثمان عشرة سنة حتى قضى الله عليها بالموت (قال الغزالي رحمه الله تعالى): استعجال سعيد في زف المرأة إلى زوجها من ليلتها يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة في الدين إلى إطفائها بالنكاح (أبو داود) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادمًا فليقل: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه»[1] .

(قال) أبو الزناد -رحمه الله-: كنت رجلاً مئناثًا، فقيل لى: استغفر الله قبل المجامعة ففعلت، فولد لى بضعة عشر ذكرًا. ويستحب للمرأة ليلة بنائها أن لا تفرط في التمنع على زوجها فيما يريد منها ولا بأس بالامتناع الخفيف الذي يهيجه ويقوى حرصه،

---

(١) أبو داود في: النكاح: حديث (٢١٦٠).

فإن قوى امتناعها فربما يؤدى إلى انكسار شهوته وعجزه عن الافتضاض من ليلته تلك، فتبيت المرأة معه بليلة حرة. يقال: باتت العروس بليلة حرة على الإضافة إذا لم يقدر بعلها على افتضاضها أول ليلة، فإن افتضها من ليلته قيل باتت بليلة شيبا على الإضافة أيضًا قال النابغة:

شمس موانع كل ليلة حرة   يخلفن ظن الفاحش المغيار

(قال) الأصمعي: أراد موانع كل ليلة شيبا فوضع حرة موضع شيبا للازدواج والعلم بما أراد، وربما تمادى انكسار الشهوة أول ليلة إلى انكسارها زمنًا طويلاً، فيجب على المرأة أن تحذر كل الحذر من هذا.

(صاحب نثر الدرر وأبو الفرج في الأغاني) قال: لما أهديت نائلة بنت الفرافصة إلى عثمان ﷺ وكان أخوها زوّجها منه وضع لها سرير إلى جانب سريره فجلست عليه، ثم قال لها: إما أن تقومي إلي وإما أن أقوم إليك، فقالت: والله ما تجشمت إليك سماوة كلب، وأنا أمتنع إليك في مجلسك بعرض البساط، وقامت وجلست معه فوضع قلنسوته وقال: لا يروعك ما ترين من صلعي فإن وراء ذلك ما تحبين، فقالت: إني من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهول الصلع، فقال: ألقي رداءك، فألقته، فقال: اطرحي خمارك فطرحته، ثم قال انزعي درعك فنزعته. ثم قال: حلي إزارك، قالت: ذلك إليك، قال: صدقت وبني بها فأعجبته فولدت له ابنته مريم. وقتل وهي عنده فخطبها بعده أشراف قريش فلم تنكح بعده أحدًا حتى ماتت. الفرافصة هنا مفتوح الفاء الأولى. قال ابن الأنباري: وكل فرافضة في العرب فهي مضموم الفاء الأولى إلا أبا نائلة هذا (أبو الفرج) في كتاب النساء عن ابن الماجشون قال: زوج معاوية ابنته هندًا من عبد الله بن عامر، فسمع معاوية يومًا جاريتين له يتحدثان ويذكران أنها لم تمكن زوجها من شيء وذلك بعد دخولها عليه بشهر، فركب معاوية حتى أتى باب عبد الله فدخل معه البيت وأرخت قبتها، فتحدث معاوية وعبد الله ساعة. ثم ضرب معاوية جانب القبة بخيزرانة كانت في يده وقال:

من الخفرات البيض أما حرامها   فصعب وأما حلها فذلول

ثم قام: وفهمت هند ما أراد، ودخل عبد الله عليها بعد ذلك، فمكنته من نفسها وما يرح حتى قضي حاجته منها (النسائي) عن عبد الله بن سرجس أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا أتى أحدكم أهله، فليلق على عجزه وعجزها شيئًا ولا يتجردا تجرد»[١] يتصل هذا الحديث من جهة صدقة بن عبد الله وليس بقوى عن زهير بن[٢] وهو ضعيف[٣] (أبو أحمد بن عدى) من حديث عباد بن كثير عن محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال «إذا جامع أحدكم أهله فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها كما يحب أن تقضى حاجته»[٤] عباد بن كثير الواقع في هذه السند هو شامي، وهو ضعيف، وأما محمد بن جابر فروى عنه الأئمة كشعبة والثوري وأيوب وغيرهم .

(قال) الغزالي في الإحياء: من آداب النكاح التي حض رسول الله ﷺ عليها «إذا قضي الرجل وطره من الإنزال أن يمهل المرأة حتى تقضى وطرها فإن إنزالها قد يتأخر عنه، فالقعود عنه إذ ذاك إيذاء لها»، قال: والاختلاف يوجب التنافر مهما كان الرجل سابقًا، وإن سبقت هي فذلك لا يضر الزوج، قال: والتوافق في وقت الإنزال ألذ للمرأة ليشتغل الرجل بنفسه عنها فإنها ربما تستحي منه (وذكر) الغزالي أيضًا أن من آداب الجماع أن ينحرف عن القبلة فلا يستقبلها إكرامًا لها، وأن يقدم قبل الوقاع الملاعبة والتلطف بالكلام والتقبيل، وذكر في ذلك حديثًا عن النبي ﷺ قال: «لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة على البهيمة وليكن بينهما رسول، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: القبلة والكلام» قال: وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من العجز في الرجل: أن يلقى من يجب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه، وأن يكرمه أخوه فيرد عليه كرامته، وأن يقارب المرأة فيصيبها قبل أن يحادثها ويؤانسها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه»[٥]. (قال): ويكره الجماع في ثلاث ليال من الشهر الأولى والوسطى والأخرى فإنه يقال: إن الشيطان يحضر الجماع في هذه الليالي. (قال): وقد رويت كراهة ذلك عن على ومعاوية وأبى هريرة ﷺ وذكر أن من العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة تحقيقًا لأحد التأويلين في قوله ﷺ «من غسل وأغتسل»[٦] (مسلم) عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة بالمخطوط، وهى: «العيرين».

(٢) بعد كلمة « بن » كلمة غير واضحة بالمخطوط.

(٣) ورواه ابن ماجه في: النكاح: حديث (١٩٢١) باسناد ضعيف أيضًا.

(٤) الكامل فى الضعفاء (٢١٦٠/٦) .

(٥) راجع «المغنى عن حمل الأسفار» (٥٢/٢).

(٦) [صحيح] الترمذي في: الجمعة: حديث (٤٩٦)، وابن ماجه في: إقامة الصلاة: حديث (١٠٨٧).

وتفضي إليه ثم يفشي سرها»[1]. وفي رواية: «أن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها». أخرجه مسلم من طريق عمر بن حمزة العمري وقد ضعفه ابن معين، وقال ابن حنبل: أحاديثه مناكير[2]. (قال) عياض -رحمه الله- في الإكمال: قد جاء في النهى عن ذلك أحاديث كثيرة ووعيد شديد، قال: وإنما المنهي عنه أن يصف ما يفعله ويكشف الحال فيه؛ إذ هو من كشف العورة بالنظر والوصف. وأما ذكر مجرد المجامعة والخبر عنه على الجملة فغير منكر إذا كان لفائدة ولمعنى كما قال ﷺ: «إني لأفعله أنا وهذه»[3] وذكره لغير فائدة ليس من مكارم الأخلاق ولا من فعل أهل المروآت (أبو داود) عن أبى هريرة ﷺ قال: صلى رسول الله ﷺ في المسجد ومعه صفان من رجال وصف من نساء أو صفان من نساء وصف من رجال، فلما قضى صلاته أقبل على الرجال فقال: «هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه، وألقى عليه ستره واستتر بستر الله؟ قالوا: نعم، قال: ثم يجلس بعد ذلك فيقول فعلت كذا وفعلت كذا، قال: فسكتوا، قال: فأقبل على النساء وقال: هل منكن من تحدث فسكتن، فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت لرسول الله ﷺ ليراها ويسمع كلامها، فقالت: يا رسول الله، إنهم ليتحدثون وإنهن ليتحدثن، فقال: هل تدرون ما مثل ذلك؟ إنما ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانًا في السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه وذكر بقية الحديث»[4]. (الخطابي) في غريب الحديث عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى ﷺ «أن رسول الله ﷺ نهى عن السباع» قال الخطابي: السباع المفاخرة بالجماع وإنشاء الرجل ما يجرى بينه وبين زوجته فيه، مأخوذ من قولك: سبعت الرجل إذا اغتبته وذكرت فيه ما يكرهه؛ لأن أمر الجماع مما يكره ذكره ويستر عن الناس أمره انتهى كلام الخطابي. وفي الحديث تأويل آخر نذكره بعد هذا -إن شاء الله تعالى- ولا بأس أن يسأل الرجل صبيحة بنائه كيف وجد أهله، فقد جرت العادة بذلك وقد سأل مالك بن الحرث بن الأشتر عليًا ﷺ عن ذلك فأجابه وأخبره بالصفة التي وجدها عليها، غير أنه يستحب له إن وجد عيبًا من قبيح أو غيره أن يستره ويخبر بأمر عام أنه لم يرضها وأنها لم توافق أخلاقه، وإن وجد جمالاً فائقًا أو حسنًا بارعًا أو أدبًا بالغًا فلا يفرط في وصفه ويبالغ في

---

(١) مسلم في: النكاح: حديث (١٢٣/١٤٣٧).
(٢) مسلم في: النكاح: حديث (١٢٤/١٤٣٧).
(٣) مسلم في: الحيض: حديث (٨٩/٣٥٠).
(٤) أبو داود في: النكاح: حديث (٢١٧٤).

ذكره كما يفعله كثير من السخفاء فإن ذلك ضعف ودناءة، ثم قد ينشأ عن ذلك مفاسد كثيرة (حكي) أبو عثمان في كتاب النقائص قال: كانت لمعبد السليطى امرأة تسمى حميدة -وهى من بني رزام بن مالك بن حنظلة- وكانت فائقة الجمال، وكان زوجها معبد قد أخرجه الحجاج في بعث خراسان، فكان يحدث جلساءه بجمالها ويظهر التشوق إليها حتى هم أن يعصى ويرجع، فوقعت محبتها في قلب حوط بن سنان أحد بني العتيك، فقال لمعبد إني أحب أن ألحق بالبصرة، فقال معبد: فإني أكتب معك كتابًا إلى حميدة، فلما قدم عليها أتاها بكتاب زوجها معبد، وقال: لا أدفعه إلا إليها، فبرزت له فكلمها وأوقع في قلبها شيئًا مما في قلبه من محبتها، ولم يزل يختلف إليها ويخدعها حتى هربت إليه، فاختبأت عنده حولا فدل عليها أهلها وقد حملت، فأتى بها عبد الرحمن بن عبيد العبسى وكان على شرطة الحجاج فرجمها. (وقال الشاعر في ذلك):

رزاميــــة كـــان الـــسليطى معبـــد بهـا معجبًـا إذ لا يخـاف الـدوائرا

والمرأة وإن كانت عفيفة ولم تكن ممن يخشى عليها مثل هذا، وكان السامع لوصفها كذلك، فقد يبقى في نفسه شيء من أمرها يحمله على تربص الدوائر بها وانتظار ما يمكنه التوصل إليها على الوجه المشروع من موت زوجها أو تطليقه لها فيثب عليها ويتزوّجها بخطبة زوجها. فليحذر كل الحذر من هذا، والله ﷻ الموفق.

الباب التاسع

في الزينة والتطيب وما يستحب للمرأة من ملازمة ذلك وأنه من أعظم الأسباب الموجبة لحظوتها عند زوجها

النساء لعب الرجال كما قالت عائشة -رضي الله عنها- فليزين الرجل لعبته ما استطاع، فإن ذلك أدعى لشهوته وأملأ لعينه وأظهر لمحاسن المرأة وأدوم للألفة والمودة. (قال) أبو الفرج في كتاب النساء ما معناه: إن المرأة تحظى عند زوجها بعد تمام خلقها وكمال حسنها بأن تكون مواظبة على الزينة والنظافة عاملة بما يزيد في حسنها من أنواع الحلي واختلاف الملابس ووجوه التزين وبما يوافق الرجل ويستحسنه منها في ذلك كله، ولتحذر كل الحذر أن يقع بصر الرجل على شيء يكرهه من وسخ أو رائحة مستكرهة أو تغير مستنكر من شعث أو غيره.

(وقال) أبو الريحان في فصل من كتابه المسمى بالجماهر ما معناه أيضًا: إنه يجب على المرأة أن تتجمل لبعلها وتزيد في تحسين نفسها ما أمكن، وذلك بتنظيف البشرة وتنقية المنافذ والحجرة وتزيين الألوان في البدن وفيما ما أحاط به (أما) في البدن فبتبييض البشرة بالغمر[1] وتوريدها. وخاصة إذا كان فيها صفرة أصلية أو عارضة وبتسويك الأسنان وتخليلها وتنقية العين وتكحيلها وتقليم الأظفار وتسويتها (وأما) فيما أحاط بالبدن فالثياب أول ذلك وأولاه لماستها إياه، فواجب أن تنظفها وتصقلها لئلا يسرع تعلق الأدران بها، وليكن ذلك على اللون العام المحمود وهو البياض أو تلونها بحسب الوقت وعادة أهل الزمان (وقال) التيفاشي في قادمة الجناح: أجمع علماء الفرس وحكماء الهند العارفون بأحوال الباء على أن إثارة الشهوة واستكمال المتعة لا يكون إلا بالموافقة التامة من المرأة وتصنعها لبعلها في وقت نشاطه بما تتم به شهوته وتكمل متعته من التودد والتملق والإقبال عليه والمثول بين يديه في الهيآت العجيبة والزينة المستظرفة التي تحرك ذوى الانكسار والفتور وتزيد ذوى النشاط نشاطًا، قال: فالمرأة الفطنة الحسنة التبعل تراعى جميع هذه الأحوال وما سواها مما يتم به متعة الزوج، وتتفقد من أحوال ظاهرها وباطنها وشاهدها وغائبها ما تأمن معه أن يسبق إلى طرف بعلها أو أنفه حالة يذمها منها أو يكرهها من أجلها، وترى مع ذلك أن نظرها إنما هو لنفسها، وأن الحظ في تصنعها عائد عليها خشية أن يتبين لبعلها التقصير منها فتطمح

---

(١) الغُمْر: الزعفران.

نفسه إلى غيرها. قال: وأعظم محافظة الفطنة على أحوال خلوتها وأكثر احتفالها واستعدادها للأوقات التي يعتاد فيها قربه منها، وهي في غالب الأوقات التي ذكر الله تعالى في كتابه، ونهى المماليك والولدان عن الدخول عليهم فيها إلا بعد الاستئذان، قال الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ﴾[النور:٥٨]، انتهى ما ذكره التيفاشي.

(وقد) ذكر الله الزينة في القرآن، فقال تعالى ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾[النور:٣١]، قالت أم شبيب: سألت عائشة رضي الله عنها عن الزينة؟ فقالت: هي الكحل والخضاب. (وروى) معاوية بن يحيى: أن امرأة دخلت على عائشة رضي الله عنها فسألها رسول الله ﷺ عنها؟ فقالت: هي فلانة زوجة فلان، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أكره أن تكون المرأة مرهاء ملداء». مرهاء: ليس في عينها كحل، ملداء: ليس في أطرافها حناء. وورد الحض على التكحل بالإثمد في غير ما حديث وقال فيه رسول الله ﷺ «إنه خير أكحالكم يجلو البصر وينبت الشعر»[1] (وقال) عبد الله بن جعفر -رحمه الله- لابنته حين إهدائها على زوجها: عليك بالزينة وأعلمي أن أزين الزينة الكحل، وأطيب الطيب الماء. وقال أيضًا أبو الأسود لابنته حين أهداها إلى الحجاج مثله، وقال مثله أسماء بن خارجة لابنته حين أهداها إلى الحجاج، فاتفقوا جميعًا على توصيتهن بالزينة، وأكدوا منها في الكحل. وكذلك أيضًا حض النساء على الخضاب وكره النبي ﷺ أن تكون المرأة يدها كيد الرجل، فروى الأوزاعي عن معاوية بن سلمة: أن رسول الله ﷺ رأى امرأة لا تختضب وقد جاوزت السبعين، فقال: «لا تدع إحداكن يدها كأنها يد رجل» قال: فما زالت تختضب وقد جاوزت السبعين حتى ماتت. (وخرج) أبو داود عن صفية بنت عصمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: أومأت امرأة من وراء ستر بيدها كتاب إلى النبي ﷺ فقبض ﷺ يده، فقال: «ما أدرى أيد رجل أم يد امرأة» فقالت: بل امرأة، فقال: «لو كنت امرأة لغيرت أظفارك بالحناء»[2] صفية بنت عصمة مجهولة لا تعرف. (البزار) عن ليث ابن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه أن امرأة أتت النبي ﷺ تبايعه ولم تكن مختضبة، فلم يبايعها حتى اختضبت. ليث بن أبي سليم راويه ضعيف والمرأة هي هند بنت عتبة، جاء ذلك مبينًا

---

(١) ابن ماجه في: الطب: حديث (٣٤٩٧)، وأحمد في «مسنده» (١/٢٧٤).

(٢) أبو داود في: الترجل: حديث (٤١٦٦)، والنسائي في: الزينة: جـ٨، ص(١٤٢)، وأحمد في «مسنده» (٦/٢٦٢).

في حديث آخر. (عبد الملك بن حبيب) قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ ينهى عن التطاريف والنقش ويأمر بالخضاب. قال عبد الملك: وليس العمل على ذلك فقد جاءت الرخصة فيه، وقد دخل النبي ﷺ على امرأة من الأنصار وهي تختضب فقال: «**هلا صنعت يا أم فلان كذا، ووصف بأصبع يده اليمنى على كفه اليسرى كأنه يريد النقش**» (قال) بعضهم: رأيت قينة خضبت يدها بالحمرة، ونقشت فيه بالسواد شعرًا:

ليس حسن الخضاب زين كفي ... حسن كفي مزين للخضاب

(النسائي) عن كريمة بنت همام: أن امرأة أتت عائشة رضي الله عنها فسألتها عن خضاب الحناء؟ فقالت: لا بأس به، ولكني أكرهه لأن رسول الله ﷺ كان يكره ريحه[1]. وليس هذا الحديث بمناقض لما تقدم من الأمر بالخضاب فإن كراهة النبي ﷺ لريحه ليس أمرًا شرعيًّا وإنما هو طبعي، والطباع تختلف، وإنما الناس متعبدون باتباعه ﷺ في الأمور الشرعية. (ويلحق) بما ذكرناه من الكحل والخضاب السواك، وهو جامع بين النظافة والزينة، وقد ورد الحض على ذلك في الأحاديث النبوية، وتكلم الأطباء على منافعه، فذكروا أنه يجلو الأسنان ويقويها إذا كان باعتدال ويشد الغمور ويمنع الحفر ويطيب النكهة، ويطلق حبسة اللسان (ويروى) عن عائشة رضي الله عنها: أنها ذكرت السواك، فقالت: يجلو البصر، ويذهب بالحفر، ويرضي الرب، وتفرح به الملائكة، وتضاعف به الحسنات، يعنى في الصلاة فقد جاء في الحديث «**صلاة بسواك خير من ألف صلاة بلا سواك**»[2] (قال) أبو الفرج في كتاب النساء: لم يكن في عهد النبي ﷺ أكثر استعمالاً للسواك من نسائه ﷺ. قالوا: وفي فم الإنسان خصلتان من خصال السنة كلتاهما مصلحة له، السواك والمضمضة، وليس في الأرض دواء أبلغ في صحة الأسنان وبقائها من المضمضة، فإن الماء مصاص وغسال وجلاء وطهور وجاء في الحديث: «**استاكوا عرضًا**»[3] تحرزًا مما يعرض للثة من التقلع إذا استيك طولاً، وينبغي أن يستاك بخشب فيه قبض ومرارة. وسواك الأراك من أحسن ما يستاك به لمن قصد نقاء الأسنان خاصة، ومن قصد مع ذلك صبغ اللثة أو الشفة فقشر أصول الجزر (ويتبع) السواك التخلل وهو أيضًا ضروري للأسنان فإنه إن لم يخرج ما في تضاعيفها تغيرت رائحته وحدث فساد في أصولها، فينبغي أن يخرج ذلك من غير الحاج، ونهى عن

---

(١) [صحيح] النسائي في: الزينة: جـ (٨)، ص(١٤٢).

(٢) [ضعيف] أورده العجلوني في «كشف الخفاء» (٣٣/٢).

(٣) [ضعيف] ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٦٥/١).

التخلل بالقصب وبالريحان وبالحلفاء، فأما الحلفاء والقصب فقيل فإن فيهما سمية تضر بالأسنان، وأما الريحان فلا أعلم علة النهى عنه (ولأبى الجوائز الواسطى) في مسواك، قال البازحرى في دمية القصر أنشدنيه لنفسه، وهو من أحسن ما سمعته في ذلك:

هنيـاء علـى رغمـى لعـود أراكـة ... تسوك به الذلفاء[1] مبسمها[2] العذبا

لـئن شـعبت منـه لقـدرار ثغرهـا ... أراكـا بسيـسا فـانثنى صندلاً رطبا

(واهدي) أبو الفتح كشاجم لبعض القيان سواكًا، وكتب إليها:

قـد بعثنـاه لكـي تجلـي بـه ... واضـحًا كـاللؤلؤ الرطـب أغـر

طـاب منـه العـرف حتـى خلتـه ... كـان مـن ريقـك يـسقى في الـسحر

قـسما بـالله لـو يعلـم مـا ... حظـه منـك لأثنـى وشـكر

ليتنـى المهـدي فـيروى عطـشى ... بـرد أنيابـك في وقـت الـسحر

(وأما التطيب) فالشرع والطبع متفقان على استحسانه، وقد قال رسول الله ﷺ: «**حبب إلى من دنياكم ثلاث، فذكر منها: النساء والطيب**»[3] (وفي حديث آخر) «**أربع من سنن الإسلام: الحناء، والتعطر، والسواك، والنكاح**»[4] (وخرج) أبو داود من حديثه عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان له سكة يتطيب منها،[5] وفي بعض الأحاديث «**خير نسائكم العطرة المطرة**» قال الخطابي في غريب الحديث: العطرة: التي تكثر استعمال الطيب، والمطرة: التي تكثر الاغتسال بالماء.

(قال) القاضي عياض -رحمه الله- في الإكمال: التطيب مندوب إليه في الشرع لمن قصد به مقاصد الشرع من تعظيم أيام الجمع والأعياد مثلاً، وأن يدفع عن نفسه ما يكره من الروائح الخبيثة، وأن يدخل على المؤمنين بشم ذلك راحة، وأن يستعمل ما يوافق الملائكة،

---

(١) الذلفاء: صغيرة الأنف.

(٢) مبسمها: ثغرها.

(٣) [صحيح] النسائي في: عشرة النساء: جـ(٧) ص(٦١)، وأحمد في «مسنده» (١٢٨/٣).

(٤) [حسن] الترمذي في: النكاح: حديث (١٠٨٠)، وأحمد في «مسنده» (٤٢١/٥).

(٥) أبو داود في: الترجل: حديث (٤١٦٢).

فقد ورد أنهم يتأذون بالرائحة الكريهة[1]، وأن يظهر نظافته ومروءته بين إخوانه وأهله، وأن يقوى دماغه وقلبه لتأثير الطيب في تقوية هذه الأعضاء، وأن يستعين بذلك على ما يحتاج إليه من أمور النساء فله في ذلك من التأثير ما لا ينكر. (وقال) أبو ياسر البغدادي في رسالته المعروفة برسالة الطيب وذكر منافع الطيب على اختلاف أنواعه فقال: وبالجملة، فالطيب كله من أعظم لذات البشر وأقواها لدواعي الوطء وقضاء الوطر، قال: وكذلك قال مسيلمة عند اجتماعه بسجاح: استكثروا لها من الطيب، فإن المرأة إذا شمت الطيب ذكرت الباه. وقولهم في المثل: لاعطر بعد عروس. يضرب لتأخير الشيء عن وقت الحاجة. (قال) بعضهم: وأصل المثل أن رجلاً تزوّج امرأة فوجدها شعثة تفلة[2] فقال لها: أين عطرك؟ فقالت: خبأته لوقت غير هذا، فقال: لا عطر بعد عروس، وقيل في المثل غير هذا. (وأما) التحلي بالذهب والفضة وأنواع الجواهر، فبعضهم يستحسنه من المرأة وبعضهم يفضل العاطل على المتحلية (قال) ابن الجهم: اشتريت جارية، فكنت إذا أردت أن أحليها تأبى ذلك. وتقول: إنه يغطي المحاسن كما يستر القبائح (وحكي) ابن الجوزى عنه في الأذكياء أنه قال: قلت لهذه الجارية: كم بيننا وبين الصبح؟ قالت: عناق مشتاق، قال: ونظرت يومًا إلى الشمس كاسفة فقالت: احتشمت من محاسني فانتقبت، قال: وقلت لها ليلة تعالى نجلس في هذا القمر، فقالت: ما أولعك بالجمع بين الضرائر (أبو الفرج) في كتاب النساء: كست سكينة بنت الحسين ابنة لها درًّا كثيرًا، وقالت: ما كسوتها إياه إلا لتفضحه بمحاسنها. انتهى ما ذكره أبو الفرج. أخذ ذلك مالك بن أسماء فقال:

وإذا الــدر زان حـــسن وجـــوه ... كـــان للـدر حـــسن وجهــك زينــا

وتزيـــدين أطيـــب الطيـــب طيبـــاً ... أن تمـــسيه أيـــن مثلـــك أينـــا

(وفي قصيدة ابن مطير)

مخـصرة الأوسـاط زانـت عقودهـا ... بأحـــسن ممـــا زينتهـــا عقودهـــا

(وقال) يزيد بن معاوية في أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر:

إنهـــا بـــين عـــامر بـــن لـــؤى ... حـــين تـــدعى وبـــين عبـد منـــاف

---

(١) مسلم في: المساجد: حديث (٥٦٤/٧٢٧٤)، والنسائي في: المساجد: جـ (٢)، ص(٤٣)، وابن ماجه في: الأطعمة: حديث (٣٣٦٥).

(٢) تفلة: هي التي تترك الطيب حتى تتغير رائحتها.

ولهــا في المطيــبين حــدود ... ثــم نالــت ذوائــب الأحــلاف
لا تراهــا علــى التعطيــل والبــذ ... لــة إلاكــدرة الأصــداف

(وكان) يزيد قد بلغه عن أم كلثوم هذه حسن فائق وجمال رائق، فوقعت في قلبه، فكتب إلى أبيها يخطبها إليه، وكان قد قل ما بيده وكثرت ديونه فزوجها به، وكان قبل ذلك منعه ورده وهداها إليه إلى دمشق، فلما رآها ازداد بها إعجابًا ولها حبًا (أنشد الحضري في الزهر لبعضهم):

تعطلــن إلا مــن محاســن أوجــه ... فهــن حــوال في الـصفات عواطـل
بــرزن عفافًــا واحــتجبن تــسترًا ... وشـيب بقـول الحـق مـنهن باطـل
فذو الحلم مرتاد وذو الجهـل طـامع ... وهــنّ عــن الفحــشاء حيـد نواكـل

(وقال) العزيل بن الفرج فيما يتطرف طرفًا من هذا المعنى:

لعــب النعــيم بهــن في أظلالــه ... حتــى لبـسن ثيــاب عــيش غافــل
يأخــذن زينــتهن أحــسن مــا تــرى ... فــإذا عطلــن فهــن غــير عواطــل

(ومن أبيات الحماسة)

إذا ابتــذلت لم يزرهــا تــرك زينــة ... وفيها إذا ازدانت لدى نيقـة حـسب

النيقة: التنوق، وهو التحسين والتزين (قال) عبد الملك بن حبيب: كان رسول الله ﷺ يأمر النساء أن يجعلن في أيديهم وأرجلهن شيئًا، وكان يكره العطل (حصين بن عبد الرحمن) عن أبى عطية قال: أتانا كتاب عمر بن الخطاب أن حلوا نساءكم الفضة ولا تحلوهن الذهب، وعلموهن سورة النور. وذلك من عمر ﷺ كراهة للارفاه والصرف وإلا فلا فرق بين تحلى الذهب والفضة. وقد تقدم الكلام على هذا الأثر (ومن باب الزينة) لباس المصبغات بالحمرة والصفرة، وكانت العرب تستعمل ذلك للعروس عند إهدائها، وعنهم أخذها الناس، وللازمتهم استعمال ذلك صارت ثياب العروس عندهم علمًا على الثياب المصبغة، وقالوا في قول الأسدى:

ألبــست أثــواب العــروس سـراتهم ... مــن بعــد مــا لبــسوا ثيــاب الآيــب

قالوا: أراد أنه ألبسهم الدماء بعد أن كان لبسهم الدروع، وهي ثياب الذي آب من الخطيئة إلى التوبة، يعني داود عليه السلام (عبد الملك بن حبيب) عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: أدركت نساء من أزواج النبي ﷺ وما جل لباسهن إلا العضب والمعصفر. العضب: نوع من الوشي. وقال بشار:

فخـــذي ملابـــس زينـــة ومـــصبغات هـــن أفخـــر

وإذا خرجـــت تقنعـــي بـــالحمر إن الحـــسن أحمـــر

(ولنلحق) بذكر الزينة ذكر النورة، يقال: إن الجن أول من اتخذوها لبلقيس (ذكر أصحاب القصص أن سليمان عليه السلام لما راسلها وكان ما قصه الله تعالى من قصتها وأتت إليه، قالت الجن: إن رآها سليمان عليه السلام واستحسنها وتزوجها فأولدها غلامًا لن نبرح من العبودية آخر الدهر، وكانت بلقيس شعراء الساقين فبنوا صرحًا ممردًا من قوارير -أي زجاج- وصوروا فيه حيوان البحر، وجلس سليمان في أقصاه على كرسي واستدعى بلقيس لتراه وتتعجب منه. وإنما أراد الجن بذلك ليظهر لسليمان شعر ساقيها فتنبو عينه عنها، فلما رأته بلقيس حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، كما قال الله تعالى لتخوضه، فرآها سليمان فأعجبه حسنها واستقبح شعرها، فعزم على بعض الجن أن يعرفه بما يذهب ذلك، فاخترع النورة فأطلت بها وتزوجها سليمان ﷺ بعد أن أسلمت معه، وهذه أخبار أهل القصص. (ويقال): إن اللذات أربع: فلذة ساعة وهي الجماع، ولذة يوم وهو الحمام، ولذة جمعة وهي النورة، ولذة حول وهي تزوج البكر (وقالوا): ألذ الجماع بالمرأة في يوم انتيارها والرجل بعد ثلاث من استحداده. (وحكي) المبرد -رحمه الله- في الكامل عن يزيد بن المهلب قال: وددت لو كانت طلية نورة بمائة ألف، ولو كان فرج المرأة في جبهة الأسد حتى لا يطلى إلا كريم ولا يصل إلى الفرج إلا شجاع (أبو داود) في كتاب المراسيل من رواية اللؤلؤى والرملي عنه عن الفضيل بن الحسين الجحدرى عن عبد الواحد عن صالح بن صالح عن أبي معشر: أن رجلاً نور رسول الله ﷺ فلما بلغ العانة كف الرجل، فنور رسول الله ﷺ نفسه. كذا جاء في هذا الحديث، وجاء في حديث آخر: أن رسول الله ﷺ لم يتنور هو ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان. خرجه أبو داود أيضًا (قال) ابن السيد في الاقتضاب: يقال من النورة انتار الرجل انتيارًا أو انتور انتوارا. قال: وكان أبو العباس ثعلب ينكر تنور، قال: ويقول إنما يقال ذلك لمن نظر إلى النار. قال: ويرد عليه ما أنشده أبو تمام في الحماسة لعبيد بن قرظ الأسدى وكان دخل إلى الحضر مع صاحبين له، فأحب صاحباه دخول الحمام فنهاهما عن ذلك فأبيا إلا دخوله، ورأيا رجلاً يتنور فمالا عنه فأخبرا بخبر النورة،

فاستعملاها ولم يحسنا فأحرقتهما، فقال عبيد:

لعمري لقد حذرت قرطا وجاره ... ولا ينفع التحذير من ليس يحذر

نهيتهما عن نورة أحرقتهما ... وحمام سوء ماؤه يتسعر

أجدكما لم تعلما أن جارنا ... أبا الحسل بالصحراء لا يتنور

فما منهما إلا أتاني موقعا ... به أثر من مسها يتقشر

ولم يعلما حمامنا في بلادنا ... إذا جعل الحرباء بالجدل يخطر

أبو الحسل: كنية الضب (قال) ابن السيد: يقال استحد الرجل واستعان إذا حلق عانته، والأول من لفظ الحديد والثاني من لفظ العانة، قال: ويسمى شعر العانة الطؤطؤة والشعرة بكسر الشين وسكون العين (وفي) الحديث: أن رجلاً اشتكى شدة الغلمة، فأمر بتوفير شعرته فاربأن. الغلمة: شهوة النكاح، واربأن: أي سكنت غلمته. انتهى ما ذكره ابن السيد (محارب بن دثار) عن جابر: أن رسول الله ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً، وقال: «لتمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة» قد تقدم آنفا معنى الاستحداد، وكان النساء يستعملن الحديد في إزالة ذلك منهن، ولذلك قالت الزباء في خبرها المشهور وقد وفرت عانتها: أما إن ذلك ليس من عدم الموسى. والمغيبة: التي غاب عنها زوجها، وقد بين رسول الله ﷺ في هذا الحديث العلة التي نهى عن الطروق من أجلها وهو الاتيان ليلاً للمسافر (وفي) حديث آخر: نهى أن يطرق الرجل أهله أن يتخونهم أو يلتمس عوراتهم[1]. فهذا من باب آخر نهوا عن طروق النساء سترا عليهن؛ لئلا يطلع منهن على ريبة. وأنشد الحضري في كتاب نور الطرف لابن الرومي:

أصبحت الدنيا تسر من نظر ... بمنظر فيه جلاء للبصر

أثنت على الله بآلاء المطر ... واها لها مصطنعاً لقد شكر

والأرض في روض كابراد الحبر ... تبرجت بعد حياء وخفر

تبرج الأنثى تصدت للذكر

---

(١) مسلم في: الإمارة: حديث (١٨٤١٨٥/١٩٢٨)، وأحمد في «مسنده» (١/١٧٥).

الباب العاشر

في زينة الرجل وما يستحب له من التهيؤ لزوجته كما يجب أن تتهيأ له والنهي عن إكراه المرأة الحسناء على تزوج الرجل القبيح والحدثة على تزوج المسن

(مكحول) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان نفر[1] من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه، فخرج يريدهم فجعل يسوى شعر رأسه ولحيته، قالت: فقلت يا رسول الله، وأنت تفعل هذا. قال: نعم! إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال»[2] (أبو الفرج) في كتاب النساء في حديث رفعه قال: قال رسول الله ﷺ: «يتهيأ الرجل لزوجته كما يحب أن تتهيأ له» (ومن) الكتاب المذكور قال: أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بزوج لها أشعث أغبر، فقالت: يا أمير المؤمنين لا أنا ولا هذا خلصني منه فنظر عمر فعرف ما كرهت منه، فأشار إلى رجل، فقال: اذهب به فحممه وقلم أظفاره وخذ من شعره وائتني به، فذهب ففعل ذلك ثم أتاه فأومأ إليه عمر أن خذ بيدها فأخذ بيدها وهي لا تعرفه. قالت: يا عبد الله سبحان الله، أبين يدي أمير المؤمنين تفعل هذا؟ فلما عرفته ذهبت معه فقال عمر رضي الله عنه: هكذا فاصنعوا لهن، فوالله إنهن ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم (وقال) بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[البقرة: ٢٢٨]، قال: يتزين الرجل للمرأة كما يحب أن تتزين له. ويروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه (الجوزى) في كتابه المؤلف في أخبار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قال عمر رضي الله عنه: لا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح، فإنهن يحببن ما تحبون. (أبو الفرج) في كتاب النساء قال: سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأة في الطواف تقول:

فمنهن من تسقى بعذب مبرد	نقاح فتلكم عند ذلك قرت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن	أجاج فلولا خشية الله فرت

ففهم عمر رضي الله عنه شكواها، واستدعى زوجها فرأى رجلاً قبيحًا، فخيره بين خمسمائة درهم أو جارية من الفيء على أن يطلقها فاختار خمسمائة درهم، فأعطاه إياها فطلقها.

---

(١) نفر: العدد من ثلاثة إلى عشرة.

(٢) ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٦٩).

(ابن عبد المؤمن) في شرح المقامات قال: بينا معن بن زائدة يومًا جالسًا إذ أتته امرأة من بني سهم من أحسن الناس وجهًا، فقالت: أصلح الله الأمير، إن عمى زوجني من ليس لى بكفء، فقال: على بزوجها، فأدخل عليه رجل من أقبح الناس، فقال: ما هذه منك؟ فقال: امرأتي، فقال: خل سبيلها، ففعل الرجل ذلك، فأطرق معن ساعة، ثم قال:

أتيت بها مثل المهاة تسوقها فيا حسن مجلوب ويا شر جالب

لعمري لقد أصبحت غير محبب إليها ففارقها فراق الأجانب

(وأنشد) المبرد في الكامل لبعضهم. قال صاعد في كتاب الفصوص: وجدت هذين البيتين بخط إسحق بن إبراهيم الموصلي، وهما لبعض العرب:

ألا يا عباد الله قلبي متيم بأحسن من صلى وأقبحهم بعلا

يدب على أحشائها كل ليلة دبيب القرنبى بات يعلو نقى سهلاً

(وأنشد غيره)

ألا رب حوراء المحاجر طفلة تساق إلى وغد من القوم تنبال

يقولون جرتها إليه قرابة فويح العذارى من بني العم والخال

الوغد: الرجل الدنيء. والتنبال: القصير

(وأنشد أبو على في الأغاني):

أيا عمرو كم من مهرة عربية من الناس قد بليت بوغد يقودها

يسوس وما يدرى لها من سياسة يريد بها أشياء ليست تريدها

أراد بليت بسكون اللام تخفيفًا، وبعضهم يرويه بلت بتشديد اللام، من قولك: بل فلان بكذا، أي صلى به. (الجوزى في الأذكياء) قال: دخل عمران بن حطان على امرأته حمدة وقد تزينت وكانت امرأة جميلة وكان قصيرًا قبيحًا، فلما نظر إليها ازدادت في عينه حسنًا فلم يستطع أن يصرف بصره عنها، فقالت: مالك؟ قال: أصبحت والله جميلة، فقالت: أبشر، فإني وإياك في الجنة، قال: من أين علمت هذا؟ قال: أعطيت مثلى فشكرت، وأعطيت مثلك فصبرت والشاكر والصابر في الجنة، فخجل ونهاها أن تعود لمثل

ما قالت: (الأبي في نثر الدرر) قال بعضهم: خرجت إلى ناحية الطفاوة فإذا أنا بامرأة لم أر أجمل منها، فقلت: أيتها المرأة إن كان لك زوج فبارك الله له فيك وإلا فأعلميني، قال: فقالت وما تريد منى وفي شيء لا أراك ترتضيه؟ قلت: وما هو؟ قالت: شيب في رأسي، قال: فثنيت عنان دابتي موليا عنها، فاسترجعتنى وقالت: والله ما بلغت العشرين بعد، وهذا رأسي فكشفت عنه فإذا عناقيد كالحمم، ولكنني رأيت في رأسك مثل ذلك فأحببت أن تعلم أنا نكره منكم ما تكرهون منا. (الخطابي) في غريب الحديث قال: قال عمر: لا ينكح أحدكم إلا لمته من النساء. لمته: مخففًا، من كان في سنه، كأنه كره للمسن أن يتزوّج الشابة، وللشاب أن يتزوج المسنة. (عبد الله بن يزيد) عن أبيه قال: خطب أبو بكر وعمر ﷺ فاطمة -عليها السلام- بنت رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ «إنها صغيرة» وخطبها على ﷺ فزوجها منه. خرجه النسائي وترجم عليه في باب تزوج المرأة من كان مثلها في السن. (قال) بعضهم: كان سن فاطمة عليها السلام إذ ذاك خمس عشرة سنة، وسن على ﷺ إحدى وعشرين سنة وأربعة أشهر. وكان بين على وبين أبى بكر في السن ثمان عشرة سنة، وبين على وعمر ثمان سنين. (المراعينى في بعض تأليفه) قال: خطب الحارث الأسدى إلى علقمة الطائي ابنته وكان الحارث شيخًا، فقال علقمة لامرأته: انظري ما تقول ابنتك في ذلك، فقالت لها: أي بنية أي الرجال أحب إليك الكهل الحجحاج الواصل المياح، أم الفتى الوضاح الذهول الطماح؟ فقالت: بل الفتى، فقالت: إن الفتى يغيرك وإن الشيخ يغيرك. فقالت لها: يا أماه إن الفتاة تحب الفتى كما يحب الرعاء أنيق الكلأ. فقالت لها: يا بنية إن الشاب شديد الحجاب كثير العتاب، قالت لها: يا أماه إني أخشى من الشيخ أن يدنس ثيابي ويبلى شبابي ويشمت بى أترابي، فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها فتزوجها الحرث ثم ارتحل بها إلى أهله، وإنه لجالس ذات يوم بفناء بيته وهى معه إذ أقبل شباب من بني أسد يتلاعبون، فتنفست الصعداء ثم بكت، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: مالي وللشيوخ الناهضين كالفروخ، فقال: ثكلتك أمك لرب غارة شهدتها وسبية أردفتها وسبئة شربتها، ألحقي بأهلك فلا حاجة لى بك.

الحجحاج: السيد، والمياح: الكثير الصلة والمعروف، والطماح: المعجب بنفسه، ويغيرك: الأولى: بضم الياء من الغيرة بكسر الغين أي يتزوج عليك من تغارين منه، ويغيرك الثانية: بفتح الياء من الغيرة بكسر الغين وهى المبرة والنفع. يقال: غار الرجل أهله يغيرهم، أي مارهم ونفعهم، والسبية: غير مهموز المرأة المسبية، والسبئة: بالهمز الخمر .

(أبو الفرج) في كتاب النساء قال: زوج معاوية بنته هندًا من عبد الله بن عامر، فجاءته يومًا بالمرآة والمشط وكانت أبر الناس به، فنظر في المرآة إلى وجهه ووجهها فرأى شبابًا وجمالاً ورأى الشيب قد غمر وجهه وألحقه بالشيوخ، فرفع رأسه إليها، وقال: ألحقي بأهلك، فانطلقت حتى دخلت على أبيها معاوية فأخبرته، فقال: وهل تطلق الحرة؟! فقالت: إن ذلك ليس بيدي، فأرسل إليه معاوية يستفهمه عن سبب طلاقها، فقال: سأخبرك إن الله تعالى من علي بفضله وجعلني كريمًا، فلا أحب أن يكون لأحد علي منة. وإن ابنتك أعجزتني مكافأتها بحسن صحبتها، فنظرت فإذا أنا شيخ وهي شابة ولا أزيدها مالاً إلى مالها ولا شرفًا إلى شرفها، فرأيت أن أردها إليك لتزوجها فتى من فتيانك كأن وجهه ورقة مصحف. انتهى ما ذكره أبو الفرج.

وكان عبد الله بن عامر هذا هو أبو عذرها، وقد قدمنا خبر ابتنائه بها في باب قبل هذا.

(قال) الغزالي في الإحياء: تزوج رجل على عهد عمر بن الخطاب ﷺ وكان قد خضب لحيته فنصل خضابه فاستعدى عليه أهل المرأة عمر ﷺ وقالوا: حسبناه شابًا، فأوجعه عمر ﷺ ضربًا وقال له: غررت القوم.

الباب الحادي عشر

في معاشرة النساء وموافقتهن وحقوق المرأة على الرجال وماله من الحق عليها وذكر وصايا من وصايا الحكماء لبناتهم عند إهدائهن

(قال) الله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ١٩]، وقال ﷻ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٢٨]، فأخبر الله تعالى أن الرجال لما كان لهم على النساء حق -وهو ما سبق في الآية- كان لهن عليهم حق وهو إجمال الصحبة، وبين ذلك بقوله ﷻ في الآية الأخرى ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[البقرة: ٢٢٩]، والدرجة التي جعل الله تعالى للرجال على النساء هي ما يلزم المرأة للرجل من وجوب الطاعة والخدمة وعدم التصرف في مالها إلا بإذنه، وتقديم طاعته على طاعة الله في النوافل فلا تصوم إلا بإذنه، وما جعله الله تعالى له من تأديبها، وأشباه هذه الأحكام (وجاء) في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[1] (الترمذي) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم**» وقال الترمذي فيه: حسن صحيح[2] (البخاري) عن أبي حازم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا**»[3] (وفي) بعض روايات هذا الحديث لمسلم: «**إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت وفيها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها**»[4] نبه ﷺ على أنه ينبغي الرفق بهن ومداراتهن، وأن لا ينغص عليهن في أخلاقهن وانحراف طبائعهن فإن ذلك يؤدي إلى مفارقتهن (ونظم الشاعر هذا المعنى، فقال):

---

(١) [صحيح] الترمذي في: المناقب: حديث (٣٨٩٥)، وابن ماجه في: النكاح: حديث (١٩٧٧).

(٢) [صحيح] الترمذي في: الرضاع: حديث (١١٦٢)، وأبو داود في: السنة: حديث (٤٦٨٢)، والدارمي في: الرقاق: حديث (٢٧٩٢)، وأحمد في «مسنده» (٢/٢٥٠).

(٣) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٨٦). ومسلم في: الرضاع: حديث (٦٢/١٤٦٨).

(٤) مسلم في: الرضاع: حديث (٦١/١٤٦٨).

هي الضلع العوجاء لست تقيمها ألا إن تقويم الضلوع انكسارها

أيجمعن ضعفًا واقتدارًا على الفتى أليس عجيبًا ضعفها واقتدارها

ويروى أن أباذر الغفاري أنشد هذين البيتين على المنبر (وقال) ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «أوصيكم بالنساء خيرًا فإنهن عوان عندكم، ولا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنما اتخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، لكم عليهن حق ولهن عليكم حق، فحقهن كسوتهن ورزقهن بالمعروف، وحقكم أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، ولا يأذن في بيوتكم إلا بإذنكم وعلمكم، فإن فعلن ذلك فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربًا غير مبرح، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد» خرج الترمذي أكثر ألفاظه من حديث عمرو بن الأحوض وقال فيه: حسن صحيح[1] (قوله) فإنهن عوان عندكم: أي أسيرات والعاني: الأسير. (وقوله) واستحللتم فروجهن بكلمة الله: يريد -والله أعلم- ما اشترطه الله تعالى لهن من قوله ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[البقرة:٢٢٩]، أو يريد قوله ﷻ ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[النساء:٣]، وقال بعضهم: المراد بذلك كلمة التوحيد؛ إذ لا يحل لمن كان غير مسلم أن يتزوج مسلمة (وقوله) وحقكم أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه: يريد بذلك الخلوة والحديث مع الرجال، ولم يرد الزنا فإنه يوجب الحد، وأيضًا فلا فائدة في تقييده بمن يكره، وكانت عادة العرب أن يتحدث الرجال مع النساء غاب أزواجهن أو حضروا ولم يكن عندهن في ذلك عيب ولا ريبة، فلما نزلت آية الحجاب نهوا عن ذلك. (وقوله) فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع: أي لا تحولوهن إلى بيت آخر ولا تتحولوا أنتم عنهن، ولكن تهجروهن في مضاجعهن. قيل: هو أن ينام معها في المضجع، ولكن يوليها ظهره ولا يكلمها ولا يجامعها وقيل: هو أن يترك مضجعها وينام في مضجع غيره، ولكن في بيتها. وغير مبرح: بكسر الراء، أي غير شديد، والبرح الشدة والمشقة، وهو معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر «لا يجلد أحدكم امرأته جلد البعير، ثم يجامعها في آخر اليوم» خرجه البخاري[2]. (أبو داود) عن خالد بن زيد عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من اللهو ثلاث: تأديب الرجل فرسه، ورميه بقوسه

---

(١) [صحيح] الترمذي في: الرضاع: حديث (١١٦٣)، وأبو داود في: المناسك: حديث (١٩٠٥)، وابن ماجه في: النكاح: حديث (١٨٥١)، وأحمد في «مسنده» (٥/٧٣).

(٢) البخاري في: النكاح: حديث (٥٢٠٤)، ومسلم في: الجنة: حديث (٤٩/٢٨٥٥).

ونبله، وملاعبة أهله».[1] وفي بعض روايات هذا الحديث من غير كتاب أبي داود: «كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا تأديبه فرسه، ورميه بقوسه ونبله، وملاعبته أهله»[2] (وكانت) عائشة رضي الله عنها تقول: إنما المرأة لعبة الرجل، فليحسن الرجل إلى لعبته. وروى ذلك مرفوعًا[3]. (قال) صعصعة بن صوحان يومًا لمعاوية: كيف ننسبك إلى العقل وقد غلبك نصف إنسان؟! يريد امرأته فأخته بنت قرظة، فقال: إنهن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام.

(وقال) الغزالي -رحمه الله- في الإحياء وذكر حقوق المرأة على الرجل وحقوقه عليها فقال: أما المرأة فلها على زوجها أن يعاشرها بالمعروف وأن يحسن خلقه معها، قال: وليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها والحلم على طيشها وغضبها اقتداء برسول الله ﷺ فقد كان أزواجه يراجعنه في الكلام وتهجره إحداهن إلى الليل. وراجعت امرأة عمر ﷺ الكلام، فقال: أتراجعيني يالكعاء، فقالت: إن أزواج النبي ﷺ يراجعنه وهو خير منك، فقال ﷺ: خابت حفصة وخسرت إن راجعته ﷺ، ثم قال لحفصة: لا تغتري بابنة أبي قحافة فإنها حب رسول الله ﷺ[4]. ودفعت إحداهن في صدر رسول الله ﷺ فزجرتها أمها، فقال: «دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك». وجرى بينه ﷺ وبين عائشة كلام حتى أدخل أبو بكر حكمًا بينه ﷺ وبينها، فقال لها رسول الله ﷺ: «تكلمي أو أتكلم»، فقالت: تكلم أنت ولا تقل إلا حقًا، فلطمها أبو بكر حتى أدمى فاها، وقال: أو يقول غير الحق يا عدوّة نفسها، فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره، فقال له النبي ﷺ: «إنا لم ندعك لهذا أو لم نرد منك هذا». (وقالت) مرة وقد غضبت: أنت الذي تزعم أنك نبي، فتبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلمًا وكرمًا. وكان ﷺ يقول لها: «إني لأعرف إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى، قالت: وكيف تعرف ذلك؟ قال: إذا رضيت قلت لا وإله محمد، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم، قالت: أجل يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك[5]». قال: ويقال إن أول حب وقع في الإسلام

---

(١) [ضعيف] أبو داود في: الجهاد: حديث (٢٥١٣)، وأحمد في «مسنده» (١٤٨/٤).

(٢) أحمد في «مسنده» (١٤٨/٤).

(٣) [موضوع] ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٠٦/٣)، والفتني في «تذكرة الموضوعات» (١٧٩)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢٢٦/٢).

(٤) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٩١)، والترمذي في: تفسير القرآن: حديث (٣٣١٨)، وأحمد في مسنده (٣٣/١).

(٥) البخاري في: النكاح: حديث (٥٢٢٨)، ومسلم في: فضائل الصحابة: حديث (٢٤٣٩/٨٠).

حب النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها وكان يقول لها: «**كنت لك كأبي زرع لأم زرع**»(١).
قال أنس: كان النبي ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان(٢).

(قال) الغزالي: وأعلى من ذلك أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح والملاعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن ويتنزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق، حتى يروى أنه كان يسابق عائشة ﷺ في العدو فسبقته يومًا وسبقها يومًا، وقال: «**هذه بتلك**»(٣). (وفي) الخبر أنه ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه(٤). وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت أصوات أناس من الحبشة ومن غيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء، فقال: لي رسول الله ﷺ: «**أتحبين أن ترى لعبهم**» قالت: قلت نعم يا رسول الله، فأرسل إليهم فجاؤا، وقام رسول الله ﷺ بين البابين ووضع كفه على الباب ووضعت ذقني على ذراعه وجعلوا يلعبون وأنا أنظر، فقال رسول الله ﷺ: «**حسبك**» فقلت: اسكت مرتين أو ثلاثًا، ثم قال لي: «**يا عائشة، حسبك الآن**» فقلت: نعم، فانصرفوا(٥). وقال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله**»(٦). (وقال) عمر ﷺ مع خشونته: ينبغي للرجل في أهله أن يكون مثل الصبي، فإذا التمس ما عنده وجد رجلاً. (وفي) تفسير الخبر المروى «إن الله يبغض الجعضرى الجواظ» قيل: هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه، وهو أحد ما قيل في قوله تعالى ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾[القلم: ١٣] قيل: العتل الفظ اللسان، الغليظ القلب على أهله. (قال) الغزالي رحمه الله: وينبغي مع هذا أن لا ينبسط في المداعبة والموافقة ولين الخلق إلى حد يسقط هيبته ويفسد خلقها، بل يراعى الاعتدال في ذلك كله، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى ما يكره، ولا يفتح باب المساعدة على ذلك البتة بل مهما رأى شيئًا من ذلك تنمر وامتعظ (قال) الحسن: ما أطاع رجل امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار (وقال) ﷺ: «**تعس عبد الزوجة**» وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها وقد تعس، فإن الله سبحانه قد ملكه المرأة فملكها هو نفسه، فقد عكس الأمر وقلب القضية أو طاع الشيطان لما قال: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ

(١) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٨٩)، ومسلم في: فضائل الصحابة: حديث (٩٢/٢٤٤٨).
(٢) [صحيح] أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (٦٥).
(٣) [صحيح] أبو داود في: الجهاد: حديث (٢٥٧٨)، وابن ماجه في: النكاح: حديث (١٩٧٩).
(٤) [ضعيف] البيهقي في «دلائل النبوة» (٣٣١/١).
(٥) البخاري في: الصلاة: حديث (٤٥٤)، ومسلم في: العيدين: حديث (٨٩٢/١٧١٩).
(٦) سبق تخريجه.

خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[النساء:١١٩]، إذ حق الرجل أن يكون متبوعًا لا تابعًا، وقد سمى الله تعالى الرجال قوامين على النساء وسمى الزوج سيدًا، فقال: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾[يوسف:٢٥]، فإذا انقلب السيد فقد بدّل نعمة الله كفرًا، ونفس المرأة على مثال نفسك إن أرسلت عنانها قليلاً جمحت بك طويلاً، وإن أرخيت ذمامها شبرًا جذبتك ذراعًا وأن كبحتها وشددت يدك عليها ملكتها. (وقال) الشافعي ﷺ: ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك، فعد منهم المرأة. أراد: إن محضت لهم الإكرام، ولم تمزجه بغلظة وفظاظة في بعض الأوقات. وكان نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الأزواج، فكانت المرأة تقول لابنتها: ابدئي زوجك قبل الإقدام عليه فانزعي زج رمحه،[1] فإن سكت فقطعي اللحم على ترسه، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه، فإن صبر فاجعلي الإكاف على ظهره وامتطيه، فإنما هو حمارك. وعلى الجملة، فبالعدل قامت السموات والأرض، وكل ما جاوز حده انعكس إلى ضده، فينبغي أن يسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة، ويتبع الحق في جميع ذلك، ويجرب أوّلاً أخلاقها، ثم يعاملها بما يصلحها على ما يقتضيه حالها. (قال): وأما حق الزوج عليها فالقول الشافي فيه أن النكاح نوع رق وهي رقيقة له، فعليها طاعته مطلقًا في كل ما يطلب منها في نفسها مما لا معصية فيه، كذا قال الغزالي. ولا يصح هذا الإطلاق، فإن العزل لا معصية فيه وخصوصًا على مذهبه، نص على ذلك في الإحياء، ومع ذلك فلا يلزمها طاعته فيه اتفاقًا. (قال): وقد ورد في تعظيم حق الزوج على المرأة أحاديث كثيرة، قال: رسول الله ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»[2] (وخرج) رجل في زمن النبي ﷺ في سفر وأوصى امرأته أن لا تنزل من علوها وكان أبوها في السفل مريضًا، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تستأذنه في النزول إلى أبيها، فقال: «أطيعي زوجك»، فمات أبوها فأرسلت تستأذنه ﷺ في الحضور لدفنه، فقال: «أطيعي زوجك» فدفن أبوها، فأرسل إليها رسول الله ﷺ يعرفها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها[3] (وقال) ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وحفظت فرجها وأطاعت زوجها، دخلت الجنة»[4] (قال): وعلى الجملة فحقوق الرجل على المرأة كثيرة، وأصولها: أن تصون نفسها، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه وإن خرجت بإذنه فبخفية في هيئة رثة بطلب المواضع الخالية متحرزة أن يسمع صوتها أو

---

(١) زج رمحه: حديدة في أسفل الرمح.

(٢) [ضعيف] الترمذي في: الرضاع: حديث (١١٦١)، وابن ماجه في: النكاح: حديث (١٨٥٤).

(٣) مجمع الزوائد (٤/٣١٣).

(٤) [صحيح] ابن حبان في «صحيحه» (٦/١٨٤).

يعرف عينها، وأن تكون قانعة منه بما استيسر غير مكلفة له ما وراء الحاجة، متحفظة على ما له غير مخرجة شيئًا منه إلا بإذنه قائمة بكل خدمة تقدر عليها من خدمة منزله. مقدمة حقه على حق نفسها وسائر أقاربها متنظفة في نفسها، مستعدة لأن يستمتع بها إن شاء، قصيرة اللسان عن مراجعته، غير متكبرة عليه بمال أو جمال ولا مزدرية لقبحه إن كان كذلك، ملازمة للانقباض في حال غيبته ومنبسطة في حال حضوره، وإذا مات عنها فمن حقه أن تحد عليه أربعة أشهر وعشرًا تتجنب فيها الطيب والزينة، وأن تلزم مسكنها إلى أن يبلغ الكتاب أجله، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة. (قال): ولعظيم حقه قال رسول الله ﷺ: **«اطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء»** قال: ولم يا رسول الله؟ قال: **«يكثرن اللعن، ويكفرن العشير»**[1] والعشير: هو الزوج انتهى كلام الغزالي. (أبو داود) عن قيس بن سعيد قال: أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان[2] لهم، فقلت: لرسول الله ﷺ أحق أن يسجد له، وأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: **«أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟»** قلت: لا، قال: **«فلا تفعلوا، لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من حق»**[3]. وخرجه الترمذي مختصرًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»** وقال فيه: حسن صحيح[4]. (البخاري) عن نافع عن ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الإمام راع وهو مسئول، والرجل راع على أهله وهو مسئول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة»**[5]. (وله) عن الأعرج عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، وما أنفقت من نفقة فإنه يؤدى إليه شطره»**[6]. وقال مسلم: **«وما أنفقت من كسبه من غير أمره فإن نصف أجره له»**[7] (وعن)

---

(١) البخاري في: بدء الخلق: حديث (٣٢٤١)، ومسلم في: الذكر والدعاء: حديث (٩٤/٢٧٣٧).

(٢) المرزبان: الرئيس من الفرس.

(٣) أبو داود في: النكاح: حديث (٢١٤٠)، والحاكم في «مستدركه» (١٨٧/٢).

(٤) [حسن] الترمذي في: الرضاع: حديث (١١٥٩).

(٥) البخاري في: الاستقراض: حديث (٢٤٠٩)، وأبو داود في: الخراج: حديث (٢٩٢٨)، والترمذي في: الجهاد: حديث (١٧٠٥). وأحمد في «مسنده» (٥/٣).

(٦) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٩٢)، ومسلم في: الزكاة: حديث (٨٤/١٠٢٦)، وأبو داود في: الصوم: حديث (٢٤٥٨). والترمذي في: الصوم: حديث (٧٨٢).

(٧) مسلم في: الزكاة: حديث (٨٤/١٠٢٦).

أبى حازم عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دعا الرجل المرأة إلى فراشة فأبت أن تجيء لعنتها الملائكة حتى تصبح»**[1]. وفي رواية: **«فأبت أن تجيء فبات غضبان عليها»**. (الخطابي) في غريب الحديث قال: **«لعن رسول الله ﷺ الغائصة والمغوصة»**. قال: الغائصة بالغين المعجمة والصاد مهملة الحائض لا يعلم زوجها أنها حائض، والمغوصة: بكسر الواو التي لا تكون حائضًا فتكذب زوجها وتقول إنها حائض. (أبو داود) عن حكيم بن معاوية القشيرى عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: **«أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا أكسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»**[2]. لا تقبح: أي لا تقول قبحك الله، ولا تهجر إلا في البيت: أي لا تحولها إلى بيت آخر، ولا تتحول عنها إلى بيت آخر وقد تقدم بيان ذلك، والقصد من ذلك الرفق بهن فإن الهجر لهن مع البعد عنهن شديد الإيلام لقلوبهن، وقد جاء في الصحيح: **«أن رسول الله ﷺ هجر أزواجه في غير بيوتهن»** فينظر ذلك مع هذا الحديث، وقد نبه البخاري على هذا وترجم به (النسائي) عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا ينظر الله إلى المرأة لا تشكر لزوجها وهى لا تستغني عنه»**[3]. (النسائي) عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة الودود الولود العود على زوجها التي إذا آذت أو أوذيت جاءت حتى تأخذ بيد زوجها، ثم تقول: والله لا أذوق غمضًا حتى ترضى»**[4]. (أبو الفرج) في كتاب النساء قال: أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لى امرأة إذا أتيت مهمومًا قامت إلى فأخذت بطرف ردائى ومسحت على وجهي، وقالت: إن كان همك للدنيا فصرفه الله عنك، وإن كان همك للآخرة فزادك الله همًا، فقال رسول الله ﷺ: **«أن لها أجر الشهداء ورزقهم»**. (ومما هو داخل في هذا الباب) ما حكاه الزبير في الموفقيات عن إبراهيم بن المنذر عن محمد بن معن قال: أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه إليك وهو يقوم بطاعة الله ﷻ فقال لها: جزاك الله خيرًا من مثنية على زوجها، فجعلت تكرر عليه القول، وهو يكرر عليها الجواب، وكان كعب بن سؤر الأسدى حاضرًا، فقال له: اقض يا أمير المؤمنين بينها وبين زوجها، فقال: وهل فيما ذكرت قضاء؟ فقال:

---

(١) مسلم في: النكاح: حديث (١٢٢/١٤٣٦)، وأبو داود في: النكاح: حديث (٢١٤١).

(٢) أبو داود في: النكاح: حديث (٢١٤٢).

(٣) ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٩٤/٧)، والحاكم في «مستدركه» (١٩٠/٢).

(٤) ورواه الطبراني في «الكبير» (١٤٠/١٩).

إنها تشكو مباعدة زوجها لها عن فراشها، وتطلب حقها في ذلك، فقال: له عمر أما إن فهمت ذلك فاقض بينهما، فقال كعب: على بزوجها، فأحضر، فقال: إن امرأتك هذه تشكوك، قال: أقصرت في شيء من نفقتها؟ قال: لا، فقالت المرأة شعرًا:

يـا أيهـا القاضـي الحكـيم رشـده ألهـى خليلـى عـن فراشـي مـسجده
نهـــاره وليلـــه مـــا يرقـــده فلـست في أمـر النـساء أحمـده
زهـــده في مـــضجعي تعبـــده فـاقض القـضا يـا كعـب لا تـردده

قال: فقال زوجها:

زهـــدني في فرشـــها وفي الحلـــل أنـى امـرؤ أذهلـني مـا قـد نـزل
في سـورة النحـل وفي الـسبع الطـول وفي كتـــاب الله تخويـــف جلـــل

فقال كعب:

إن خـــير القاضـــيين مـــن عـــدل ومـن قـضى بـالحق جهـرًا وفـصل
إن لهـــا عليـــك حقًـــا يـــا رجـــل تـــصيبها في أربـــع لمـــن عقـــل
قـــضية مـــن ربنـــا عـــز وجـــل فأعطهـــا ذاك ودع عنـــك العلـــل

ثم قال: إن الله ﷻ قد أباح لك من النساء أربعا فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيها ربك ولها يوم وليلة، فقال عمر: والله ما أدرى من أي أمريك أعجب، أمن فهمك أمرهما، أم من حكمك بينهما، اذهب فقد وليتك قضاء البصرة. وذكر الرشاطى هذا الحديث في كتابه المسمى باقتباس الأنوار، وزاد بعد قوله يوم وليلة: فلا تصل في ليلتها إلا الفريضة، وأخبر أن كعب بن سؤر شهد يوم الجمل، فلما اصطفت الناس للقتال أخذ مصحفا في يده، وخرج يناشد الناس في دمائهم فقتل على تلك الحالة، (الغزالي في الإحياء) قال: زوّج أسماء بن خارجة الفزارى ابنته، فلما أراد هداءها قال لها: إنك خرجت من العش الذي فيه درجت، وصرت إلى فراش لا تعرفينه، وقرين لا تألفينه، فكوني له أرضًا يكن لك سماء، وكوني له مهادًا يكن لك عمادًا، وكوني له أمة يكن لك عبدًا، ولا تلحفي به فيقلاك، ولا تتباعدي عنه فينساك، إن دنا فاقربي منه، وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشم منك إلا طيبًا، ولا يسمع منك إلا حسنًا، ولا ينظر إلا جميلاً. (أبو الريحان في كتاب

الجماهر) قال: زوّج عامر بن الضرب العدواني ابنته من ابن أخيه، وقال لأمها: مري ابنتك أن لا تنزل فلاة إلا ومعها ماء، فإنه للأعلى جلاء وللأسفل نقاء، وأن لا تمنعيه شهوته فإن الحظوة في الموافقة، وأن لا تطيلي مضاجعته فإن البدن إذا مل مل القلب. (وذكر) أبو الريحان من هذا الباب قول أخرى لابنتها: كوني له فراشًا يكن لك معاشًا، وكوني له وطاء يكن لك غطاء، وإياك والاكتئاب إذا كان فرحًا، والفرح إذا كان كئيبا، ولا يطلعن منك على قبيح، ولا يشمن منك إلا أطيب ريح، ولا تفشى له سرًا لئلا تسقطي من عينه، وعليك بالماء والدهن والكحل، فإنها أطيب الطيب. (قال): وقال أحدهم لابنته ليلة الهداء: كوني لزوجك أمة يكن لك عبدًا، وعليك باللطف فإنه أبلغ من السحر، وبالماء فإنه رأس الطيب (الزبير في الموفقيات) قال: زوّج قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ابنته من لقيط بن زرارة بن عدس على مائة من الإبل ليس فيها ناب ولا مصرمة ولا مدابرة، قال: ثم دخل على ابنته فقال: أي بنية! إن زوجتك غلاما عزيز النفس، فلا تدنى منه كل الدنو فيملك، ولا تبعدي عنه كل البعد فينساك، واغلبي أحماءك بالخير ولا تغلبيهم بالشر، وكوني له أمة يكن لك عبدًا، وتتبعي من الطيب مواقع أنفه، واعلمي أن أطيب طيب النساء الماء، ثم خرج، وقال: جهزوها إلى زوجها، فلما هديت إليه قالت: مروا بى على أبى أسلم عليه فمروا بها فسلمت عليه وانصرفت، فقال لها: أي بنية، اذهبي فلا أيسرت ولا أذكرت، فقالت: أي أبت أهنتني صغيرة وغربتني كبيرة وزودتني عند الفراق أسوأ الزاد، فقال: إنك لتأتين البعداء وتلدين الأعداء وتذهبين بالتلاد وتحلين في غير الصديق، ثم ذهبت عنه. انتهى ما ذكره الزبير. الناب: الناقة المسنة. والمصرمة: التي أصاب ضرعها داء، فكوى بالنار لأجل ذلك. والمدابرة: المشقوقة الأذن من القفا، فإن شقت من قبل الوجه فهي مقابلة. واسم هذه المرأة التي تزوج بها لقيط القدور، وقد تقدم بعض خبره معها في باب قبل هذا. (التيفاشى في قادمة الجناح) قال: كانت أسامة بنت الحارث الثعلبية عند عوف بن محلم بن زهل بن شيبان فولدت له أم إياس بنت عوف، فتزوجها الحارث بن عمرو الكندي، فلما أرادت أمها هداءها إليه قالت لها: أي بنية! إن الوصية لو كانت تترك لفضل أدب أو مكرمة حسب لتركت ذلك معك، ولكنها تذكرة للعاقل ومنبهة للغافل، أي بنية! لو استغنت أبنة عن زوج لغنى أبويها لكنت أغنى الناس عنه، ولكنا خلقنا للرجال كما خلق الرجال لنا، أي بنية! إنك فارقت الوكر الذي منه خرجت والعش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، أصبح بملكه إياك ملكًا عليك، فكوني له أمة يكن لك عبدًا، واحفظى له خلالاً عشرًا :

(أما الأولى والثانية) فالصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، فإن في

القناعة راحة القلب، وفي المعاشرة بحسن السمع والطاعة رضا الرب .

(وأما الثالثة والرابعة) فالتعهد لموقع عينه والتفقد لموقع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح، واعلمي أن الكحل أحسن الحسن الموجود، وأن الماء أطيب الطيب المفقود .

(وأما الخامسة والسادسة) فالتعهد لوقت طعامه والهدوّ عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيض النوم مغضبة .

(وأما السابعة والثامنة) فالاحتفاظ ببيته وماله والرعاية لحشمه ولعياله، فإن أصل حفظ المال من حسن التقدير، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير .

(وأما التاسعة والعاشرة) فلا تفشين له سرًا ولا تعصين له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره. وإن عصيت أمره أوغرت صدره، **واتقى مع ذلك الفرح إذا كان ترحًا** والاكتئاب إذا كان فرحًا، **فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير، وأشد ما** تكونين له إعظامًا أشد ما يكون لك إكرامًا، **وأكثر ما تكونين له موافقة أحسن ما يكون لك** مرافقة. **واعلمي أنك لا تقدرين على ذلك حتى تؤثرين هواه على هواك ورضاه على رضاك فيما أحببت أو كرهت، ثم ودعتها وصرفتها.**

وسيأتي تزوج الحارث بن عمرو لها في باب بعد هذا. (الجاحظ في البيان) عن أبى عمرو بن العلاء قال: **أنكح ضرار بن عمرو ابنته من معبد بن زرارة، فلما أخرجها إليه قال:** يا ابنتى! **أمسكي عليك الفضلين، قالت: يا أبه! وما الفضلان؟ قال: فضل العلم، وفضل** الكلام.

الباب الثاني عشر

في السراري

السراري: جمع سرية، وهي الأمة المتخذة للوطء، واشترط الفقهاء في صدق هذه التسمية حصول للوطء ولو مرة، وتظهر فائدة الاشتراط فيمن جعل بيد زوجته عتق السرية التي يتخذها عليها فإن لم يطأها لم يكن لها عتقها، وهي منسوبة إلى السر وهو النكاح، وإنما ضمت سينها جريًا على المعتاد في التغيير للنسب، كما قالوا في النسبة إلى الدهر دهري وإلى السهل سهلي، فكان الأصمعي يقول: إنها مشتقة من السرور، يقال: تسررت سرية وتسريت بالياء فالأولى على الأصل والثانية على الإبدال، كما قالوا تطيبت (أبو داود) عن كثير بن عبيد عن بقية بن المبارك عن الزبير بن سعيد الهاشمي عن أشياخه رفعه قال: «عليكم بأمهات الأولاد، فإنهن مباركات الأرحام» ذكره أبو داود في المراسيل، وفي رواية: «عليكم بالسراري»[1]. (عبد الملك بن حبيب) قال: بلغني أن رجلاً شكا إلى سعيد بن المسيب ﷺ قلة الولد، فقال: عليك بالسراري (جعفر بن محمد) قال: كان لسليمان بن داود ﷺ سبعمائة سرية غير الزوجات، فقيل له: يا ابن رسول الله، كيف كان يقدر على جمعهن؟ قال: جعل الله فيه قوّة بضع وأربعين رجلاً. وسيأتي الكلام على هذا الأثر بعد هذا. (الربيع) بسنده إلى سفيان قال: كان عند على ﷺ تسع عشرة وليدة. (أبو العباس في الكامل) قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: ليس قوم أكيس من أولاد السراري، لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم يريد إذا كن من العجم. (أبو الفرج في كتاب النساء) قال: قال عبد الملك بن مروان: من أراد الباءة فعليه بالبربريات، ومن أراد الخدمة فعليه بالروميات، ومن أراد النجابة فعليه بالفارسيات، قال: وقالوا بنات العجم والغرائب أنجب، وما ضرب رؤوس الأقران كابن عجمية أنجب: يريد أكثر إنجابًا، كما قالوا: ما أولاه للمعروف. والغرائب: البعداء الذين لا قرابة بينك وبينهم. (المبرد في الكامل) قال: قال سلمة بن عبد الملك: إني لأعجب من ثلاثة: رجل قصر شعره ثم عاد فأطاله، ورجل شمر ثوبه ثم عاد فأرسله، ورجل تمتع بالسراري ثم عاد إلى المهيرات. والمهيرات: جمع مهيرة وهى الحرة المهورة فعيلة بمعنى مفعولة، من قولك: مهرتها إذا جعلت لها مهرًا، وقد

---

(١) [موضوع] ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/٢٥٩)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (١٢١١٢٢)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢/٢٠٦).

يقال: أمهرتها بالألف، وهو قليل. (ابن سعيد في كنوز المطالب) قال: قال موسى الكاظم: عليك بالقيان، فإن لهن فطنًا وعقولاً ليست لكثير من النساء. القيان: جميع قينة. قال صاحب الصحاح: وهي الأمة مغنية كانت أو غير مغنية. قال: وبعض الناس يظن القينة المغنية خاصة، وليس الأمر كذلك. انتهى ما ذكره صاحب الصحاح. واعلم أن الكاظم إنما أراد بالقيان الإماء المغنيات بالاصطلاح العرفي، والذي ذكره صاحب الصحاح هو المدلول اللغوي. (أبو الفرج في كتاب النساء) قال: كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله على أفريقية: أما بعد. فإن أمير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به موسى بن نصير إلى عبد الملك -رحمه الله- أراد مثله منك. وعندك من الجواري البربريات الماليات للأعين الآخذات للقلوب ما هو معوز لنا بالشام وما والاه، فتلطف في الانتقاء، وتوخ أنيق الجمال وعظم الأكفال وسعة الصدور ولين الأجساد ورقة الأنامل وسبوطة العصب وجدالة الأسوق وجثول الفروع ونجالة الأعين وسهولة الخدود وصغر الأفواه وحسن الثغور وشطاط الأجسام واعتدال القوام ورخامة الكلام. ومع ذلك فاقصد رشدة المولد وطهارة المنشأ فإنهن يتخذن أمهات أولاد، والسلام. (أبو الفرج في الكتاب المذكور وابن الكردبوس في الاكتفاء) دخل حديث بعضهما في بعض قالا: كانت عند أبي العباس السفاح أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله المخزومي، وكان قد أحبها حبًا شديدًا ووقعت في قلبه موقعًا لطيفًا، فحلف لها أن لا يتخذ عليها سرية ولا يتزوّج عليها امرأة فوفي لها بذلك، فخلا به خالد بن صفوان يومًا، فقال له: يا أمير المؤمنين فكرت في أمرك وسعة ملكك، وأنك قد ملكت نفسك امرأة واقتصرت عليها، فإن مرضت مرضت، وإن حاضت حضت، وحرمت نفسك التلذذ بالسرارى واستظراف الجواري ومعرفة اختلاف حالاتهن وأجناس التمتع بما يشتهى منهن، فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء والبضة البيضاء والعتيقة الأدماء والذهبية السمراء والبربرية العجزاء والمولدات المدنيات اللواتي يفتن بمجاورتهن ويخلبن بحلاوتهن، ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمراء واللعساء من مولدات البصرة والكوفة ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والأوساط المختصرة والثدي والنواهد المحققة وحسن زيهن وشكلهن لرأيت فتنا ومنظرًا حسنًا، وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر فيما عندهن من الحياء والتخفر والدلال والتعطر، وأقبل خالد يجيد في الوصف ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظة وجودة كلامه، فلما فرغ قال له أبو العباس: ويحك يا خالد، والله ما سلك مسامعي قط كلام أحسن مما سمعته منك فأعده على فأعاده عليه وزاد فيه، ثم انصرف خالد، وبقى أبو العباس متفكرًا مغمومًا، فدخلت عليه أم سلمة وكانت تبره برًا كثيرًا وتتقمن مسرته وموافقته في جميع ما أراده،

فقالت له: مالي أراك مغمومًا يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر ارتعت له؟ قال: لم يكن شيء من ذلك، قالت: فما قصتك؟ فجعل يكتم عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد قالت: فما قلت لابن الفاعلة، قال: سبحان الله، أينصحني وتشتمينه! فخرجت من عنده وأرسلت إلى خالد عبيدًا لها وأمرتهم بضربه والتنكيل به. قال خالد: وكنت انصرفت إلى منزلي مسرورًا بما رأيت من إصغاء أمير المؤمنين إلى كلامي وإعجابه بما ألقيت إليه. وأنا لا أشك في الصلة فلم ألبث أن جاء أولئك العبيد، فلما رأيتهم أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة، فوقفوا على وسألوا عنى فعرفتهم بنفسي، فأهوى إلى أحدهم بعمود كان في يده، فبادرت إلى الدار وأغلقت الباب ومكثت أيامًا لا أخرج من منزلي، وطلبني أمير المؤمنين طلبًا شديدًا، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا على، فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأيقنت بالموت، وقلت: لم أر دم شيخ أضيع من دمى، وركبت فلم أصل إلى الدار حتى استقبلني عدة رسل، فدخلت إلى أمير المؤمنين فوجدته جالسًا، فأومأ إلى بالجلوس فثاب إلى عقلي فجلست، وفي المجلس باب عليه ستور قد أرخيت وخلفه حركة، فقال لى: يا خالد لم أرك منذ ثلاث، قلت: كنت عليلاً يا أمير المؤمنين، قال: إنك وصفت لى آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق سمعي قط كلام أحسن منه فأعده على، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضرة من الضرر وأن أحدًا لم يكن عنده امرأتان إلا كان في ضرر وتنغيص، قال: ويحك لم يكن هذا في حديثك، قلت: نعم يا أمير المؤمنين. وأخبرتك أن الثلاثة من النساء كأثافي القدر تغلي عليها أبدًا، وأن الأربع شر مجموع لصاحبه يهرمنه ويسقمنه ويضعفنه. وأن أبكار الإماء رجال ولكن لا خصي لهن، قال: فقال: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت منك من هذا شيئًا قط. قال خالد: بلى والله يا أمير المؤمنين، وعرفتك أن بني مخزوم ريحانة قريش وأن عندك ريحانة الرياحين، وأنت تطمح بعينيك إلى الإماء والسرارى، قال: فقال: ويحك أتكذبني وتكذبني؟ قلت: أفتقتلنى يا أمير المؤمنين؟ قال: فسمعت ضحكًا من وراء الستر وقائلاً يقول: صدقت والله يا عماه بهذا حدثته، ولكنه بدل وغير ونطق على لسانك بما لم تنطق به. قال خالد: فقمت عنهما وتركتهما يتراوضان في أمرهما، فما شعرت إلا برسل أم سلمة ومعهم المال وتحف وثياب، فقالوا لى: تقول لك أم سلمة إذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا. (قال ابن الكردبوس): هي أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي، قال: وكانت قبله عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان فهلك عنها. وغيره يقول: إنها كانت عند سلمة بن هشام بن عبد الملك، قال:

فبينما هي يومًا جالسة على قبره إذ مر بها السفاح وكان وسيما جميلاً، فسألت عنه فنسب لها. فأرسلت إليه مولاتها تعرض له بخطبتها، وأرسلت إليه معها بمال، وكان لأم سلمة مال عظيم وجوهر كثير فاعتذر أبو العباس لمولاتها بفقره، فدفعت إليه المال الذي وجهت به إليه فقبله، وتوجه إلى أخيها فخطبها إليه فزوجه إياها وابتنى بها من ليلته، ولما دخل عليها وجدها على منصة فصعد إليها فإذا كل عضو منها قد كال بالجوهر، فحاول مواقعتها على تلك الحال فلم تكن به نهضة، فأزالت الجوهر وغيرت لباسها ودنا منها فلم يستطع على شيء فآنسته، وقالت: لا يضرك هذا، فلم يزل هذا شأن الرجال، ولم يزل طول ليلته يعالجها إلى أن واقعها، وقد حظيت عنده، فغلبت عليه لما صار الأمر له. (قال) غير ابن الكردبوس: ولم توف له بعد موته، فإنها تزوّجت بعده عمه إسماعيل بن على سرًا فكان يأتيها مستخفيًا. وبلغ خبرها أبا جعفر المنصور فغضب غضبًا شديدًا، وقال: وفي لها في حياته ولم توف له بعد مماته، وأرسل إلى إسماعيل يحلف له بطلاق أم موسى لئن لم تطلقها لأضربن عنقك فطلقها، وأخذ منها أبو جعفر جميع ما صار إليها من أبى العباس من حلى وغيره، وقال: لو وفيت له لوفينا لك. قالوا: ولم يكن أحد أحسن خلقًا من أبى العباس إذا خلا مع أهله. (قال) بعض مواليه: لعهدي به ليلة وأنا صغير وهو على سريره مع أم سلمة إذ مر به جاريتان صغيرتان لم أر مثلهما قط قد اختمرتا كما تختمر الجواري الحرائر فاستدعى بهما، وقال لهما: إماء أم حرائر؟ فقالتا: بل إماء، قال: فما لكما وللخمار! قالتا: إن ذلك شأننا في بلادنا، وكانت أم سلمة أوصتهما بذلك قصدًا أن لا ينظر إلى محاسنهما، فقال: انزعا خماريكما فتأبيا عليه فرقًا من أم سلمة، فأمر بعض الخصيان فنزعهما، فإذا هما أجمل النساء شعرًا وسهولة خد وتمام قد، وقد نهدت الثدي في صدورهما كأنهما حقاق عاج، قال: فنظر إليهما مليا، ثم قال لغلام من خدمه: اذهب بهما إلى فلان وفلان، وقل لهما يتخذاهما لأنفسهما ويستوصيا بهما خيرًا فإني سائلهما عن حالهما، وكان ذلك إرضاء لأم سلمة. (عبد الملك بن حبيب) في كتاب آداب النساء قال: حدثني مطرف عن مالك بن أنس ﷺ قال: كان القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق وسالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب وعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب ﷺ من أبناء السرارى. (وقال) التيفاشى في قادمة الجناح: قال الأصمعي: كان أهل المدينة يكرهون السرارى، حتى نشأ فيهم هؤلاء الثلاثة، ففاقوا أهل المدينة علمًا وصلاحًا، فرغب الناس في السرارى. (المبرد في الكامل) قال: ويروى عن رجل من قريش لم يسم لنا قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب، فقال لى يومًا: من أخوالك؟ فقلت: إن أمي فتاة، قال: فكأني نقصت من عينه،

فأمهلت حتى أتى عليه سالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ وخرج من عنده، فقلت له: يا أبا عبد الله من هذا؟ فقال: سبحان الله! أتجهل مثل هذا من قومك؟ هذا سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ فقلت: من أمه؟ قال: فتاة، ثم أتى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ﷺ فجلس عنده ثم نهض، فقلت له: من هذا يا أبا عبد الله؟ فقال: ما أعجب أمرك، أتجهل مثل هذا من قومك، هذا القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ﷺ قلت له: فمن أمه؟ قال: فتاة. قال: وأتاه على بن الحسين بن على بن أبى طالب ﷺ فقلت له: يا أبا عبد الله من هذا؟ قال: هذا الذي لا يسع مسلمًا أن يجهله، هذا على بن الحسين بن على بن أبى طالب ﷺ قلت: فمن أمه؟ قال: فتاة، قال: قلت إني رأيتني نقصت من عينك لما علمت أنى لأم ولد فمالى في هؤلاء أسوة، قال: فجللت في عينه جدًا (قال المبرد): وكانت أم على بن الحسين ﷺ سلافه من ولد يزدجر معروفة النسب وكانت خيرة، وكان يقال لعلى بن الحسين ابن الخيرتين؛ لقول رسول الله ﷺ: «لله من عباده خيرتان: فخيرته من العرب قريش، ومن العجم فارس» (قال الحضري في الزهر): قال هشام بن عبد الملك لزيد بن على في كلام خاطبه به: بلغني أنك تريد الخلافة. ولا تصلح لها لأنك ابن أمة. قال زيد: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم –عليهما السلام– ابن أمة وأخوه اسحق ابن حرة، فأخرج الله من صلب إسماعيل خير البشر، وأخرج من صلب اسحق القردة والخنازير، فقال: إذًا لا تراني إلا حيث تكره، وكان من خروجه ما كان (المبرد في الكامل) قال: كتب المنصور إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن على بن أبى طالب ﷺ لما كتب إليه محمد: وأعلم أنى لست من أولاد الطلقاء ولا من أولاد اللعناء، ولا أعرفت في الإماء، ولا حضنتني أمهات الأولاد، ولقد علمت أن هاشماً ولد عليًّا مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين، وأن رسول الله ﷺ ولدني مرتين، فكتب إليه المنصور: أما ما ذكرت من ولادة هاشم عليًّا مرتين وولادة عبد المطلب الحسن مرتين، فخير الأوّلين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولا عبد المطلب إلا مرة واحدة، ولقد علمت أنه بعث رسول الله ﷺ وعمومته أربعة فآمن به اثنان أحدهما أبى وكفر به[1] اثنان أحدهما أبوك، وأما ما ذكرت أنه لم تعرف في الإماء فقد فخرت على بني هاشم طرا أولهم أبو الهيثم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ثم على بن الحسين الذي لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ مثله. انتهى ما ذكره أبو العباس. وكانت أم المنصور التي عرض بها محمد بن عبد الله في

---

(١) في المخطوط « بى »، والمثبت من المحقق.

كتابه إليه مولدة من مولدات البصرة (الجاحظ في البيان) قال: قال الحجاج بن يوسف لعبد الملك بن مروان: لو كان رجل من ذهب لكنته، قال: وكيف ذلك؟ قال: لم تلدني أمة بيني وبين آدم إلا هاجر، فقال له عبد الملك: لولا هاجر لكنت كلبًا من الكلاب (يقال): إن أول سرية ولدت ملكًا في الإسلام شاه فريد بنت فيروز بن يزدجرد، كان الوليد بن عبد الملك تسرى بها فولدت له ابنه يزيد، وهو المعروف بالناقص، سمى بذلك لنقصه أعطية الجند، وقيل: سمى بذلك لطوله وكماله على الضد، وهو القائل:

أنـــا ابـــن عبـــد الملـــك بـــن مـــروان ... وقيـــصر جـــدي وجـــدي خاقـــان

(قال) ابن السيد في الاقتضاب: ومعنى شاه فريد: سيدة البنات، وقال غيره ملكة البنات• قال ابن حزم -رحمه الله- في نقط العروس: ولم يل الخلافة في الصدر الأوّل من أمه أمة حاشا يزيد وإبراهيم ابني الوليد ولا وليها من بني العباس من أمة حرة حاشا السفاح والمهدي والأمين. قال: ولم يلها من بني أبى أمية بالأندلس من أمه حرة أصلاً. انتهى كلام ابن حزم (وقد) أخبر النبي ﷺ أن مثل هذا من أشراط الساعة فقال: في حديث ابن عمر عنه ﷺ حين سأله جبريل عن إمارتها فقال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»[1] (قال) العلماء: معنى قوله «أن تلد الأمة ربتها» أن الإسلام يتسع وتكثر السرارى ويستولدهن الملوك وغيرهم من سائر الناس، فكأن ابنة السرية وهى الأمة ربتها لا ملك لأبيها، وملك الأب في التقدير كأنه ملك للولد، والله ﷻ أعلم (قال) المبرد في الكامل: وأنشدنى الرياشى:

إن أولاد الـــــــــــسرارى ... كثـــــروا يـــــا رب فينـــــا

رب ادخلنـــــــى بـــــــلادا ... لا أرى فيهـــــا هجينـــــا

وقال سليك بن سلكة، وكانت أمه سوداء حبشية:

أشـــاب الـــرأس أنـــى كـــل يـــوم ... أرى لى حالـــة وســـط الرجـــال

يـــشق علـــى أن يلقـــين ضـــيما ... ويعجـــز عـــن تخلـــهن مـــالى

(وقال) عبد الله بن الحر، وكان لأم ولد:

(١) البخاري في: الإيمان: حديث (٥٠)، ومسلم في: الإيمان: حديث (٥/٩-١٠/٧).

فإن تلك أمي من نساء أفاءها ... حداد القنا والمرهفات الصفائح

فتبًا لفضل الحر إن لم أنل به ... كرائم أولاد النساء الصوالح

(أخذه من قول عنترة)

إني امرؤ من خير عبس منصبا ... شطري واحمي سائرى بالمنصل

(البزار) عن سعيد بن الحر عن سلمة بن كلثوم عن عطاء بن يسار عن سلمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من اتخذ من الخدم غير ما ينكح ثم بغين، فعليه مثل آثامهن من غير أن ينقص من آثامهن شيئًا**»[1] (قال) عبد الحق في الأحكام: لا أعلم لعطاء سماعًا من سلمان ولا لقاء، ولا رأيت من ذكر ذلك. انتهى ما ذكره عبد الحق. وسعيد بن الحر الواقع في هذا السند مجهول، وسلمة بن كلثوم لا يعرف حاله (عبد الملك بن حبيب) عن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء عمر ﷺ إلى منزله، فرأى امرأة عليها جلباب فرجع، ثم جاء إلى منزله ثانية ثم رجع، حتى فعل ذلك مرارا، فلما انصرفت قال لأهله: من هذه التي عنتنا منذ اليوم؟ قالوا: هي أمة فلان، فلما راح عمر قال للناس: لا تتشبه الأمة بسيدتها، لا تلبسوهن الجلابيب فإن الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، (قال) ابن حبيب: ولم أر بالمدينة أمة تخرج وإن كانت رابية إلا مكشوفة الرأس لا تلقى جلبابًا على رأسها، قال: ولا بأس أن تصلى الأمة كذلك مكشوفة الرأس والمعصم، ولا بأس أن تبدى ذلك في غير الصلاة والسرارى في هذا وغير السرارى بمنزلة واحدة، وفرق ابن القطان في كتابه المسمى بالنظر في هذا بين الإماء الحسان المصونات المقصورات الحاملات من الجمال أكثر ما تحمله الحرائر وبين الإماء المتبذلات، فمال إلى وجوب التستر على من كانت منهن بالصفة الأولى، وسقوطه عمن كانت بضد ذلك، وحكي عن الحسن البصري ﷺ أنه كان يوجب الخمار على السرية- يعنى الأمة- التي اتخذها الرجل لنفسه، سواء كانت جميلة أو شوهاء، وذكر أنه لا وجه لذلك• وأما أمهات الأولاد، فإن حكمهن حكم الحرائر في لباسهن وصلاتهن، والله ﷻ أعلم.

---

(١) [ضعيف] مجمع الزوائد (٢٩٨/٤).

الباب الثالث عشر

في تفصيل الأسنان وما ورد في ذلك من الاستقباح والاستحسان

(البخاري) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ تزوجها وهى بنت ست سنين، وأدخلت عليه وهى بنت تسع سنين، ومكثت عنده تسعًا[١] (مسلم) عن عائشة رضي الله تعالى عنها بمثل ذلك،[٢] وفي بعض رواياته: تزوجها وهى بنت سبع، وزفت إليه وهى بنت تسع، ومات ﷺ عنها وهى بنت ثمان عشرة[٣] (قال) المازرى في المعلم: رأيت لابن حنبل أنه جعل السبع سنين حدًّا للسن الذي يزوج فيه الأولياء البكر اليتيمة إذا رضيت أخذًا بحديث عائشة هذا، قال: ولا معنى لهذا الأخذ إلا أن يريد ابن حنبل رضي الله عنه أن السن الذي تميز فيه ويعتد برضاها، أو أراد أن هذا السن قد تحيض فيه بعض الجواري (قال) عياض في الإكمال: وهذا الحديث أصل في حد وقت الدخول إذا حصل التشاجر في ذلك، فأوجبت طائفة إجبار بنت تسع على الدخول، وهو قول أحمد وأبى عبيد (وقال) مالك والشافعي -رضي الله تعالى عنهما-: حد ذلك أن تطيق الرجل. قال الشافعي: وتقارب البلوغ (وقال) أبو حنيفة: حد ذلك أن تطيق الرجل وإن لم تبلغ التسع، ولأهلها منع الزوج منها إذا لم تطق ذلك وإن بلغت التسع، وهو نحو قول مالك (قال) عياض: وحكم إلزام الزوج في ضمها والنفقة عليها حكم هذا، فحيث يجبر هو على الدخول يجبر هو على الإنفاق (قال) الداوودى: كانت عائشة -رضي الله تعالى عنها- قد شبت شبابًا حسنًا (الخطابي) في غريب الحديث عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: تزوَجني رسول الله ﷺ وأنا ابنة سبع، وبني بى وأنا ابنة تسع وإني لأرجح بين عذقين إذ جاءتني أمي فأنزلتني حتى انتهت بى إلى الباب وأنا أنهج، فمسحت على وجهي بشيء من ماء، وفرقت حميمة كانت على، ودخلت بى على رسول الله ﷺ (قال) أرجح: ألعب في الأرجوحة وهو حبل يربط به بين شجرتين فيتعلق به، والعذق: بفتح العين النخلة (وقولها) انهج بضم الهمزة وفتح الهاء: تريد أنها قد علاها البهر وقوة النفس (وفي) حديث آخر ذكره الخطابي عنها قالت: تزوجني رسول الله ﷺ وعلى حوف، فما هو إلا أن تزوجني فألقي على الحياء• الحوف: بالحاء المهملة جلد يجعل على هيئة الإزار

---

(١) البخاري في: النكاح: حديث (٥١٣٣).

(٢) مسلم في: النكاح: حديث (٦٩-٧٠/١٤٢٢).

(٣) مسلم في: النكاح: حديث (٧١-٧٢/١٤٢٢).

يلبسه الصبيان. أرادت عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها كانت من الصبا وحداثة السن في حال من يلبس هذا اللباس (أبو الفرج في كتاب النساء) عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: بني بي رسول الله ﷺ وأنا ألعب بالبنات واللعب، وكان لى صواحب يلعبن معي فيتمنعن ويستحيين من رسول الله ﷺ وربما رأيته يخرج فيبعثهن إلى واحدة واحدة• في هذا الحديث جواز اتخاذ البنات، وإباحة لعب الجواري بهن لرؤيته ﷺ ذلك وإقراره عليه، فيكون ذلك تخصيصًا لهن من جملة الصور المنهي عن اتخاذها (قال) عياض -رحمة الله تعالى- في الإكمال: والحكمة في ذلك تدريب الجواري على تربية الأولاد وإصلاح شأنهن قبل حصول الأولاد عندهن، قال: وقد أجاز العلماء بيعهن وشراءهن، وقد كانت لهن سوق يبعن فيها بالمدينة، ورويت عن مالك ﷺ رواية في كراهة شرائهن، قال: وذلك محمول على تنزيه ذوى المروءات عن محاولتهن بالبيع والشراء لا على كراهة اللعب بهن للجواري، وفرقة من العلماء قالوا: إن ذلك منسوخ بالنهى عن الصور، قال: وجمهور العلماء على خلافه (علقمة بن قيس) قال: كنت أمشى مع عبد الله -يعنى ابن مسعود- بمنى، فلقيه عثمان فقام معه يحدثه، فقال له عثمان: يا أبا عبد الرحمن، ألا نزوّجك جارية شابة لعلها تذكرك بعض ما مضي، وفي رواية أخرى: لعلها ترجع إليك ما كنت تعهده. وذكر بقية الحديث (قال) عياض -رحمه الله تعالى-: فيه على دليل أن معظم المطلوب من النكاح الاستمتاع. وهو من الشواب أمكن وفيهن ألذ لما هن عليه من رونق الشباب ونشاط الصغر وطيب الأفواه وإظهار الرغبة في الاستمتاع الذي تتوفر عنه المسان من النساء (أبو الفرج في كتاب النساء) قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: بنت عشر سنين تسمن وتلين، وبنت عشرين تسر الناظرين، وبنت ثلاثين لذة للمعانقين، وبنت أربعين ذات رخاوة ولين، وبنت خمسين ذات بنات وبنين، وبنت ستين عجوز في الغابرين. (الأبي في نثر الدرر) قال: قالت امرأة لأخرى: ما تقولين في ابن عشرين؟ قالت: ريحانة تشمين، قالت: فابن ثلاثين؟ قالت: شديد الطعن متين، قالت: فابن أربعين؟ قالت: أبو بنات وبنين، قالت: فابن خمسين؟ قالت: صاحب سعال وأنين (الزجاج في أماليه) قال: سأل النعمان بن المنذر ضمرة بن ضمرة عن وصف النساء فأنشده:

متى تلق بنت العشر قد نض ثديها ... كلؤلؤة الغواص يهتز جيدها

تجد لذة منها لخفة روحها ... وعزتها والحسن بعد يزيدها

وصاحبة العشرين لا شيء مثلها ... فتلك التي يلهو بها مستفيدها

وبنت الثلاثين الشفاء حديثها . هي العيش ما دقت ولا دق عودها
وإن تلق بنت الأربعين فغبطة وخير نساء ودها وولودها
وصاحبة الخمسين فيها بقية من الباء واللذات صلب عمودها
وصاحبة الستين لا خير عندها وفيها متاع والحريص يريدها

(قال الزجاج) قال الأخفش: لم يقل في ترتيب أسنان النساء مثل هذا الشعر على ضعفه (قال الزجاج): وأنشدني أبو عبد الله اليزيدى عن عمه قال: أنشدني محمد بن عبد الله بن طاهر لنفسه:

مطيات السرور بنات عشر إلى العشرين ثم قف المطايا
فإن جاوزتهن فسر قليلاً وقصر في المسير ولا تعايا
مقاسات النساء مع الليالى إذا أولدتهن من البلايا

(عطاء بن مصعب) قال: كنا بمجلس لنا بالبصرة ومعنا خالد بن صفوان إذ جلس إلينا أعرابي من بني العنبر فتذاكرنا النساء، فقال خالد بن صفوان: خير النساء التي احتنك سنها واستحكم رأيها وخمص بطنها وعظمت عجيزتها وملأت حضن معانقها، فقال الأعرابي: دع عنك الذي استحكم رأيها، وعليك بها حين أكعبت إلى أن أنهدت غرة لا تدرى ما يراد بها، وأنشأ يقول:

عليك أبا صفوان إن كنت ناكحا فتاة أناس ذات اتب وميزر
لها كفل واف وبطن معكن وأخثم مثل القعب غير منوّر

(وفي) معنى قوله غرة لا تدرى ما يراد بها أنشد أبو على في الأمالى قال: أنشدنا أبو عبد الله نفطويه للمجنون، فقال:

وعلقت ليلى وهى غر صغيرة ولم تبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى الآن لم نكبر ولم تكبر البهم

يقال: غر للمذكر والمؤنث بلفظ واحد، وقد يقال للمؤنث غرة، والبهم: صغار الضأن (قال أبو الفرج في الأغاني): بينا أبو مليكة يؤذن بمكة إذ سمع مغنيا يغنى بهذين البيتين،

فأصغى إليه، ولما أراد أن يقول حي على الصلاة قال: حي على البهم، فسمعه أهل مكة فأصبح يعتذر إليهم• ونحو من قول المجنون قول جميل في هذا المعنى:

أمــا تــذكرين ليــالي الحمــى ... وأيــا منــا بلــوى الأعــصر

وأنــت كلؤلــؤة المرزبــان ... وذيــل شــبابك لم يعــصر

واذ لمتــى كجنــاح الغــراب ... تــضمخ بالمــسك والعنــبر

صــغيرين منــشؤنا واحــد ... فمــالي كــبرت ولم تكــبري

(وقال نصيب)

ولــولا أن يقــال صــبا نــصيب ... لقلــت بنفــسي النــشأ الــصغار

بنفــسي كــل مهــضوم حــشاها ... إذا ظلمــت فلــيس لهــا انتــصار

(وأنشد الحضرى في الزهر لبشار)

عجبــت فظمــة مــن نعتــى لهــا ... هــل يجيــد النعــت مكفــوف البــصر

بنــت عــشر وثــلاث قــسمت ... بــين غــصن وكثيــب وقمــر

درة بحريــــة مكنونــــة ... مازهــا التــاجر مــن بــين الــدرر

(قال أبو الفرج في كتاب النساء): وأضفت إلى كلامه هذا زيادات من كلام غيره.

أخلاق النساء في اختلاف أسنانهن على ضروب

(فمنهن الكاعب) وهى الحدثة السن، وهى التي قد كعب ثديها أي ظهر، ومن طباعها الصدق في كل ما تسئل عنه، وقلة الكتمان لما علمته، وقلة الستر والحياء، وعدم المخالفة من الرجال (ومنهن الناهد) وتسمى المفلكة أيضًا، وهى التي نهد ثديها وفلك أي استدار. ولم يتكامل بعد شبابها، فتستتر بعض الاستتار وتظهر بعض محاسنها، وتحب أن يتأمل ذلك منها (ومنهن المعصر) وهى الممتلئة شبابا التي قد استكمل خلقها وعظم ثدياها، فيحدث عندها دلال وأدب، وتحلو ألفاظها، ويعذب كلامها، وتشتد غلمتها. ويقال أيضا فيها معصرة (قال الشاعر):

معــصرة أو قــد دنــا إعــصارها   ينحــل مــن غلمتهــا إزارهــا

(ومنهن العانس) وهى المتوسطة الشباب التي قد تهيأ ثدياها للانكسار فتحسن مشيتها ومنطقها وتبدى محاسنها بغنج ودلال، وأحب الأشياء إليها مفاكهة الرجال ومداعبتهم. وهى في هذه الحالة قوية الشهوة مستحكمتها (ومنهن المسلف) وهى المتناهية الشباب ولا شيء أشهى منها للمباضعة، ويعجبها المطاولة في الإنزال (ومنهن النصف) وهى التي يأخذ ماء وجهها في النقص ولحمها في الاسترخاء وذلك بعد مجاوزة الأربعين، وهى التي قال فيها الشاعر:

وإن أتــوك وقــالوا إنهــا نــصف   فــإن أحــسن نــصفيها الــذي ذهبــا

وتكون ملاطفة الرجال مداربة لهم شديدة الحرص عليهم• وما فوق ذلك فالعجوز التي يجب على العاقل أن يرغب عنها ولا يقرب منها (قال الأصمعي -رحمه الله تعالى-): خاصم رجل امرأته إلى زياد وكانت قد أسنت فاشتد زياد على الرجل، فقال الرجل: أصلح الله الأمير، إن خير نصفى عمر الرجل آخرهما، يذهب جهله ويثور حلمه ويجتمع رأيه، وإن شر نصفى عمر المرأة آخرهما، يسوء عقلها ويمتد لسانها ويعظم رحمها، فحكم له عليها (أبو الفرج في الأغاني) قال: لما أسنت رملة بنت عبد الله بن خلف وكانت ضرة لعائشة بنت طلحة عند عمر بن عبيد الله جعلت تتجنبه في مثل أيام أقرائها تريه أنها في سن من تحيض. فقال الشاعر في ذلك:

جعــل الله كــل قطــرة حــيض   قطــرت منــك في حمــاليق عــيني

(قال الزبير): حملت هند بنت أبى عبيدة بموسى بن عبد الله بن حسن بن على بن أبى طالب ﷺ ولها ستون سنة، قال: ولا تحمل لستين إلا قرشية، ولا تحمل لخمسين إلا عربية (قال الخطابي في غريب الحديث) عن ميمونة بنت كردم قالت:[1] سأل رجل رسول الله ﷺ عن امرأة أراد نكاحها فقال: «**وبقدر أي النساء هي؟**» قال: قد رأت القتير يريد الشيب. قال: «**دعها**». ويروى: بقرن أي النساء هي؟[2] يقال: فلان على قرن فلان: أي على سنه. وخرج الحديث أبو داود عن ميمونة وذكر أن السائل لرسول الله ﷺ هو أبوها وأن رسول الله ﷺ قال له: «**أرى أن تتركها**»[3] (الخطابي أيضًا) قال: قال عمر: لا

---

(١) في المخطوط «قال»، والمثبت من المحقق.

(٢) أحمد في «مسنده» (٦/٣٦٦).

(٣) أبو داود في: النكاح: حديث (٢١٠٣).

ينكحن أحدكم إلا لمته من النساء» لمته: مخففة من كان في سنه، كأنه كره للشاب أن يتزوّج المسنة وللمسن أن يتزوّج الشابة، وقد قدمنا الكلام في هذا الأثر في باب قبل هذا (وكيع في مصنفه) عن معروف بن واصل عن محارب بن دثار قال: قال رسول الله ﷺ: **«انكحوا، وإياكم والعجز والعقر»** وهو مرسل (أبو الفرج في كتاب النساء) قال: خطب رسول الله ﷺ ضباعة بنت عاقر إلى أبيها سلمة بن هشام، وقد كان ذكر له عنها جمال، فقال: حتى استأمرها، قالت: أو في رسول الله ﷺ تستأمرني، ارجع زوّجه، وذكر النبي ﷺ أنها قد كبرت، فرجع إليه سلمة فعرضها عليه، فسكت النبي ﷺ (قال الأطباء): نكاح العجوز سم من السموم، يضنى البدن، ويورث الهم والحزن (وقال الشاعر):

لا تـنكحن عجـوزا إن دعـوك لهـا ... وانفـض ثيابـك عنهـا ممعنًـا هربـا

وإن أتــوك وقــالوا إنهــا نــصف ... فـإن أحـسن نـصفيها الـذي ذهبـا

ولم يشبب أحد من الشعراء بالعجوز إلا أبا الأسود الدؤلي، فإنه قال أنشده أبو تمام في الحماسة:

أبــا القلــب إلا أم عــوف وحبهــا ... عجـوزًا ومـن يحبـب عجـوزًا يفنـد

كــسحق يمــان قــد تقـادم عهـده ... ورفعتـه مـا شـئت في العـين واليـد

يقول هي كالثوب اليماني ذهبت جدته، فهو يروق العين مرأى واليد ملمسا (وذكر) عاصم في شرحه للحماسة: أن خرقاء صاحبة ذي الرمة أرسلت إلى القحيف ليشبب بها، فقال: لا أشبب بعجوز، فبرزت له وقد أومأت فأخذت بمجامع قلبه، ورأى أحسن النساء، فقال:

لقد أرسلت خرقـاء نحـوى رسـولها ... لـتجعلني خرقــاء ممــن أضــلت

وخرقـــاء لا تـــزداد إلا ملاحـــة ... ولـو عمـرت تعمـير نـوح وجلـت

(ولأبى منصور الثعالبي) في كتابه المعروف بفقه اللغة فصل في ترتيب الأسنان، وفيه مخالفة لبعض ما تقدم، قال: هي طفلة مادامت صغيرة، ثم وليدة إذا تحركت، ثم كاعب إذا كعب ثديها، ثم ناهد إذا دار، ثم معصر إذا أدركت، ثم عانس إذا ارتفعت من حد الاعتصار، ثم خود إذا توسطت الشباب، ثم مسلف إذا جاوزت الأربعين، ثم نصف إذا كانت بين الشباب والتعجيز، ثم شهلة كهلة إذا عجزت وفيها تماسك، ثم حيزبون إذا رجعت عالية السن ناقصة القوة، ثم لطلط إذا انحنى قدها وسقطت أسنانها.

الباب الرابع عشر

في الأبكار والثيب

(قال) الله -تعالى- في وصف نساء الجنة ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]، فامتن ﷻ على أهل طاعته بأن أنشأهن لهم أبكارا لم يعرفن غيرهم. كما قال في آية أخرى ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٧٤]، والطمث: الافتضاض ولا يكون إلا مع دم، فلا يقال في الثيب طمث، كذا قال الفراء، ومنه قيل للثيب طامث لأجل الدم، وخالفه في ذلك غيره (البخاري) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنكحت يا جابر؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: بكرا أم ثيبًا؟ قلت: بل ثيبًا، قال: فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك»**(١) (الخطابي في غريب الحديث) عن مكحول أن رسول الله ﷺ قال: **«عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها، وأنتق أرحامًا، وأغرغرة»**(٢) (قال) أنتق أرحامًا: أي أقبل للولد، وأغرغرة: إشارة إلى تضوع اللون فإن الأيمة وطول التعنيس يحيلان اللون، وفيه تفسير غير هذا، وزاد أبو على في الأمالي: وأرضى باليسير. قال: عبد الملك بن حبيب: يعني باليسير من الجماع (هشام بن عروة) عن أبيه قال: قيل لعائشة: ما كان رسول الله ﷺ يصنع إذا خلى في بيته؟ قالت: والله ما كان إلا بشرًا، ولكن الله أكرمه وأكرم به، والله إن كان ليخصف نعله ويرقع ثوبه ويحدث أحاديث الناس، ولقد قلت له يومًا: يا رسول الله، لو أنك وجدت روضتين في إحداهما شجر ونبات قد رعى وأكل وفي الأخرى شجر ونبات أنف لم يرع، في أيهما كنت مرسلاً بعيرك؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الأنف الذي لم يرع»، فقلت: يا رسول الله! فذلك مثلي ومثل نسائك كلهن ليس منهن واحدة إلا كانت عند غيرك قبلك. اختصره البخاري فأخرج بعضه، وقال: تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوّج بكرًا غيرها (قال) الغزالي في الإحياء: في البكر خواص لا توجد في الثيب• منها أنها لا تحن أبدا إلا إلى الزوج الأول، فإن الطباع مجبولة على الأنس بأوّل مألوف وآكد الحب ما يقع مع المحبوب الأوّل غالبًا• ومنها إقبال الرجل عليها وعدم نفوره عنها، فإن طبع الإنسان ينفر عن التي مسها غيره ويثقل ذلك عليه مهما يذكره، وبعض الطباع في هذا أشد نفورا من بعض• ومنها أنها ترضى في الغالب بجميع أحوال الزوج لأنها أنست به ولم تر غيره، وأما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا

---

(١) البخاري في: النكاح: حديث (٥٠٧٩-٥٠٨٠)، ومسلم في: الرضاع: حديث (٥٤/٧١٥).

(٢) ابن ماجه في: النكاح: حديث (١٨٦١)، والطبراني في «الكبير» (١٤١/١٧).

ترضى ببعض الأوصاف التي تخالف ما ألفته، فتقلى الزوج بسبب ذلك (أبو الفرج في كتاب النساء) عن علي ﷺ قال: لا تنسى المرأة أبا عذرها ولا قاتل بكرها• أبو عذرها: هو الذي افتضها أوَل مرة فأزال عذرها. والعذر والعذرة بمعنى وهو البكارة، وبكرها أول ولد يولدها (ابن عبد المؤمن) في شرح المقامات قال: قيل: لأبرويز وكان حكيمًا ما لذة ساعة؟ فقال: الجماع، قيل: فما لذة يوم؟ قال: الحمام، قيل: فما لذة جمعة؟ قال: النورة، قيل: فما لذة سنة، قال: تزوّج البكر، قيل: فما لذة الأبد؟ قال: أما في الدنيا فمحادثة الإخوان، وأما في الآخرة فنعيم الجنة (صاحب كتاب عقلاء المجانين) قال: أراد رجل النكاح، فقال: لأستشيرن أول من يطلع ثم لأعملن برأيه، وكان أول من طلع عليه هبنقة القيسي وهو راكب على قصبة. فقال له: إني أردت النكاح، فما تشير علي؟ قال: البكر لك والثيب عليك، وذات الولد لا تقربها، واحذر جوادى أن يرمحك (ولأبى) محمد الحريري -رحمه الله تعالى- في إحدى مقاماته فصل في تفضيل البكر على الثيب قال فيه: أما البكر فالدرة المخزونة. والبيضة المكنونة، والثمرة الباكورة، والسلافة المدخورة، والروضة الأنف والطوق الذي ثمن وشرف، لم يدنسها لامس، ولا استغشاها لابس، ولا مارسها عابث، ولا أوكسها طامث. ولها الوجه الحيي، والطرف الخفي، واللسان العيي، والقلب النقي، ثم هي الدمية الملاعبة. واللعبة المداعبة. والغزالة المغازلة، والملحة الكاملة، والوشاح الطاهر القشيب، والضجيع الذي يشب ولا يشيب (وله) فصل في ضد ذلك قال: وهى المهرة الأبية العنان، والمطية البطية الإذعان، والزندة المتعسرة الاقتداح، والقلعة المستصعبة الافتتاح، ثم إن مؤنتها كثيرة، ومعونتها يسيرة، وعشرتها صلفة، وذالتها مكلفة، ويدها خرقاء، وفتنتها صماء، وعريكتها خشناء، وليلتها ليلاء، وفي رياضتها عناء، وعلى خبرتها غشاء، وطالما أخرت المنازل، وفركت المغازل، واحتفت الهازل، وأضرعت الفتيق البازل، ثم إنها التي تقول أنا ألبس وأجلس فأطلب من يطلق ويحبس (وفصل له) في المقامة المذكور في تفضيل الثيب يقول فيه: أما الثيب فالمطية المذللة، واللهنة المعجلة، والبغية المسهلة، والطبة المعللة. والقرينة المتحببة، والخليلة المتقربة والصناع المدبرة، والفطنة المختبرة، ثم إنها عجالة الراكب. وأنشوطة الخاطب، وقعدة العاجز ونهزة المبارز، عريكتها لينة، وغفلتها هينة، ودخلتها متبينة، وخدمتها مزينة (وله فصل) في ضد ذلك قال: هي فضالة المأكل، وثمالة المنهل، واللباس المستبدل، والوعاء المستعمل، والذواقة المستظرفة، والخراجة المتصرفة. والوقاح المتسلطة، والمحتكرة المتسخطة، ثم كلمتها كنت وصرت وطالما بغى على فنصرت. وشتان اليوم وأمس. وهيهات القمر من الشمس. وإن كانت الحنانة البروك

والطماحة الهلوك فهي الغسل القمل والجرح الذي لا يندمل (قوله) في البكر: ثم إن مؤنتها كثيرة ومعونتها بسيرة، وفي الثيب: هي عجالة الراكب وأنشوطة الخاطب، إشارة إلى قول عمر ﷺ: البكر كالبرة تطحن ثم تعجن ثم تخبز ثم تؤكل، والثيب عجالة الراكب تمر وسويق، يشير بذلك إلى سهولة أمر الثيب، وأن البكر تحتاج في تزوجها والبناء بها إلى كلف شديدة• وكانت العرب يمر بها الراكب المستعجل فتعرض عليه النزول للقرى فيمتنع لعجلته، فتخرج له ما استيسر فيأكله وهو راكب، فذلك هو عجالة الراكب• وعلى قوله: أما الثيب فالمطية المذللة، حكي أبو الفرج في الأغاني قال: كانت فضل الشاعرة لرجل من النخاسين[1] فاشتراها منه محمد بن الفرج وأهداها إلى المتوكل. وكانت برزة تجلس للرجال وتتحدث مع الشعراء، فقال: لها يومًا أبو دلف القاسم بن عيسى يعرض لها بأن المتوكل إنما اشتراها وهى ثيب:

قالوا عشقت صغيرة فأجبتهم	أشهى المطي إلى ما لم يركب
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة	لبست وحبة لؤلؤ لم تثقب

(فأجابته)

إن المطية لا يلذ ركوبها	ما لم تذلل بالذمام وتركب
والدر ليس بنافع أربابه	حتى يؤلف للنظام بمثقب

(ولعبد الله بن قيس في معنى بيتي أبى دلف)

حبذا الحج والثريا ومن بالخيف	من أهلها وملقى الرجال
درة من عقابل البحر بكر	لم يشنها مثاقب للآلي

(الجوزى في الأذكياء) قال: عرضت على المتوكل جارية، فقال لها: أبكر أنت أم أيش؟ فقالت: أيش يا أمير المؤمنين، فضحك منها واشتراها (وذكر) في الكتاب المذكور قال: نظر إياس بن معاوية المشهور بالفطنة والألمعية إلى جواز ثلاث، فقال: أما هذه فبكر، وأما هذه فحامل، وأما هذه فثيب. فنظرن فوجدن كذلك، فسئل من أين علم ذلك؟ فقال: إني رأيتهن فزعن من شيء، فوضعت كل واحدة منهن يدها على أهم المواضع عندها، فأما

(١) النخاسين: جمع «نخاس»، وهو بائع الدواب والرقيق.

إحداهن فوضعت يدها على فرجها فعلمت أنها بكر، وأما الأخرى فوضعت يدها على بطنها فعلمت أنها حامل، وأما الأخرى فوضعت يدها على ثديها فعلمت أنها مرضع (وذكر في كتاب المغفلين) قال: اشترى رجل جارية على أنها بكر وحملها إلى منزله، فذكر له نساؤه أنها ثيب، فاختصم فيها مع البائع، فأمر القاضي أن توضع عند أمين إلى أن يكشف القوابل أمرها، فأودعت عند إمام المسجد، فلما أصبح الإمام وصل إلى القاضي وهو يتأوه ويقول ذهبت الأمانة من الناس، فسأله القاضي عن قضيته، فقال: إن مشترى الجارية قد اطمأن إلى بائعها وأخذها منه على أنها بكر فخدعه فيها وخانه وإني قد جربتها البارحة فوجدتها ثيبا واسعة، فمن ذا الذي يوثق به ومن ذا الذي يركن إليه؟ (ابن الحصين في تاريخه) قال: رأى القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب جارية فعشقها ولم يزل يسعى في تملكها[1] إلى أن اشتراها، فلما هيئت له وعزم على افتضاضها وكانت بكرًا أدركها الحيض. فأعلمته بذلك فكف عنها، وأعلم بذلك أبا إسحق الزجاج النحوي، وطلب منه أن ينظم في ذلك شعرًا. فقال أبو إسحق:

فـــارس مـــاض بحربتـــه ... درب بـــالطعن في الظلـــم

رام أن يـــدمى فريـــسته ... فاتقتـــه مـــن دم بـــدم

(ومن غير تاريخ ابن الحصين) اتفق مثل هذه القضية للمأمون ليلة بنائه ببوران أراد افتضاضها فرأت دم الحيض، فقالت له: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، فكف عنها (الجاحظ في البيان) قال: تزوّج معاوية بن مروان بن الحكم بعض بنات الأشراف وكانت بكرًا فافتضها، فلما أصبح قال لأبيها على رؤس الأشهاد: ما أرتنا ابنتك البارحة دمًا فاستحيا، وقال: إنها من نساء يخبأن ذلك لأزواجهن (معاوية هذا) هو شقيق عبد الملك، أمهما عائشة بنت معاوية بن المغيرة وكان يحمق، وهو الذي رأى جرسًا على بعض دواب الطحن، فسأل رب الدابة عن ذلك، فقال: ربما أدركتنى نعسة، فإذا لم أسمع صوت الجرس علمت أنها قد وقفت فصحت بها، قال: فإن وقفت وحركت رأسها هكذا وهكذا وجعل معاوية يحرك رأسه يمينًا ويسرة، فقال: ومن لدابتي بمثل عقل الأمير (أبو الفرج في الأغاني) عن محمد بن الفضل السكونى قال: تزوّج حماد عجرد امرأة بكرًا، فدخلنا إليه صبيحة بنائه لنسأله عن خبره، فأنشدنا:

---

(١) في المخطوط «تملكا»، والمثبت من المحقق.

قد فتحت الحصن بعد امتناع ... بمنيح فاتح للقلاع
ظفرت كفي بتفريق شمل ... جاءنا تفريقه باجتماع
إنما يلتئم الشمل منا ... حين نرمي شمله بانصداع

حماد عجرد هذا هو حماد بن عمرو بن كليب مولى لبنى عامر بن صعصعة مخضرم أدرك الدولتين، وكان خليعًا ماجنًا متهمًا في دينه، والعجرد في اللغة: التعري من الثياب (ابن بسام في الذخيرة) قال: تأخر الوزير عبد الملك بن مروان بن شهيد عن المنصور بن أبى عامر في بعض غزواته، فلما عاد المنصور من غزوته وقد افتتح وسبا كتب إليه ابن شهيد يطلب منه جارية من السبي:

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا ... وبنفسي أقيك كل الرزايا
ورسول الإله أسهم في الفي ... ء لمن لم يحث فيه المطايا

فبعث إليه ابن أبى عامر بأربع من الجواري أبكار، وكتب إليه:

قد بعثنا بها كشمس النهار ... في ثلاث من المها أبكار
فاتئد واجتهد فإنك شيخ ... قد جلا الليل عن بياض النهار
صانك الله عن كلا لك فيها ... فمن العار كلة المسمار

قال: فافتضهن الشيخ من ليلته، وكتب إليه صبيحة يومه فقال:

قد فضضنا ختام ذاك السوار ... واصطبغنا من النجيع الجاري
وصبونا في ظل أطيب عيش ... ولعبنا بالدر أو بالدراري
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ... ذي مضاء عضب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرا ... واتخذه فحلا على الكفار

(صاعد في الفصوص) عن أبى زياد الكلابى قال: كان عندنا شيخ يعرف بأبي غريب وكنا نأنس إليه فتزوّج بكرًا ولم يولم، فاجتمعنا على بابه وصحنا

أو لم ولو بيربوع ... فتلتنا من الجوع

فأولم واجتمعنا عنده، فلما أصبح من عرسه غدونا عليه، فنا،يناه:

ياليـت شـعرى عـن أبـى غريـب إذ بـــات في مجاســـد وطيـــب

معانقـــا للرشـــا الربيـــب أأحمـــد المختـــار في القليـــب

أم كـــان رخـــوا نـــائس القـــضيب

قال: فخرج إلينا، وهو يقول: نائس القضيب والله• نأس ينؤس: إذا اضطرب واسترخى (وأنشد الحضري) في كتاب النور- والنور لابن المعتز- في هذا المعنى:

تظـــل الـــشمس ترمقنـــا بطـــرف خفـــي لحظـــه مـــن تحـــت ســـتر

تحـــاول فتـــق غـــيم وهـــو يـــأبى كعـــنين يحـــاول فتـــق بكـــر

(وقال) إبراهيم بن على بن هرمة فيما له تعلق بهذا الباب:

أبـــو ثابـــت يتـــشهى المـــديح ويرغـــب عـــن صـــلة المـــادح

كبكـــر تحـــب لذيـــذ النكـــاح وترهـــب مـــن صـــولة النـــاكح

(وقد كرر ابن هرمة هذا المعنى في قوله)

فأنـــت والمـــدح كالعـــذراء يعجبهـــا مـــس الرجـــال ويثنـــى قلبهـــا الفـــرق

(قال أبو الفرج في الأغاني) قال أبو العباس بن الوليد: ما بال الشعراء تمدح أهل بيتي ولا تمدحني، وكان أبو العباس بخيلاً لا يحب أن يعطى أحدًا شيئًا، فبلغ قوله ابن هرمة وكان مدحه فلم يتبه فقال: هذا البيت من جملة أبيات يعرض به (ومن) بيت ابن هرمة أخذ مهيار قوله:

يـــشتهون المـــال أن يبقـــى لهـــم فلمـــــاذا يـــــشتهون المـــــدحا

الباب الخامس عشر

في السمن والضمور

(قال مصعب بن الزبير): النساء فرش، فأطيبها أوثرها. وكان يقول: استأثروا في فرشكم (ابن شبرمة): ما رأيت لباسًا على الرجل أزين من فصاحة، ولا رأيت لباسًا على امرأة أزين من شحم (قالت عائشة –رضي الله تعالى عنها–): أرادت أمي تسمنني لدخول رسول الله ﷺ فلم أقبل على شيء مما تريده، حتى أطعمتني القثاء بالرطب فسمنت عليه كأحسن السمن (أبو سلمه بن عبد الرحمن) عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: تسابقت مع النبي ﷺ وأنا جورية[1] فسبقته، فلما حملت اللحم قال لي رسول الله ﷺ: تعالى أسابقك، فقلت: وكيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟ قال: لا بد فسابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك[2] (قال الأصمعي) سئل امرؤ ألقيس: ما أطيب لذات الدنيا؟ قال:

بيـــــضاء رعبوبـــــة بالحـــــسن مكبوبـــــة
بالـــــشحم مكرومـــــة بالطيـــــب مـــــشبوبة

(أبو الريحان في كتاب الجماهر) قال: كانت عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية عند هشام بن عبد الملك وكانت مفرطة السمن لا تستغني في القيام عن الاستعانة بثلاث أو أربع من الجواري. فأهديت إلى هشام يومًا الدرة اليتيمة المتوارثة وكان وزنها فيما يقال ثلاثة مثاقيل. وكانت قد حازت جميع الصفات المستحسنة من الصفاء والنقاء والاستدارة فقال لعبدة: إن قمت بنفسك من غير استعانة بأحد فهي لك، فحاولت القيام بشدة ومشقة وما تم نهوضها حتى خرت على وجهها وسال الدم من أنفها، وقام هشام يغسل ما أصابها من الدم وأعطاها الدرة، فبقيت عندها إلى أن أخذها منها عبد الله بن على بعد انقضاء دولة بني أمية وقتلها بسببها خوف أن تنم به للسفاح (قال أبو ياسر) في رسالته المعروفة برسالة الطيب، وكان عبد الله بن على غير راغب في النساء، ولكنه لما رأى عبدة رأى جمالاً رائعًا وحسنًا بارعًا فيقال إنه هم منها بشيء الله أعلم به فامتنعت، فطلب منها التزويج فأبت فكان ذلك من أكبر الدواعي له على قتلها خوفًا أن تعلم السفاح بشيء مما جرى بينهما، قال: وفي عبدة يقول الشاعر وهو عمر بن أبى ربيعة:

---

(١) كذا بالمخطوط «جورية».

(٢) سبق تخريجه.

أعبــدة مــا ينــسى تــذكرك القلــب ولا عنــك تــسليه رخــاء ولا كــرب

وعبـــدة بيـــضاء الترائـــب طفلـــة منعمـــة تـــصبى الحلـــيم ولا تـــصبو

(أبو الفرج في الأغاني) عن أبى بردة عن أبى موسي قال: وجهني الحجاج لأخطب له هندًا بنت إسماعيل بن خارجة فلما خطبتها من أبيها زوّجها منه وكانت حاضرة قامت مبادرة وعليها طرف خز أسود، فوالله لرأيته بين ظهرها وعجيزتها ولم تستقل قائمة حتى انثنت ومالت لأحد شقيها من شحمها، فعرفت الحجاج بذلك فوجه إليها بثلاثين غلامًا مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية، مع كل جارية تخت ثياب. وقال: إني أكره أن أبيت خلوا ولى زوجة، فقالت: وما احتباس امرأة عن زوجها وقد ملكها وآتاها صداقها وكرامتها. ثم أصلحت من شأنها وأتت من ليلتها (قال المدائنى): بلغني عن المرأة التي تولت زفها إليه أنها قالت: دخلنا على الحجاج وهو في بيت عظيم في أقصاه ستارة وهو دون الستارة على فراشة، فلما دخلت عليه سلمت، فأومأ إلى بقضيب كان في يده، فجلست عند رجليه، ومكث ساعة لا يتكلم ونحن وقوف، فضربت بيدها على فخذه، وقالت: ليس هذا موضع سوء الخلق، فتبسم وأقبل عليها واستوي جالسًا، فدعونا له وأرخينا الستور عليهما (قال أبو عبيدة): دخل مالك بن الحرث الأشتر على عليّ ﷺ صبيحة بنائه على بعض نسائه، فقال: كيف وجد أمير المؤمنين أهله؟ فقال: كخير امرأة لولا أنها قياء جداء، قال: وهل يريد الرجال من النساء إلا ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: كلا حتى تدفئ الضجيع وتروى الرضيع• القياء: الضامرة اللطيفة الكشحين، والجداء: الصغيرة الثديين، فهذا يدل على استحسان على ﷺ لضخم المرأة وشحمها، ويدل على استحسانه أيضًا لكبر الثدي. وسيأتي من ذلك ما تقف عليه في بابه، إن شاء الله تعالى (أبو الفرج في الأغاني) قال: دخل عقال بن شيبة المجاشعى على المهدي، فقال له: يا أبا الشيطم! أي النساء أحب إليك التي جدلت جدل الضأن واهتزت اهتزاز البان، أم التي بدنت فعظمت وكملت فتمت؟ فقال: يا أمير المؤمنين أحبهن إلى ما وصف أبو بجيلة فإنه كان له جارية صغيرة لطيفة وهبها له عمك أبو العباس السفاح، فكان إذا غشيها صغرت عنه وقلت تحته، فقال:

إنـــى وجـــدت المركـــب الزونكـــا غـــير منيـــك فـــابغنى منيكـــا

شـــــيئًا إذا تحركتـــــه تحركـــــا

فوهب له المهدي جارية كاملة، فلما أصبح عقال غدا على المهدي متشكرًا، فخرج إليه وهو يضحك، فقال له: مم تضحك يا أمير المؤمنين أدام الله سرورك؟ فقال: يا أبا الشيطم إني اغتسلت الآن من شيء إذا حركته تحرك وذكرت قولك فضحكت. الزونك: بالزاي والواو مفتوحين والنون مشددة الدميم الحقير (قال صاحب الصحاح): وربما قيل فيه زونزك بسكون النون وتكرير الزاي• قال أبو الفرج في كتاب النساء: أكثر البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد يقدمون المجدولة التي تكون بين السمينة والمشوقة، ولابد أن تكون كاسية العظام؛ ولذلك قالوا: كأنها غصن بان وقضيب خيزران وجدل عنان• قال: والتثني في مشى المرأة أحسن ما فيها، ولا يمكن ذلك مع السمن (قال): وقد خلص أبو نواس هذه الصفة فأحسن إنشاء بقوله:

فـــوق القـــصيرة والطويلـــة فوقهـــا ... دون الـــسمين ودونهـــا المعـــزول

(وقال قيس بن الحطيم)

بـــين شـــكول النـــساء خلقتهـــا ... قـــصد فـــلا جبلـــة ولا قـــضف

الجبلة: بكسر الجيم المرأة الضخمة، وبعض اللنويين يقولها بفتح الجيم، والقضف: بفتح الضاد المعجمة المهزولة (قال) الرقاشي: السمن في النساء غلمة، وفي الرجال عفلة (ويحكى) عن الحسن البصري أنه قال: لا تسمنوا نساءكم فإن كنتم ولابدّ فاعلين فاحفظوهن، وهو معنى قول الرقاشي (قال الجاحظ): كان أبو معمر بن هلال يقول: عذرت الطويل الأيرفي أن يشتهى السمينة، ولكن ما أعذر الصغير الأيرفي ذلك (وقال) الفرزدق يفضل زوجة حدراء بنت رنق بن بسطام على زوجة النوار وكانت حدراء عربية هيفاء مجدولة وكانت النوار حضرية جسيمة فقال:

لعمـــــري لأعرابيـــــة في مظلـــــة ... تظـــل بروقـــى الـــريح تخفـــق

كـــأم غـــزال أو كـــدرة غـــائص ... تكـاد إذا مـرت لهـا الأرض تـشرق

أحـــب إلينـــا مـــن ضـــناك ضـــفنة ... إذا وضـعت عنهـا المـراويح تعـرق

الضناك: بكسر الضاد- وقد تقدم- المفرطة السمن، وكذلك الضفنة بكسر الضاد (قال) أبو منصور الثعالبي في كتاب فقه اللغة له: إن كانت المرأة ضخمة وعلى اعتدال فهي زبحلة، فإذا زاد ضخمها ولم تقبح فهي سجلة، فإذا دخل في حد ما يكره فهي مفاضة

وضناك، فإذا أفرط ضخمها مع استرخاء شحمها فهي عفضاج (وقال) غيره: يقال امرأة سمينة، وقد سمنت تسمن بالضم فيهما، وسمنت بالكسر تسمن بالفتح إذا ضخمت من الشحم. فإذا زادت قليلاً فهي رضراضة، فإذا زادت فهي خدلجة، فإذا امتلأت سمنًا فهي عركركة. فإذا تناهت في السمن فهي عضنكة وضفنة، وبالله تعالى التوفيق.

الباب السادس عشر

في الألوان• وفيه ثلاثة فصول:

فصل في البياض

قال عائشة –رضي الله تعالى عنها–: البياض نصف الحسن، وقالت لأناس من بني تميم: بلغني أنكم تعالجون الرقيق، فما أخطأكم من شيء فلا يخطئنكم البياض والطول، فإنهما يغتفران الحسن اغتفارًا• يغتفرانه: أي يضمانه ويجمعانه. (وقال) المؤمل بن أميل:

شهد المؤمل يوم يلقى ربه   إن البياض طراز كل جمال

(وجاء) في صفة رسول الله ﷺ أنه كان أبيض اللون مشربًا حمرة، بذلك وصفة على ابن أبي طالب، رضي الله عنه (وقال) أنس رضي الله عنه: لم يكن رسول الله ﷺ بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم الأبيض. الأمهق: الشديد البياض الذي لا حمرة فيه، يقول لم يكن كذلك (وفي) حديث عنه قال: كان رسول الله ﷺ أبيض كأنما صيغ من فضة. خرجه الترمذي في الشمائل ولا معارضة بينه وبين وصف على له ﷺ بالحمرة، لأن الحمرة كانت في وجهه ﷺ وأنس إنما وصف جسده (قال أبو الفرج في كتاب النساء): يمازج البياض لونان يريد أنه حسنا الحمرة والصفرة• فأما الحمرة فتعترى البياض من رقة اللون وصحة الدم. قال البكري في اللآلئ: العرب تسمى النساء الحسان الحمر• ومنه قول جرير، وقد سئل عن الأخطل فقال: هو أوصفنا للخمر والحمر– يعنى حسان النساء (وقيل) لأعرابي: تمن، فقال: حمراء مكسال من بنات الأفيال. قال: وأصل ذلك من اللون وظهور الدم في الوجه فإنه يزيد البياض حسنا. قال سيبويه: ولما كثر استعماله لهذه الصفة في النساء لزمت، فصارت كالاسم (قال) البكري: ومن شبه المرأة بالنار، فإنما أشار إلى هذا المعنى، قال: وقولهم في المثل: الحسن أحمر، هو من هذا الباب (وقال الشاعر):

هجان عليها حمرة في بياضها   يروق بها العينين والحسن أحمر

(وقال بشار)

وإذا خرجت تقنعي   بالحسن أن الحسن أحمر

(وقد) قيل في المثل غير ما ذكره البكري، وأن الحمرة كناية عن الشدة والجهد،

أي من طلب الحسن صبر على الشدائد والمشاق. وتقدم في باب الزينة شيء من هذا (رجعنا إلى كلام أبى الفرج) قال: وأما الصفرة فتعترى البيض لاستتارهن وملازمتهن الكن والنعمة والخفض والدعة. وتعتريهن أيضًا لملازمتهن التضمخ بالطيب• ويصدق هذا الذي ذكره أبو الفرج قول الشاعر:

ومـا تعـشقت مـن بيـضاء حاليـة كالعـاج صـفرها الإكنـان والطيـب

(قال أبو الفرج): ويقال إن المرأة إذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فإن لونها يكون من أول النهار إلى ابتداء العشية يضرب إلى الحمرة، ومن ابتداء العشية إلى آخر النهار يضرب إلى الصفرة، ولذلك قال الأعشى:

بيـضاء ضـحوتها وصـفراء العـشية كـالحرارة

(وقال الآخر)

قـد علمـت بيـضاء صـفراء الأصـل أنـى سـأغنى اليـوم مـا أغنـى رجـل

ومعنى هذا الذي ذكره أبو الفرج: أن المرأة الرقيقة البشرة والصافية اللون تتلوّن بتلون الهواء، والهواء عند الطفل يصفر بإصفرار الشمس ويتوضح بالغداة لبيانها، وهذا كله مبالغة في وصف المرأة بالصفاء والنعمة وليس شيء منه على الحقيقة، على أنه قد قيل في بيت الأعشى والرجز الذي بعده إنه أراد أنها تمسى رادعة، وتغتسل بالغداة فتبيض ضحوتها لأجل ذلك (وأنشد أبو الفرج) في استحسان لون الصفرة لذي الزمة:

بيـــضاء في دعـــج صـــفراء في نفـــج كأنهـــا فـــضة قـــد مـــسها الـــذهب

(وقال قيس بن الحطيم)

هيفـاء مثـل الـشمس عنـد طلوعهـا في الحـــسن أو كـــدنوها لغـــروب

(وقال آخر)

بيـــضاء صـــفراء قـــد تنازعهـــا لونـــان مـــن فـــضة ومـــن ذهـــب

(وقال أبو زبيد)

أشـــربت لـــون صـــفرة في بيـــاض وهـــــى في ذاك لدنـــــة غيـــــداء

(وقال بشار)

بانـــت بقلـــبي صـــفراء رادعـــة ... صـــبت عليهـــا مـــن حـــسنها فتنًـــا

كأنهـــــا روضـــــة منـــــورة ... تجمـــع طيبًـــا ومنظـــرًا حـــسنًا

فهذا قد أُخبر أن صفرتها إنما هي لأجل الطيب على أن في البيت محتملاً لغير ذلك (قال) أبو الفرج: ومن شبه المرأة بالبيضة، فإنما أراد الصفرة التي فيها وقد جاء ذلك في كتاب الله ﷻ يريد قوله ﷻ ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[الصافات:٤٩]، (قال) وقول امرئ القيس:

كبكـــر مقانـــاة البيـــاض بـــصفرة ... غـــذاها نمـــير المـــاء عنـــد المُحلـــل

يجوز فيه أن يكون البكر كناية عن البيضة، ويجوز أن يكون كناية عن الدرة.

فصل في السمرة

(أبو على) في الأمالى عن بهدل الزبيري قال: أتى رجل ابنة الحسن يستشيرها في امرأة يتزوَّجها، فقالت أنظرها رمكاء جسيمة أو بيضاء وسيمة، في بيت جد أو في بيت حد. قال أبو على: والرمكاء ههنا السمراء، والرمكة السمرة (وذكر) هذا الخبر أبو الفرج في الأغاني على غير هذا، فقال: قال غيلان بن سلمة لبنيه حين احتضر: يا بني عليكم ببيوتات العرب؛ فإنها مدارج الكرم، وعليكم بكل رمكاء ركينة أو بيضاء رزينة في بيت جد أو بيت حد• يريد بقوله في بيت جد أو بيت حد: أنها إذا كانت في بيت جد- بالجيم- فقد جمعت إلى شرفها الثروة وإن كانت في بيت حد- بالحاء- كانت أرضى باليسير وأقنع بالبلغة وأدنى إلى الاستحداء والألفة• وغيلان بن سلمة هذا هو أبو بادنة ابنة غيلان، التي يأتي ذكرها في الباب السابع عشر بعد هذا، إن شاء الله تعالى (وقال) أعرابي وذكر امرأة:

مـــن الـــسمر اللـــدان إذا اســـبكرت ... وصـــرف المـــوت في الـــسمر اللـــدان

شـــبيهات الرمـــاح قنـــامتون ... وكلمـــا في القلـــوب بلاســـنان

(وقال مسكين الدارمى)

أنـــا مـــسكين لمـــن يعـــرفني ... لـــونى الـــسمرة ألـــوان العـــرب

(وجاء) في الأثر عن على ﷺ أنـه قـال: مـن تـزوج امـرأة سمـراء ثـم طلقهـا فعلـى

مهرها. وذلك منه ﷺ مبالغة في محبة البياض وكراهة السمرة، وقد تقدم في الفصل السابق وصف النبي ﷺ بالبياض (وجاء) في حديث يرويه خالد بن عبد الله عن حميد عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أسمر اللون[1] (قال) الخطابي في غريب الحديث: تفرد به خالد عن حميد، والمعروف من وصف رسول الله ﷺ البياض، كما تقدم (قال): وقد يمكن أن يجمع بين الحديثين بأن تكون السمرة فيما يبرز للشمس من بدنه ﷺ والبياض فيما تواريه[2] الثياب (قال) ويوضح ذلك قول ابن أبى هالة في وصفه -عليه الصلاة والسلام- أنور المتجرد (قال) وأيضًا قد تقدم في الأحاديث أنه ﷺ كان أبيض مشربًا يعنى بحمرة، قال: والحمرة إذا أشبعت حكت السمرة، فيمكن أن يكون وصفه بالسمرة إشارة إلى هذا المعنى (وقال) غير الخطابي: إنما كان في بعض الأوقات دون بعض، لأنه ﷺ قد يقابل الشمس في الأسفار وغيرها، فيعترى وجهه وجسمه ﷺ سمرة ثم تذهب، وقد استوفينا الكلام على هذا في كتابنا الوفاء في شرح الشفاء. (وقال بعض المتأخرين):

وسمراء باهى كلفة البدر وجهها	إذا لاح في ليل من الشعر الجعدى
محببة من حبة القلب لونها	وطينتها للمسك والعنبر الوردي

(وأنشد ابن بسام في الذخيرة):

قدّ قضيب وبدر ديجور	وثغر در ولحظ يعفور
نازل قلبي وأي مصطبر	يفي بتلك اللواحظ الحور
كأنما نوره وسمرته	مسك مشرب يذوب كافور

من قول الآخر:

إنما السمرة فيه	ذوب كافور بمسك

فصل في السواد

ليس للنساء السود من الصفات المستحسنة مما يتميزن به إلا نقاء الثغور وحرارة الفروج والصفات المذمومة عليهن مع ذلك غالبة من تشقق الأطراف والشفاه وخشانة الأبدان

(١) أحمد في «مسنده» (٣/٢٥٩-٢٦٧). والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/٣٩٦).
(٢) في المخطوط «ترواريه». والمثبت من المحقق.

وصغر الفروج ونتن العرق وشراسة الأخلاق، ويقال: إن سود غانة سالمات من هذه الصفات المذمومة كلها (قال) الشاعر المكفوف لما اشتهر قولي:

حب سود النساء من لذة العيـ	ـش على أنه من حياة القلوب
مشبهات الشباب والمسك تفـ	ـديهن نفسي من طارقات الخطوب
كيف يهوى الفتى اللبيب وصال الـ	ـبيض والبيض مشبهات المشيب

لقيتني امرأة، فقالت لي: أنت الذي أعمى الله بصيرتك كما أعمى بصرك؟ قلت: وما ذاك؟ قالت: ألست القائل وأنشدتني الأبيات (وأخذ ابن رشيق معنى أبياته هذه فقال):

دعا بك الحسن فاستجيبي	يا مسك في صبغة وطيب
تيهي على البيض واستطيلي	تيه شباب على مشيب
ولا يروعك اسوداد لون	كمقلة الشادن الربيب
فإنما النور عن سواد	في أعين الناس والقلوب

(والسابق لهذا أبو حفص الشطرنجي بقوله)

أشبهك المسك وأشبهته	قائمة في لونه قاعدة
لا شك إذ لونكما واحد	أنكما من طينة واحدة

(وللعباس بن الأحنف وكان معاصرًا له)

أحب النساء السود من أجل بكتم	ومن أجلها أحببت من كان أسودا
فحيي بمثل المسك أطيب نكهة	وحيي بمثل الليل أطيب مرقدا

أخذ العباس بيته الأول من قول الأعرابي:

أحب لحبها السودان حتى	أحب لحبها سود الكلاب

(وأنشد الجاحظ)

وإن سواد العين في العين نورها ... وما لبياض العين نور فيعلما

أخذه أبو الطيب، فقال: يمدح كافورا:

فجاءت به إنسان عين زمانه ... وخلت بياضًا خلفها وأماقيا

(وقال الشريف الرضي)

أحبك يالون الشباب فإنني ... رأيتكما في العين والقلب توأما

سواد يود البدر لو كان رقعة ... بجبهته أو شق في وجهه فما

سكنت سواد القلب إذا كنت مثله ... فلم أدر من عز من القلب منكما

وما كان سهم العين لولا سواده ... ليبلغ حبات القلوب إذا رمى

إذا كنت تهوى الظبي المي فلا تلم ... جنوني عن الظبي الذي كله لمى

(أخذه بعض المحدثين فقال):

يكون الخال في خد مليح ... فيكسوه الملاحة والجمالا

فكيف يلام معشوق على من ... يراها كلها في العين خالا

وكرر هذا المعنى أيضًا في قوله:

لام العواذل في سوداء فاحمة ... كأنها في سواد القلب تمثال

وهام بالخال أقوام وما علموا ... أني أهيم بشخص كله خال

(وللرضي في معنى قطعته الأولى)

لاموا ولو وجدوا وجدي لقد عذروا ... وذنب من لام ذنب غير مغتفر

لما تمادوا على عذلي أجبتهم ... بعز معترف لأذل معتذر

أهوى السواد برأسي ثم أمقته ... فكيف يختلف اللونان في نظري

تأتي طلائع بيض ذر شارقها ... في عارضي أن يكون البيض من وطري

إني علقت سواد اللون بعدكم ... علاقة تشمت الظلماء بالقمر

لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت | صبغ الغوالى على الأجياد والعذر
والليل أستر للخالى بلذته | والصبح أفضح للساري على غرر
وللفتى في ضلال الليل معذرة | وماله في الضحى أن ضل من عذر
وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري | من كان مثل سواد القلب والبصر

وقد تقدم التنبيه على هذه المعاني• ولمحمد بن يونس بن محمد بن عبد الرحمن ابن يونس الهنتاتي ممن تقدم عصرنا قليلاً في سوداء تسمى درة، وهو أحسن ما أنشدنا أشياخنا عنه:

يا رب سوداء تسمى درة | ومن العجائب درة سوداء
سوداء ليل الوصل منها أبيض | ومن العجائب ليلة بيضاء

(كانت) عند أبى الفضل الهاشمي سوداء وكان يحبها حبًا شديدًا، فطلب من ابن الرومي أن يذكرها في شعره، ويستغرق أوصافها الباطنة والظاهرة، فقال من قصيدة طويلة:

أكسبها الحسن أنها صبغت | صبغة حب القلوب والحدق
وفضل ما فضل السواد به | والحق ذو سلم وذو نفق
أن لا يعيب السواد حلكته | وقد يعاب البياض بالبهق

(ولما) كان الغالب من صفات السودان ما ذكرناه قبل هذا من تشقق الأطراف والشفا ونتن العرق، نفى ذلك عنها بقوله:

ليست من الغبش إلا كف ولا الـ | ـفلج الشفاه الخبائث العرق

ثم تعرض لذكر صفات السودان المحمودة التي قدمنا ذكرها، وهي نقاء الثغور وحرارة الفروج، فقال:

يفتر ذاك السواد عن يقق | من ثغرها كاللآلئ النسق
كأنها والمزاح يضحكها | ليل تغرى دجاه عن فلق
غصن من الأبنوس ركب في | ميزر معجب ومنتطق

يهتــز مــن ناهديــه في ثمــر ومــن دواجــى ذاره في ورق
لهــا حــرق تــستعير وقدتــة مـن قلـب صـب وصـدر ذي حنـق
كأنمــا حــره لذائقــه مــا ألهبتــه حــشاه مــن حــرق

وأراد امتثال طريقة النابغة في تحرزه حين وصف المتجرد بقوله زعم الهمام، فقال:

وصـفت فيهـا الـذي هويـت علـى الـوهم ولم اختـبر ولم أذق•
ألا بأخبــارك الــتي وقعــت منــك إلينـا عــن ظبيـة الـبرق
أخلـق بهـا أن تقـوم عـن ذكـر كالـسيف يفـرى مـضاعف الحلـق
أن جفــون الــسيوف أكثرهــا أسـود والحـق غـير مختلـق•

(قال) صاحب الزهر: فامتثل أبو الفضل الهاشمي ما أشار به ابن الرومي عليه وأولدها فأنجبت (أخذ) بيت ابن الرومي الذي أوّله غصن من الأبنوس وبيت العباس بن الأحنف الذي قدمنا إنشاده بعضهم، فقال:

غــصن مــن الأبنــوس أبــدى مــن مــسك داريــن لى ثمــارا
ليــل نعــيم أظــل فيــه للطيــب لا أشــتهى نهــارا

(وفي) الإشارة إلى شدة حرارة فروجهن يقول سكرة الشاعر الهاشمي:

وســوداء بــورك في بــضعها ولا نــال بؤسـا فمـا أضـيقا
نــزوت عليهــا ولا علــم لى بــأن لهــا كعثبـا محرقـا
فكـدت مـن الحـر أن أنـشوى ومــن شــدة الـضيق أن أحنقـا

(وقال الخفاجى في مثل ذلك)

تجــردت عــن غــسق وابتــسمت عــن فلــق
وأمكنــت مــن فلقــتي ملتهــب محــترق
ثــم انثنــت تعثــر في فــضلة بــرد شــرق

(عبد الملك بن حبيب) في كتاب آداب النساء له قال: قال رسول الله ﷺ: «سوداء ولود خير من حسناء عقيم»[1] وفي حديث آخر: «أمة سوداء ذات دين خير من حسناء لا دين لها» وذكر الحديث الأول الغزالي في الإحياء، وحسبك بهذين الحديثين ذما للون السواد، وعد بعضهم هذا في تصحيف المحدثين، وقال: إنما الحديث سوداء ولوء بهمزة عوض الدال، قال: والسوداء القبيحة. والذي قال يمكن أن تثبت الرواية به، وما أقرب أن يكون القائل هذا هو المصحف (أبو أمية الثقفي) عن هشام عن أبيه عن عائشة -رضي الله تعالى عنهما- قالت: قال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم، وإياكم والزنج فإنه خلق مشوه» أبو أمية ضعيف[2] (عبد الملك بن حبيب) عن عبد الرحمن بن موسى عن خلف بن ياسين قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرك في نسبه السودان» قال عبد الحق: هذا حديث مرسل ضعيف جدًا. وقد قدمنا في الباب الرابع عن موسى الكاظم خبرًا يحسن ذكره هنا.

---

(١) [ضعيف] الطبراني في «الكبير» (٤١٦/١٩)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢٥٣/٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٥٥٥/١).

(٢) [موضوع] الدارقطني (٣٩٩/٣)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٣٣/٢)، وابن عدي في «الكامل» (١٧٣٧/٥).

الباب السابع عشر

في الطول والقصر

(قال خالد بن صفوان): الطول عماد الجمال. وقال قيس بن زهير: عليكم بالطوال فإنهن أمهات الرجال. وقالت عائشة -رضي الله تعالى عنها- لأناس من بني تميم: بلغني أنكم تعالجون الرقيق، فما فاتكم من شيء فلا يفوتنكم الطول والبياض؛ فإنهما يغتفران الحسن اغتفارا. وتقدم معنى الاغتفار• وفي حديث عروة بن الزبير قال: ما عشقت من امرأة قط إلا شرفها. قال قاسم بن ثابت: كان الأصمعي يقول: الشرف هنا الطول. قال: وظاهر الأثر يدل على أنه أراد الحسب وصراحة النسب.

(ومن الوصف بالطول قول النابغة)

إذا ارتعثت خاف الجبان رعاتها ... ومن يتعلق حيث علق يفرق

(وقول عمر بن أبي ربيعة)

بعيدة مهوى القرط أما لنوفل ... أبوها وأما عبد شمس وهاشم

وأرباب البيان يقولون في هذين البيتين: إنهما كناية عن طول العنق. وعندي في ذلك استدراك أذكره بعد هذا -إن شاء الله تعالى- في باب آخر (وقال الشاعر):

ولما التقى الصفان واختلف القنا ... نهالا وأسباب المنايا نهالها

• تبين لى أن القماءة ذلة ... وأن أشداء الرجال طوالها

(ومن) هذا الباب قول العرب في المدح: طويل النجاد، وإنما هو كناية عن الطول وامتداد القامة. والنجاد: حمائل السيف، ولا تطول الحمائل إلا إذا كان حاملها طويلاً؛ إذ لو كان قصيرًا لقصرها (قال) أبو العباس في الكامل: العرب تمدح بالطول وتضع من القصر، فلا يذكره منهم إلا محتج عن نفسه، ولا يمدح به غيره، وأنشد لعنترة:

بطل كأن ثيابه في سرجه ... تحذي نعال السبت ليس بتوأم

(وقال جرير):

وإني لأرضي عبد شمس وما قضت ... وأرضى الطوال البيض من آل هاشم

انتهى ما ذكره أبو العباس (ولبهاء الدين) زهير بن محمد المهلبى ممن تقدم عصرنا قليلاً يصف طويلة:

وهيفاء تحكى الرمح لونًا وقامة	لها مهجتي مبذولة وفؤادي
لقد عابها الواشي فقال: طويلة	مقال حسود مظهر لعناد
فقلت له بشرت بالخير إنها	حياتي فإن طالت فذاك مرادي
وما عابها القد الطويل وإنه	لأوّل حسن للمليحة بادي
رأيت الحصون الشم تحفظ أهلها	فأعددتها حصنًا لحفظ ودادي

(وصف) أعرابي امرأة، فقال: ما يمس ثوبها منها إلا مشاشتى منكبيها وحلمتي ثدييها ورانقتى أليتيها، تطول القصار فهي فوقهن، وتطولها الطوال فهي دونهن• فهذا استحسن المتوسطة بين الطول والقصر، وهو كما قال الآخر:

فداؤك يا سلمى قصار زعانف	وعطل طوال في النساء قباح
فأنت منى قلبي إذا كنت خاليا	وفوق المنى لو كان فيك سماح
كأنك هيأك المشهي لنفسه	على ما اشتهى ما في مناه جناح
لك الفضل أم الفضل في الناس بين	كما فضل الليل البهيم صباح

(ومن أبيات الحماسة)

جديدة سربال الشباب كأنها	سقية بردى نمتها غيولها•
مجملة باللحم من دون تربها	تطول قصارًا والطوال تطولها

الغيول: جمع غيل، وهو الماء الجاري. (وقال ابن الرومي في هذا المعنى):

كأنما أفرغت من ماء لؤلؤة	في كل ناحية من وجهها قمر
كما اشتهت خلقت حتى إذا اكتملت	تمت قواما فلا طول ولا قصر

(ولبهاء الدين زهير بن محمد المذكور في مثل ذلك)

كلفت بها وقد تمت حلاها	فلا طول يعاب ولا اختصار
وشعر واصل الخلخال منها	فأضحي قرطها قلقا يغار
حكت فصل الربيع بحسن قد	تساوى الليل فيه والنهار

(وجاء) في وصف رسول الله ﷺ أنه كان معتدل القد، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد.[1] ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله هو ﷺ. آية خصه الله تعالى بها (قال أبو العباس في الكامل): لم يختلف أهل الحكمة والنظر من العرب والعجم أن الكمال في الاعتدال ولا يقال غير هذا عن حكيم، وأبين ما فيه ما اختاره الله تعالى لنبيه ﷺ قال: وقد كان يقال الكيس في القصر، وقد قيل في خبر قصير وكيده ما قيل مما صار كالمثل• وهذا من أغلاط أبى العباس -رحمه الله تعالى- فإن قصيرًا اسم لرجل، وهو قصير بن سعد، ولا يعلم أطويلاً كان أم قصيرًا (أبو الفرج في كتاب النساء) عن الأصمعي قال: قال ابن الزبير: لا يمنعنكم من تزوّج امرأة قصيرة قصرها، فإن القصيرة تلد الطويل والطويلة تلد القصير، ولكن تجنبوا المذكرة فإنها لا تنجب (قاسم بن ثابت) عن الأصمعي قال: كان أعرابي طويلاً قبيحًا فخطب امرأة، وقال: أريدها قصيرة جميلة ليأخذ الولد طولى وجمالها، قال: وتزوّجها على تلك الصفة، فجاء ولده على قبحه وقصرها (وقال كثير):

وأنت التي حببت كل قصيرة	إلى ولم يشعر بذاك القصائر
أردت قصيرات الحجال ولم أرد	قصار الخطا شر النساء البحاتر

البحاتر: القصيرات من قصر القامة (أبو الفرج في كتاب النساء) قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً قصيرًا، فقال: من رأى مبتلى، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به غيري وفضلني عليه وعلى كثير ممن خلق تفضيلاً عافاه الله مما ابتلاء به كائنًا ما كان.[2] فعد رسول الله ﷺ القصر بلية، يستعاذ بالله منه (وفي) حديث محمد بن على أن رسول الله ﷺ مر برجل نغاش أو قال: نغاشى فخرّ ساجدًا لله، ثم سأل الله العافية. قال الخطابي في غريب الحديث: النغاش بضم النون وبالغين والشين المعجمتين: الرجل القصير.

---

(١) [حسن] الترمذي في: المناقب: حديث (٣٦٣٨).

(٢) [ضعيف] الترمذي في: الدعوات: حديث (٣٤٣١)؛ وابن ماجه في: الدعاء: حديث (٣٨٩٢).

الباب الثامن عشر

جامع في الملاحة والجمال

(مكحول) عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[1] (وفي) حديث ابن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله. إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً وشراك نعلى حسنًا وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه، أفمن الكبر هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ: «لا، هذا من الجمال، والله يحب الجمال، ولكن الكبر سفه الحق وظلم الناس»[2] (أبو سعيد الخدرى رضي الله تعالى عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة تجلو البصر: الخضرة، والماء الجاري، والوجه الحسن»، ويروى أيضًا عن ابن عمر مرفوعًا[3] (نظم الشاعر ذلك فقال):

ثلاثـة تجلـو عـن القلـب الحـزن ... المـاء والخـضرة والوجـه الحـسن

(ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-) قال: قال رسول الله ﷺ: «النظر إلى الوجه الحسن يورث الفرح، والنظر إلى الوجه القبيح يورث الكلح»[4]• الكلح: تقبض الوجه من العبوس (وفي) الشهاب عن النبي ﷺ قال: «النظر إلى الجارية الحسناء يزيد في البصر»[5] (قال) بعض العلماء: إذا كان النظر إلى الوجه الحسن يزيد في البصر، فيقتضى أن النظر إلى الوجه القبيح ينقص منه (قال) الغزالى -رحمه الله تعالى- في الإحياء: يقال إن المرأة إذا كانت حسنة الصفات حسنة الأخلاق متسعة العين سوداء الحدقة متحببة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهي على صفة الحور العين، قال الله -تعالى- حين وصفهن ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾[الرحمن: ٧٠]، أراد بقوله تعالى ﴿ خَيْرَٰتٌ ﴾ حسن الخلق، وهذا بناء على أن الأصل خيرات بالتشديد فخفف، وبقوله تعالى ﴿ حِسَانٌ ﴾ حسن الصفات، وقال تعالى ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾[الواقعة: ٢٢]، فالحور: جمع حوراء، وهى الشديدة سواد الحدقة. والعين: جمع عيناء وهى المتسعة العين» وقال ﷻ ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾[الواقعة: ٣٧]، فالعرب: هي المتحببة لزوجها المشتهية للوقاع. قال: وبذلك تتم اللذة (وقال) ﷻ ﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾

---

(١) مسلم في: الإيمان: حديث (٩١/١٤٧)، وأحمد في «مسنده» (١٣٣/٤-١٣٤).

(٢) راجع تخريج الحديث السابق.

(٣) [ضعيف] أبو نعيم في «تاريخ أصفهان» (٣٦٦/٢)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٤٣٩/٢).

(٤) العجلوني في «كشف الخفاء» (٤٣٩/٢)، والفتني في «تذكرة الموضوعات» (١٦٢).

(٥) [موضوع] الموضوعات (١٦٣/١)، وتنزيه الشريعة (١٧٩/١)، وتذكرة الموضوعات (١٦٢).

[الرحمن:٥٦]، قال المفسرون: معناه قاصرات الطرف على أزواجهن، لا يرين بهم بدلاً (البزار) عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أبردتم إليّ بريدًا، فأبردوه حسن الوجه حسن الاسم**»[1] (وفي حديث) عنه ﷺ أنه قال: «**اطلبوا الخير عند حسان الوجوه**»،[2] فقال الشاعر يشير إلى ذلك:

أنت شرط النبي إذ قال: يوما ... اطلبوا الخير من حسان الوجوه

(ابن عباس ﷺ) قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آتاه الله وجهًا حسنًا، وخلقًا حسنًا، واسمًا حسنًا، فهو من صفوة خلق الله**»[3] (وفي) أثر: من كان له صورة حسنة، وحسب لا يشينه. ووسع عليه في الرزق، فهو من خالصة الله (عائشة -رضي الله تعالى عنها-) قالت: يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ﷻ فإن كانوا في القراءة سواء فأصبحهم وجهًا[4] (وكان) جعفر بن محمد يقول: الجمال مرحوم. وقالوا: شفيع الحسن مقبول (ونظم ذلك ابن فنبر المازني فقال):

ويلي على من أطار النوم فامتنعا ... وزاد قلبي إلى أوجاعه وجعا

كأنما الشمس في أعطافه لمعت ... حسنا أو البدر من أزراره طلعا

مستقبل بالذي يهوى وإن كثرت ... منه الذنوب ومعذور بما صنعا

في وجهه شافع يمحو إساءته ... من القلوب وجيه حيثما شفعا

(قال يحيى بن على المنجم): كنت يومًا بين يدي المعتضد وهو مقطب إذ أقبل بدر مولاه، وكان من الحسن على الصفة التي كان عليها، فلما رآه من بعيد ضحك، وقال: يا يحيى من الذي يقول• في وجهه شافع يمحو إساءته• الآبيات؟ فقلت: ابن فنبر، فقال: لله دره. ثم استنشدني الآبيات فأنشدته إياها، وقد انقلب تقطيبة ضحكًا وسرورًا (ومن) هذا أخذ المطرز الشاعر قوله:

---

(١) [صحيح] مجمع الزوائد (٤٧/٨)، وعزاه إلى «البزار»، ورواه ابن أبى شيبة في «مصنفه» (٣٤٩/١٢).

(٢) [موضوع] الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٨٥/٤)، والعقيلى في «الضعفاء الكبير» (١٢١/٢).

(٣) [موضوع] ابن الجوزى في «الموضوعات» (١٦٠/١)، والفتني في «تذكرة الموضوعات» (١٦٣)، وابن عدى في «الكامل» (١١٦٧/٣).

(٤) [موضوع] ابن الجوزى في «الموضوعات» (١٠٠/٢).

يـا صـاحبي بـإعلام المطـيرة لى	ظـبي إذا آنـست عـيني بـه نفـرا
إذا تكلـم واسـتجلت محاسـنه	عينى خلعت عليـه السمع والبصرا
فإن رنا قلت عن عين الغزال رنا	وإن مشى قلت غصن يحمل القمرا
إذا أتـى وجهـه بالـصبح متـضحا	جـاءت نوائبـه بالليـل معتكـرا
ومـا جـني قـط ذنبـا غـير معتـذر	إلا أتـى وجهـه بالحـسن معتـذرا

(التيفاشي في قادمة الجناح) قال: حاصر العلوي مدينة بالشام، فأشرف على تملكها وكان فيها امرأة مشهورة بالحسن، فقالت لأهل المدينة: أنا أكفيكموه، وخرجت فطلبت الوصول إليه، فلما حضرت بين يديه قالت ألست القائل:

نحـن قـوم تـذيبنا الأعـين النجـ	ـل علـى أننـا نـذيب الحديـدا
وترانـا لـذي الكريهـة أحـرا	را وفـى الـسلم للحـسان عبيـدا

قال: نعم، فألقت البرقع عن وجهها، وقالت: أحسنا ترى أم قبيحًا؟ قال: بل حسنًا قالت: فإن كنت عبدًا للحسان كما ذكرت فاسمع وأطع وارتحل عنا، قال: فنادي من حينه بالرحيل، فقال: له قواده إن البلد في أيدينا، وقد أشرفنا على فتحه، فقال: لا سبيل إلى الإقامة عليه ساعة واحدة، وخطب المرأة بعد ذلك فتزوّجها (الحكم بن عبد الله) قال: رأيت شريحًا على باب المسجد الحرام، فقلت له: ما وقوفك ههنا يا أبا أمية، فقال: أقف لعلى أنظر إلى وجه حسن (وقال الشاعر):

إنـي امـرؤ مولـع بالحـسن أتبعـه	لاحـظ لى فيـه إلا لـذة النظـر

(صاحب الكمائم) قال: كان محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان يسمى الديباج لجماله، وقالت له امرأة يومًا: أنت تفخر بالجمال، وإنما ذلك فخر النساء وفخر الرجال بالإجمال، فقال لها: وإذا جمع الرجل بين الجمال والإجمال فقد حاز مرتبة الكمال (حماد بن اسحق) عن أبيه قال: كانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها، فعاتبها مصعب بن الزبير في ذلك، فقالت: إن الله وسمني بميسم جمال، فأحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم، فما كنت لأستره، ولو علمت في وصمة استتر بها لاستترت لها. وكان مصعب إذا عزم عليها في الاستتار استترت، وإذا سكت عنها أسفرت وباشرت الناس (قال) ابن حزم: كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا رأى امرأة منتقبة قال لها اسفرى نقابك فإن رآها

حسنة أمرها أن تنتقب، وإن رآها قبيحة منعها من النقاب (وأنشد الزبير بن بكار):

ليـت النقـاب علـى النـساء محـرم　　　　كـي لا تغـر قبيحـة بنقابهـا

(أبو الفرج في الأغاني) قال: نازعت عائشة بنت طلحة زوجها إلى أبى هريرة ﷺ فسقط خمارها عن وجهها، فقال أبو هريرة: سبحان الله ما أجملك وأحسنك، والله لكأنما خرجت من الجنة، قال: فلما سمع زوجها ذلك هاج في نفسه منها هائج، فقام فترضاها وأخذ بيدها، ورجع إلى ما أرادت منه (الحضري في الزهر) قال: خرج أبو حازم يرمى الجمار ومعه قوم ناسكون وهو يحدثهم، فبينما هم كذلك إذ نظروا إلى امرأة من أجمل الناس تتلفت يمنة ويسرة وقد شغلت الناس وبهتوا ينظرون إليها، وخاض بعضهم في بعض فقال لها أبو حازم: يا هذه اتقى الله، فإنك في مشعر من مشاعر الله وقد فتنت الناس، فاضربي على جيبك بخمارك، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]. فأقبلت تضحك من كلامه، وقالت: يا هذا، إني ممن قال فيه الحارث بن خالد:

أماطت كساء الخز عـن حـر وجههـا　　　　وأرخت على الكشحين بـردا مهـلـلا

من اللاء لم يجعجـن يـبغين حـسبة　　　　ولكـــن ليقـــتلن الـــبرى المغفـــلا

فاقبل أبو حازم على أصحابه فقال: يا هؤلاء، تعالوا ندع الله أن لا يعذب هذه الصورة الحسنة بالنار، فجعل يدعو وأصحابه يؤمنون، وبلغ ذلك سعيد بن المسيب، فقال: أما والله لو كان بعض بغضاء العراق لقال لها اغربي قبحك الله، ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز• أبو حازم هذا هو: أبو حازم سلمة بن دينار من كبار التابعين، روى عنه مالك وابن أبى ذئب ونظراؤهما (قال الأصمعي): رأيت في الطواف جارية كأنها مهاة قد فتنت الناس جميعًا بجمالها، فوقفت أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها، فقالت: مالك يا هذا؟ قلت: وما عليك من النظر، فأنشدت تقول:

وكنـــت إذا أرســلت طرفـك رائـدا　　　　لقلبـــك يومـــا أتعبتـــك المنـــاظر

رأيـــت الـــذي لا كلـــه أنـــت قـــادر　　　　عليـــه ولا عـــن بعـــضه أنـــت صـــابر

(وفي) بعض روايات هذا الخير عن الأصمعي قال: كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون: جاءت الصعيل ونهضوا فنهضت معهم لأنظر، فإذا جارية قد وردت الماء لم أر قط مثلها حسن وجه وكمال خلق، قال: فلما رأت تشوق الناس وإلحاحهم بالنظر

نحوها أرسلت برقعها، فكأنما غمامة غطت شمسًا، فقلت: يا أمة الله، لو متعتينا من النظر إلى هذا الوجه الحسن. فأنشدت البيتين المتقدمين (وكست) سكينة بنت الحسن -رضي الله تعالى عنهما- ابنة لها درًا كثيرًا، وقالت: والله ما كسوتها إياه إلا لتفضحه بحسنها (وقال خليلان المغنى): دخلت دار هرون الرشيد، فرأيت جارية خماسية من أحسن الناس وجهًا، على خدها سطران مكتوبان بالغالية فيهما مما عمل في طراز الله فتنة لعباد الله. خليلان هذا هو: عتاب بن عباد بن سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب الأموي من ذوى الشرف الذي أخل الغناء بشرفهم (وقالوا): الجميلة هي التي تأخذ ببصرك على البعد، والمليحة هي التي تأخذ بقلبك على القرب (قال أبو الفرج في الأغاني): قالت سكينة بنت الحسن يومًا لعائشة بنت طلحة: أنا أجمل منك، وقالت عائشة بنت طلحة: بل أنا أجمل منك. واختصما إلى عمر بن أبى ربيعة، فقال: لاقضين بينكما، أما أنت يا سكينة فأملح. وأما أنت يا[1] عائشة فأجمل، قال: فقالت سكينة: قضيت لى والله عليها (وقالت) امرأة لخالد بن صفوان: ما أجملك يا أبا صفوان، قال: وكيف تقولين ذلك وليس لى عمود الجمال ولارداؤه ولا برنسه، أما عموده فالقوام والاعتدال، وأنا قصير، وأما رداؤه فالبياض ولست بأبيض، وأما برنسه فسواد الشعر وجعودته وأنا أصلع، ولو قلت ما أملحك لصدقت (أبو الفرج في كتاب النساء) قال: كان محمد بن المنذر بن الزبير يسمى الديباج لجماله وحسن وجهه. وقد تقدم أن محمد بن عبد الله بن عثمان بن عفان ﷺ كان يسمى كذلك، قال: فخطب هو وعبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ امرأة فجعلت تسأل عنهما، ثم خرجت ليلة تريد الصلاة في مسجد النبي ﷺ فرأتهما قائمين في القمر يتعاتبان في شأنها، وكان وجه عبد العزيز إليها، فنظرت إلى بياضه وطوله، فقالت: ما يكون أحد أجمل من هذا فتزوّجته، فجمع الناس وأقبل للدخول فكان فيمن وصل إليه محمد بن المنذر، فأكرمه عبد العزيز ورفع مجلسه، فلما فرغ الناس من طعامهم بارك له وانصرف، فرأته فندمت على ما فاتها من جماله. قال ويقال: إنها ماتت أسفًا عليه (وذكر أعرابي رجلاً جميلاً فقال): والله لو أبصرته العيدان لتحركت أوتارها، ولو رأته مؤنسة لانحل أزارها (وقال بعض الأعراب):

مــاذا تظــن بــسلمى أن ألم بهــا	مرجـل الـشعر صـافى اللـون مـزاح
حــز عمامتــه حلــو فكاهتــه	في كفـه مـن رقـى إبلـيس مفتـاح

(وهذا كقول عبد الرحمن بن الحكم)

(١) حرف النداء «يا» ليست بالمخطوط، وإثباتها من المحقق.

وكـاس تـرى بـين الإنـاء وبينهـا قـذى العـين قـد تارعـت أم أبـان

تـرى شـاربيها حـين يغمورانهـا يمـيلان أحيانـا ويعتـدلان

فمـا ظـن واشـينا بـأبيض ماجـد وبيـضاء خـود حـين يلتقيـان

دعـتني أخاهـا أم عمـرو ولم أكـن أخاهـا ولم أرضـع لهـا بلبـان

دعـتني أخاهـا بعـدما كـان بيننـا مـن الأمـر مـا لا يفعـل الأخـوان

(وفي) معنى قوله دعتني أخاها قول العرب في مثل من أمثالها: رب أخ لك لم تلده أمك• وأصل المثل أن لقمان بن عاد رأي امرأة وقد خلا بها رجل وهي تلاعبه ومعهما صبي يبكي، وهما قد أقبلا على شأنهما لا يكترثان به، فسألها عن الرجل. فقالت: هو أخي، فقال: رب أخ لك لم تلده أمك، أي إنما هو أخوك بالمحبة والصداقة لا بالولادة (قال بعضهم): كانت الفرس تتيمن بالوجه الحسن، وتقول إن الحسن أول سعادة المرء، فإن الله -تعالى- بلطيف حكمته وشريف إبداعه وصنعته لم يخلق شيئًا عبثًا، ولم يجعل الصورة مختارة الصفات سليمة من الآفات إلا عن فضل احتفاء منه تعالى بها (قالوا): وقلما توجد الأخلاق إلا تابعة للخلق تناسبًا يطرد وأصلاً لا ينعكس (وقال أبو الريحان البيروني) في فصل من كتابه المسمى بالجماهر: فأما الحسن ففي الصورة، والجمال في الهيئة، فهما محبوبان بالطبع مرغوب فيهما حتى أن رسول الله ﷺ كان يستوفد حسان الوجوه والأسماء، وكان ينقل الأسماء المستكرهة في الناس والبقاع إلى الأسماء المستحسنة. وقد قدمنا أيضًا نحن آنفا حديث بريدة في قوله ﷺ «إذا أبردتم إلى بريد- الحديث» (وفي) حديث قتادة عن أنس قال: ما بعث الله نبيًا إلاَّ حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم ﷺ أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا. خرجه الدار قطني وذكره عياض في الشفاء.[1]

---

(١) ابن عدى في «الكامل» (٨٤٠/٢)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» ترجمة (١٨٠٠).

وهذا فصل في ترتيب أوصاف الحسن
وتنزيل الألفاظ اللغوية عليها، منقول من كتاب فقه اللغة

(قال) أبو منصور: إذا كانت على المرأة مسحة من جمال فهي جميلة ووضيئة، فإذا أشبه بعضها بعضًا في الحسن فهي حسانة، فإذا استغنت بجمالها عن الزينة فهي غانية. فإذا كانت لا تبالي أن تلبس ثوبًا حسنًا ولا تتقلد قلادة حسنة فهي معطال، فإذا كان حسنها ثابتًا كأنه قد وسم فهي وسيمة، فإذا قسم لها حظ من الحسن فهي قسيمة، فإذا كان النظر إليها يسر الروح فهي رائعة، فإذا غلبت النساء بحسنها فهي باهرة (وقال) في فصل ثان من الكتاب المذكور: الصباحة في الوجه، والوضاءة في البشرة، والجمال في الأنف والحلاوة في العينين، والملاحة في الفم، والظرف في اللسان، والرشاقة في القد، واللياقة في الشمائل وكمال الحسن في الشعر (وقال) غيره: والبراعة في الجيد، والرقة في الأطراف. وأكثر هذا التذييل على التقريب، والتحقيق منه بعيد.

الباب التاسع عشر

في ذكر أوصاف النساء على الإجمال

(كان) بالمدينة في زمن رسول الله ﷺ ثلاثة من المخنثين يدخلون على النساء فلا يحجبون، وهم: هيت، وهرم، ومانع• وكان هيت يدخل إلى أزواج النبي ﷺ فدخل يومًا دار أم سلمة ورسول الله ﷺ عندها، فأقبل على أخي أم سلمة عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة. فقال: إن فتح الله عليكم الطائف غدًا فعليك ببادية بنت غيلان سلمة بن معتب، فإنها مبتلة هيفاء شموع نجلاء، إن قامت تثنت، وإن قعدت تبنت، وإن تكلمت تغنت، تقبل بأربع وتدبر بثمان مع ثغر كالأقحوان وثدي كالرمان، أعلاها قضيب وأسفلها كثيب، وبين رجليها كالعقب المكفوء، فهي كما قال قيس بن الحطيم:

تغـــترق الطـــرف وهـــي لاهيـــة ... كأنمـــا شـــف وجههـــا تـــرف

بـــين شـــكول النـــساء خلقتهـــا ... قـــصد فـــلا جبلـــة ولا قـــضف

فقال رسول الله ﷺ حين سمع كلامه: «لقد غلغلت النظر، ما كنت أحسبك إلا من غير أولى الإربة. وكان رسول الله ﷺ يضحك من كلامه ويظن ذلك نقصًا من عقله، فلما سمع منه ما سمع قال: لنسائه «لا يدخل هيت عليكن»، وأمر أن يسير إلى خارج، فبقى هنالك حتى قبض رسول الله ﷺ فلما ولى أبو بكر ﷺ كلم فيه فأبى أن يرده، فلما ولى عمر ﷺ كلم فيه فأبى أن يرده، وقال: إن رأيته بالمدينة ضربت عنقه، فلما ولى عثمان كلم فيه فأبى أن يرده، فقيل له: إنه قد كبر وضعف واحتاج، فأذن له أن يدخل كل جمعة فيسأل ويرجع إلى مكانه. هذه رواية أهل الأخبار (وخرجه) مسلم عن عائشة مختصرًا، فقال فيه: كان يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، فكانوا يعدونه من غير أولى الإربة، فدخل النبي ﷺ يومًا وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة، فقال: إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «لا أرى هذا يعرف ماهنا لا يدخل عليكن» قال: فحجبوه. زاد أبو داود في هذا الحديث: فأخرج، وكان بالبيداء يدخل كل جمعة يستطعم[1] (قوله فإنها مبتلة هيفاء) المبتلة: التامة الخلق التي لم يركب بعض لحمها بعضًا، ولا يوصف الرجل بذلك. والهيفاء: اللطيفة البطن الضامرة الخصر. والشموع: اللعوب الضحوك. والنجلاء: المتسعة العين (وقوله وإن قعدت تبنت) قال الأصفهانى في كتاب أفعل: التبني

---

(١) مسلم في: السلام: حديث (٣٣/٢١٨١)، وأبو داود في: اللباس: حديث (٤١٠٧).

تباعد ما بين الفخذين، قال: وقيل معنى تبنت صارت كالبنيان (وقوله تقبل بأربع وتدبر بثمان) قال المازرى في المعلم عن أبى عبيدة: معناه تقبل بأربع عكن ولكل عكنة طرفان فتصير ثمانية تدبر، بهن، وهذا كلام غير مفهوم، ولكن الشراح استمروا عليه، قال: وإنما أنث فقال بثمان ولم يقل بثمانية والأطراف مذكرة لأنه لم يذكر الأطراف، ولو ذكرها لم يكن بد من التذكير (وقوله) في شعر قيس بن الحطيم: تغترق الطرف- بالغين المعجمة- أي تستغرق نظره وتستوفيه. قال السهيلى في الروض الأنف: ويقال ابن دريد صحف هذه اللفظة فقالها بالعين المهملة وصحف أيضًا قول مهلهل:

أنكحهـــا فقـــدها الأراقـــم في ... جنـــب وكـــان الحبـــاء مـــن أدم

فقال فيه الخباء بالخاء المعجمة، فقال فيه الشاعر:

ألم تـصحف فقلـت تعـترف الطـر ... ف بجهـــل مكـــان تغـــترق

وقلـت كـان الخبـاء مـن أدم وهـ ... ـو حبــاء يهــدى ويــسترق

(وهيت) الأشهر فيه أنه بياء معتلة بعدها تاء صحيحة مثناة، وقال بعضهم: صوابه هنب بنون ساكنة بعدها باء مفردة، حكاه عياض عن بعض شيوخه (وأما) بادنة، فالباء المفردة بعدها دال مهملة ثم ياء معتلة، وسمعت بعض شيوخنا يذكر أن الصواب فيها بادية بالنون عوض الياء المعتلة، ولم أر ذلك منقولاً، ويذكر أن بادية هذه توقيت في زمن عمر ﷺ وأنه صلى عليها فرأى منها ما يشق عليه يريد من شحمها، فأخبرته أم سلمة أنها رأت بأرض الحبشة أعوادًا يغطى بها النعش ووصفتها له، فقال عمر: نعم، هودج الظعينة هذا فكانت أوّل امرأة غطى نعشها (قال أبو الفرج في الأغاني): وكان هيت مولى لعبد الله بن أبى أمية، فلذلك حضه على بادية ووصفها له، قال: ولما فتحت الطائف تزوّج بادية عبد الرحمن بن عوف ﷺ فولدت له ابنته بريهة. وسيأتي في باب الغيرة ذكر المخنثين (قال اسحق بن إبراهيم): قيل لنعمان المخنث كيف رأيت عائشة بنت طلحة؟ قال: أحسن البشر، قيل له: صفها، قال: تناصف وجهها في القسامة وتجزأ معتدلاً في الوسامة، إن تكلمت تغنت، وإن مشت تثنت (قوله) تناصف وجهها في القسامة: أي أخذ كل موضع منه حظه من الحسن لم ينفرد بالحسن موضع دون موضع فيغيبن أحد المواضع حقه، والقسامة الحسن وهو أيضًا معنى قوله وتجزأ معتدلاً في الوسامة، أي أن الوسامة عمت جميع أجزائه بالسوية (قال) الزبير في الموفقيات: بلغ الحارث بن عمرو بن حجر الكندي

عن الحسناء بنت عوف ابن محلم الشيبانى جمال وكمال، فأرسل إليها امرأة من كندة يقال لها عصام، فقال لها: اذهبي، فاعلمي لى علم الجارية، قالت: فأتيت، فإذا امرأة كأنها المهاة الوحشية وإذا حولها بنات لها كأنهن الغزلان، فأعلمتها بالذي جئت له، فأرسلت إلى ابنتها: أي بنية هذه خالتك قد جاءتك لتنظر بعض شأنك، فلا تستري عنها شيئًا من أوصافك. وناطقيها إن استنطقتك، قال: فأذنت لها، فلما دخلت عليها وتوسمت خلقها رأت أحسن الناس وجهًا وجسمًا، ثم خرجت وهى تقول: ترك الخداع من كشف القناع حتى دخلت على الحارث، فقال: ما وراءك يا عصام؟ قالت: أصلح الله الأمير، أقول حقًا وأخبرك صدقًا، رأيت وجهًا كالمرآة الصقيلة، يزينه حالك كذنب الحسيلة، فيه حاجبان كأنهما خطا بقلم أو سوّدا بحمم، تقوسا على مثل عين الظبية المعبهرة يبهتان المتوسم إن فتحتهما، ويخللان بأشفارهما ما تحتهما، بينهما أنف كحد السيف الصقيل لم يزر به قصر ولم يعبه طول. حفت به وجنتان[1] كالأرجوان في بياض محض كالجمان، شق فيه فم لذيذ المبسم، فيه ثنايا ذات أشر وأسنان كالدر، ينطق فيه لسان ذو فصاحة وبيان، ركب ذلك على عنق فض فوق صدر غض، نشأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عنهما ثيابها ويمنعانها من تقلد سخابها، تحت ذلك كله بطن كالقباطى المدبجة كسي عكنًا كالطوامير المدرجة، أحاطت تلك العكن بسرة لها كمدهن العاج ينتهي ذلك خصر لطيف تحته كفل ينهضها إذا قامت ويقعدها إذا نهضت كأنه دعص رملة، وتحته فخذان لفاوان متصل بهما ساقان أبيضان يحمل ذلك كله قدمان كحدر اللسان، فتبارك الله مع صغرهما كيف يطيقان حمل ما فوقهما. وأما ما سوى ذلك فإني تركت وصفه لوقت مشاهدته قال: فأرسل الحارث إليها فتزوّجها وهى أم أولاده المتوجين. انتهي ما ذكره الزبيره الحسيلة: الأنثى من البقر. والمعبهرة: الحسنة الخلق المتلئة الجسم، والأشر: تحزيز يكون في أطراف الأسنان وهو مما يستحسن، وأكثر ما يكون مع الصغر. والسخاب: قلادة تتخذ من غير الجوهر. وقد تقدم ذكر وصية أم هذه المرأة لابنتها حين أهدتها للحارث في باب قبل هذا (أبو الفرج في الأغاني) قال: اجتمع مصعب بن الزبير وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر وعمرو بن سعيد بن العاص وأتتهم عزة الميلاء، فقالوا لها: إنا قد خطبنا، وأردنا منك أن تنظري لنا نساءنا، فسألت مصعبًا عمن خطب، فقال: عائشة بنت طلحة، وسألت عبد الله، فقال: أم القاسم بنت زكريا بن أبى طلحة، وسألت عمرو بن سعيد، فقال: عائشة بنت عثمان،

---

(١) في المخطوط «وجنتات» بالتاء في آخره، والمثبت هو الصواب.

فتوجهت لتنظر إليهن، فبدأت بعائشة بنت طلحة فدخلت عليها فأكرمتها عائشة وسرت بها وسألتها عن حاجتها، فقالت لها: إني كنت في نسوة من قريش فتذاكرنا جمال النساء وخلقهن فذكرتك فلم أدر كيف أصفك، فقالت: فماذا تريدين؟ قالت: فديتك، أقبلي وأدبري، فأقبلت وأدبرت فارتج منها كل شيء، فقالت لها عزة: خذي ثوبك، فأخذته فرأتها من أحسن الناس صورة وأتمهم محاسن فعوذتها، وقالت لها: ما أظن أن الله – تعالى– جعل لصورتك هذه شبيهًا في الدنيا وودعتها، وانصرفت إلى أم القاسم فأكرمتها وسرت بها وسألتها عن حاجتها، وعرفتها بمثل ذلك، وسألتها أن تقبل وتدبر، فأقبلت وأدبرت فرأت منها ما أعجبها فعوذتها، وقالت: لها يا أم القاسم، ما رأيت حسنًا إلا وأنت أحسن منه وودعتها وانصرفت، وفعلت مثل ذلك مع عائشة بنت عثمان، ورجعت إليهم وهم ينتظرونها، فقالوا: ما صنعت؟ فقالت لمصعب: أما عائشة فلا والله ما رأيت مثلها قط مقبلة ولا مدبرة، مخطوطة المتنين، عظيمة العجيزة، ممتلئة الترائب نقية الثغر وضيئة الوجه، فرعاء الشعر، لفاء الفخذين، مبتسلة الخصر، خميصة البطن، ذات عكن ضخمة السرة، يرتج ما بين أعلاها وأسفلها، وفيها عيبان أذنان يجاوزان الحد في الكبر وقدمان كذلك، ولكن الأوّل يواريه الخمار والثاني يواريه الخف. ثم قالت لعبد الله بن عبد الرحمن وأما أم القاسم فكأنها خوطبان أو جدول عنان لو شئت أن تعقد أطرافها لفعلت، ولكنها شحمة الصدر وأنت عريض الصدر، وإن كان ذلك قبيحًا لا والله حتى يملأ كل شيء مثله. وقالت لعمرو بن سعيد: وأما عائشة، فوالله ما رأيت مثل خلقتها قط، لكأنها أفرغت في قالب حسن إفراغًا غير أن في وجهها ردة، قال: فوصلوها وتزوّجوهن (قولها) غير أن في وجهها ردة بفتح الراء تريد أن وجهها ينقص في الحسن عن بدنها، وقال بعضهم: الردة تقاعس في الذقن (أبو علي في الأمالي) قال: كان لرجل من مقاول حمير ابنان قد برعا في الأدب والعلم، فكان اسم أحدهما عمروًا، واسم، الآخر ربيعة. قال: فلما بلغ الشيخ أقصى عمره دعاهما ليبلو عقولهما ويعرف مبلغ علمهما، فقال لعمرو– وكان الأكبر–: يا عمرو أخبرني عن أحب النساء إليك، فقال: الهركولة اللفاء المكورة الجيداء التي يشفى السقيم كلامها ويبرئ الوصب إلمامها التي إذا أحسنت إليها شكرت وإن أسأت إليها صبرت، وإن استعتبتها أعتبت، الفاترة الطرف، الطفلة الكف، العميمة الردف. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: نعت فأحسن، وغيرها أحب إلي منها، قال: ومن هي؟ قال: الفتانة العينين، الأسيلة الخدين، الكاعب الثديين الرداح الوركين، الشاكرة للقليل، المساعدة للخليل، الرخيمة الكلام، الجماء العظام، العذبة اللثام، الكريمة الأخوال والأعمام (قال أبو علي): اللفاء:

الملتفة اللحم، والمكورة: المطوية الخلق، والرداح: الثقيلة العجيزة الضخمة الوركين، والرخيمة: اللينة الكلام، والجماء: العظام التي لا يوجد لعظامها حجم. قال: وقوله العذبة اللثام: أراد موضع اللثام، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه. وبقى مما لم يفسره أبو على الهركولة: وهى العظيمة الوركين، والجيداء: هي الطويلة العنق، والطفلة الكف: هي الرخصة (ومن الكتاب المذكور) قال: وصف أعرابي نساء فقال: يتلثمن على السنابك، ويتشحن على النيازك، ويتزرن على العواتك ويرتفقن على الأرائك، ويتهادين على الدرانك، ابتسامهن وميض عن كالأغريض، وهن إلى الصبا صور وعن الخنانور (قال) أبو على: يقال تلثمت المرأة وتلفمت فاللثام على الفم واللفام على طرف الأنف، والنيازك: جمع نيزك وهو الرمح القصير، والعواتك: جمع عاتك وهو الرمل المنعقد، والأرائك السرر واحدها أريكة. كذا قال أبو على وقال صاعد في الفصوص: الأريكة الحجلة إذا كانت على سرير، فإن لم تكن على سرير فهي حجلة، ويتهادين: أي يمشين مشيًا ضعيفًا، والدرانك: الطنافس واحدها درنك بضم الدال وضم النون، والوميض: اللمعان الخفي، والأغريض: طلع النخل. وصواري: موائل ونوارى فض (أبو الفرج) قال: قال رجل لأعرابية إني أريد أن أتزوّج. فصفى لى النساء، فقالت: عليك بالبضة البيضاء الدرماء اللعساء الشماء الجيداء الزبحلة السبحلة المدبجة المتن الخمصة البطن ذات الثدى الناهد والفرع الوارد والعين النجلاء والحدقة الكحلاء والعجيرة الوتيرة والساق المكورة والقدم الصغيرة، فإن أصبتها فأعطها الحكم فإنها غنم من الغنم (وقال الأصمعي): سمعت امرأة من العرب تقول في وصف امرأة: هي سعطاء، بضة بيضاء، غضة ردماء، سهلة فناء، طفلة تنظر بعيني شادن ظمآن، وتبسم عن نور كالأقحوان في غب التهتان، وتشير بأساريغ الكثبان، خلقها عميم، وكلامها رخيم (قال): وتزوّج أعرابي امرأة، فقيل له: كيف وجدتها؟ قال: رصوفاء رشوفاء ألوفاء أنوفاء، رصوفاء: ضيقة الفرج، ورشوفاء: طيبة المقبل، وألوفاء: محبة لبعلها، وأنوفاء: بعيدة عما لا خير فيه (ووصف) أعرابي[1] نساء فقال: كلامهن اقتل من النبل، وأوقع في القلب من الوبل في المحل، وفروعهن أحسن من فروع النخل (وقال أعرابي): قدمت البصرة، فرأيت بها عيونًا دعجًا وحواجب[2] زجًّا يسحبن الثياب، ويسلبن الألباب (وذكر بعضهم) امرأة فقال: كاد الغزال يكونها، لولا ما تم منها ونقص منه (وقال آخر): خلوت بها والقمر يرينيها فلما غاب أرتنيه (وذكر آخر) امرأة فقال: كأنما وجهها بستان، وكأنما

---

(١) في المخطوط «عرابي»، والمثبت من المحقق.

(٢) في المخطوط «وجواجب»، والمثبت من المحقق.

قدها غصن بان، وكأنما خصرها جدل عنان، شعرها سرج، ورؤيتها فرح وفرج، كأنها شمس وقمر ونور وزهر (وذكر آخر) امرأة فقال: مطلع الشمس من وجهها، وملقط الدر من فمها، ومنبت الورد من خدها ومنبع السحر من طرفها، ومبادى الليل من شعرها، ومغرس الغصن من قدها. ومهيل الرمل من ردفها، أعلاها كالغصن ميال، وأسفلها كالدعص منهال (وسئل) أعرابي عن امرأة فقال: هي أرق من الهواء، وأطيب من الماء، وأحسن من النعماء، وأبعد من السماء (وقيل) لأعرابية: أتحسنين صفة النساء؟ قالت: نعم، قيل لها: صفى لنا امرأة كاملة، قالت: إذا سحرت عيناها وسهل خدّاها ونهد ثدياها ولطفت كفاها وأنعم ساعداها وعظم وركاها والتفت فخذاها وخذل ساقاها فتلك هم النفس ومناها (وروى) عن بعض الأكاسرة أنه قال: ينبغي أن يكون في المرأة أربعة سود وأربعة بيض وأربعة حمر وأربعة كبار وأربعة صغار وأربعة واسعة وأربعة ضيقة• فأما الأربعة السود: فشعر الرأس، والحاجبين. وأشفار العينين، والحدقتان• وأما الأربعة البيض: فاللون، وبياض العينين، والثغر، والظفر إلا أن يصبغ• وأما الأربعة الحمر: فالوجنتان والشفتان، واللسان، واللثة• وأما الأربعة الكبار: فالثديان، والفرج، والعجيزة، والركبتان• وأما الأربعة الصغار: فالأذنان، والفم، واليدان، والرجلان• وأما الأربعة الواسعة: فالجبين، والعينان، وأصول الثديين، والسرة• وأما الأربعة الضيقة: فالمنخران، والأذنان، والخصر، والفرج• وبقريب مما فسرت ههنا الأربعة الكبار وضدها فسر قول عروة بن أذينة أنشده الحضري في الزهر وذكر الأبيات بكمالها، والمراد البيت الخامس منها:

إن الــتي زعمــت فــؤادك ملــها	خلقت هواك كما خلقت هـوى لهـا
كيــف الــذي زعمــت بــه وكلاكمـا	أبــدى لــصاحبه الــصبابة كلــها
ولعمرهــا لــو كــان حبــك فوقهــا	يومــا وقــد صــحبت إذا لا ظلــها
فإذا وجدت لها وساوس سلوة بيضاء	شــفع الــضمير إلى الفــؤاد فملــها
باكرهـــا النعـــيم فـــصاغها	بلبانـــه فأدقهـــا وأجلـــها•
لمــا عرضــت مــسلما لى حاجــة	أخــشى صــعوبتها وأرجــو ذلهــا
منعــت تحيتهــا فقلــت لــصاحبى	مــا كــان أكثرهــا لنــا وأقلــها
فـــدنا وقـــال لعلـــها معـــذورة	في بعــض رقبتهــا فقلــت لعلــها

(قال ابن الأعرابي): أدقها أي أدق حاجبيها وأنفها وخصرها، وأجلها: أي أجل عضديها وساقيها وفرجها• وهذا كما قال الآخر:

فـدقت وجلـت واسـتكرت وأكملـت فلـو جـن إنـسان مـن الحـسن جنـت

وقوله في هذه الأبيات: فإذا وجدت لها وساوس سلوة. البيت هو كما قال الأحوص:

إذا رمـت عنهـا سـلوة قـال شـافع مـن الحـب ميعـاد الـسلو المقـابر

(وقوله) فيها• ما كان أكثرها لنا وأقلها• قال البكري في اللآلئ: يريد أن تحيتها وإن كانت نزرة قليلة فإنها عنده كثيرة جليلة، فالضمير على هذا عائد على التحية. قال: وهذا كما قال العباس بن قطن:

ألـيس قلـيلاً نظـرة إن نظرتهـا إليـك وكـلاً لـيس منـك قليـل

وكما قال إسحق بن إبراهيم

إن مـا قـل منـك يكثـر عنـدي وكـثير ممـن تحـب القليـل

وقال ابن جني: معناه ما كان أكثرها لنا فيما مضى وأقلها الآن، قال: وهو على حذف المضاف، أي ما كان أكثر وصالها أو مودتها، وقول البكري أحسن (قال) مصعب بن عبد الله الزبيري حدثني عروة بن عبد الله قال: كان عروة بن أذينه نازلاً في داري بالعقيق، فسمعته ينشد لنفسه هذه الأبيات، قال: فأتاني أبو السائب المخزومي، فقلت له بعد الترحيب به: ألك حاجة؟ قال: نعم، أبيات لعروة بلغني أنك سمعته ينشدها، فأنشدته الآبيات، فلما بلغت قوله:

فـدنا وقـال لعلـها معـذورة في بعـض رقبتهـا فقلـت لعلـها

طرب، وقال: هذا والله الدائم الصبابة الصادق العهد لا الذي يقول:

إن كـان أهلـك يمنعونـك رغبـة عنـي فـأهلي بـي أضـن وأرغـب

لقد عدا هذا الأعرابي طوره، وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحب هذه الآبيات بحسن الظن بها وطلب العذر لها، قال: فعرضت عليه الطعام، فقال: لا والله ما كنت لأخلط بهذه الآبيات طعامًا حتى الليل، وانصرف (وأنشد) أبو الفرج الأصفهاني هذه الآبيات في كتاب القيان. وزعم أنه وجدها في شعر أبي الشيص، وزاد فيها بعد البيت الثاني:

إنـى لأضـمر في الحـشا وجـدا بهـا لـو كـان تحـت فراشـها لأقلـها

وقال بعده:

ولعمرها لو كان حبك فوقها

(ومن) هذا البيت والذي قبله أخذ القائل قوله:

إني أحبك حبًّا لو كـان تحتـك لأقلـك ولـو كـان فوقـك لأظلـك

وبالله ﷻ التوفيق.

(وهذا فصل في تفصيل الأوصاف المحمودة من خلق المرأة والمستحب من سائر تصرفاتها وأفعالها منقول من كتاب فقه اللغة لأبي منصور، رحمه الله تعالى)

(قال): إذا كانت المرأة شابة حسنة الخلق فهي خود، فإذا كانت جميلة الوجه حسنة المعرى فهي بهنكة، فإذا كانت ضخمة فهي زبحلة، فإذا زاد ضخمها ولم تقبح فهي سبحلة، فإذا كانت دقيقة المحاسن فهي ممكورة، فإذا كانت حسنة القد لينة العصب فهي مبتلة، فإذا كانت لطيفة البطن فهي هيفاء وقباء وخص أنة فإذا كانت لطيفة الكشحين فهي هضيم، فإذا كانت لطيفة الخصر مع امتداد القامة فهي ممشوقة، فإذا كانت طويلة العنق في اعتدال وحسن فهي عطبول، فإذا كانت عظيمة الوركين فهي هركولة، فإذا كانت عظيمة العجيزة فهي رداح، فإذا كانت سمينة ممتلئة الذراعين والساقين فهي خدلجة، فإذا كانت ترتج من سمنها فهي مرمارة، فإذا كانت كأنها ترعد من الرطوبة والغضاضة فهي رهرهة، فإذا كانت كأن الماء يجرى في وجهها فهي رقراقة، فإذا كانت رقيقة الجلد ناعمة البشرة فهي بضة، فإذا عرفت في وجهها نضرة النعمة فهي منق، فإذا كان فيها فتور عند القيام لسمنها فهي أناة ووهنانة، فإذا كانت طيبة الريح فهي بهنانة، فإذا كانت عظيمة الخلق مع الجمال فهي عبهرة، فإذا كانت ناعمة جميلة فهي عبقرة، فإذا كانت مغشية من اللين والنعمة فهي غيدة أو غادة، فإذا كانت طيبة الفم فهي رشوف، فإذا كانت طيبة ريح الأنف فهي أنوف، فإذا كانت طيبة الخلوة فهي لصرف، فإذا كانت لعوبًا ضحوكًا فهي شموع، فإذا كانت تامة الشعر فهي فرعاء، فإذا لم يكن لمرفقيها حجم من سمنها فهي رفاء، فإذا ضاق ملتقى فخذيها لكثرة لحمها فهي لقاء (وله في فصل ثان من الكتاب المذكور) قال: إذا كانت المرأة حيية فهي خفرة وخريدة، فإذا كانت تظهر للناس وتحادثهم فهي برزة، فإذا كانت منخفضة الصوت فهي رخيمة، فإذا كانت محبة للزوج متحببة إليه فهي عروب. فإذا كانت نفورًا من الريبة فهي نوار، فإذا كانت عروسًا فهي هدى، فإذا كانت بخاتم ربها فهي بكر وعذراء، فإذا فض خاتمها فهي ثيب وعوان، فإذا كانت عفيفة فهي حصان. فإذا أحصنها زوجها فهي محصنة، فإذا كانت كثيرة الولد فهي نثور، فإذا كانت قليلة الولد فهي نزور، فإذا كانت تلد الذكور فهي مذكار، فإذا كانت تلد الإناث فهي مئناث، فإذا كانت تعاقب بين الذكور والإناث فهي معقاب، فإذا كانت لا يعيش لها ولد فهي مقلاة، فإذا كانت تأتى بتوأمين فهي متآم، فإذا كانت تلد النجباء فهي منجاب، فإذا كان لها ضرات فهي مضرة.

الباب العشرون

في ذكر أوصافهن على التفصيل وما ورد في ذلك من المغايرة والتفضيل

وفيه عشرون فصلاً

فصل في ذكر الشعور

(أبو الفرج في كتاب النساء) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوّج أحدكم المرأة ليسأل عن شعرها، فإن الشعر أحد الجمالين»[1] (حمزة بن الحسن الأصبهاني) في كتاب الأوصاف له قال: كان يقال استجيدوا من المرأة شعرها، فإن الشعر أحد الوجهين. وقال خالد بن صفوان: الشعر الأسود برنس الجمال (أبو منصور الثعالبي) في كتاب فقه اللغة له قال: كمال الحسن في الشعر، وقال في فصل من الكتاب المذكور عقده لتفصيل أوصاف الشعر: يقال شعر جفال إذا كان كثيرًا، ووحف إذا كان متصلاً، وكث إذا كان كثيفًا مجتمعًا ومعلنكس ومعلنكك إذا زادت كثافته، ومنسدر إذا كان منبسطًا، وسبط إذا كان مسترسلاً، ورجل إذا كان بين السبط والجعد، وسحام إذا كان حسنًا لينًا، ومغدودون إذا كان طويلاً ناعما. انتهى ما ذكره أبو منصور (وقال غيره): وجثل إذا كان ضخمًا عظيمًا، وأثيث إذا كان كثيرًا ملتفًا، ووارد إذا كان طويلاً مسترسلاً. واشترط بعضهم فيه أن يصل إلى الكفل (ومن) أوصاف الذم فيه: شعر جعد- بسكون العين- إذا كان منكسرًا غير مسترسل، وقطط- بفتح الطاء وكسرها- إذا اشتدت جعودته، ومقلعط- بسكون القاف وفتح اللام وكسر العين المهملة- إذا زاد على القطط، ومفلفل إذا كان في نهاية الجعودة، كشعر الزنج.

(ومن الشعر في هذا الباب قول امرئ القيس)

وفــرع يغــشى المــتن أســود فــاحم ... أثيــث كقنــو النخلــة المتعثكــل

غــدائره مستــشزرات إلى العــلا ... تظــل العــذارى في مثنــى ومرســل

يغشى المتن: أي يكسو الظهر لطوله وجثولته، والمتعثكل: المتداخل، ومستشزرات: كناية عن ضفرهن (وأنشد) أبو على في الأمالى لبكر بن النطاح- وهو من أشعار الحماسة- قوله:

---

(١) الحاكم في «مستدركه» (٩٠/٢)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (١٢٣)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢٠٠/٢).

بيضاء تسحب من قيام شعرها ... وتغيب فيه وهو وحف أسحم

فكأنها فيه نهار مشرق ... وكأنه ليل عليها مظلم

قوله تسحب من قيام: يريد من بعد قيامها، وذلك هو الغاية في الطول والسبوغ (قال أبو على): ومن أحسن ما قيل في هذا الباب قول ابن الرومي أنشده الناجم عنه:

وفاحم وارد يقبل ممشا ... ه إذا اختال مرسلاً عذره

أقبل كالليل من مفارقه ... منحدرًا لا يذم منحدره

حتى تناهى إلى مواطئه ... يلثم من كل موطئ عفره

كأنه عاشق دنا شغفًا ... حتى قضى من حبيبه وطره

(العذر) بضم العين المهملة وفتح الذال المعجمة جمع عذره، وهى الخصلة من الشعر (قال) الثعالبي وأخذ ابن مطران هذا المعنى، فقال:

أظباء أعارتها آلها حسن مشيعا ... كما قد أعارتها العيون الجآذر

فمن حسن ذاك المشي جاءت فقبلت ... مواطئ من أقدامهن الغدائر

انتهى كلام الثعالبي• والغدائر ههنا: - بالغين المعجمة والدال المهملة- جمع غديرة (وهى الضفيرة) وقال ابن المعتز في مثل ذلك:

مهضومة الكشح وجهها قمر ... تنشق عنه حنادس الظلم

دعت خلاخيلها ذوائبها ... فجئن من قرنها إلى القدم

(وأنشد أبو على في الأمالى أيضا لابن المعتز قوله)

سقتنى في ليل شبيه بشعرها ... شبيهة خديها بغير رقيب

فأمسيت في ليلين للشعر والدجى ... وشمسين من خمر وخد حبيب

(أخذ أبو الطيب معناهما فقال):

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها ... في ليلة فأرت ليالى أربعا

واستقبلت قمر السماء بوجهها ... فأرتني القمرين في وقت معا

أراد بالقمرين الشمس والقمر، فجعل وجهها شمسًا قابل من بدر السماء قمرًا (وقال) أبو الفتح كشاجم يذكر سواد الشعر وبياض الفرق:

رنت فأصابت سر قلبي بلحظة ... لها في الحشا لذع وليس لها جرح

وقد حسرت عن واضح الفرق فاحم ... كخطى ظلام شق بينهما صبح

(ومما) يتعلق بذكر الشعر ما ذكره ابن بسام في الذخيرة قال: ومن نوادر الآفاق الحلوة المساق الغريبة الأتفاق خبر النحلي مع المعتمد بن عباد، وذلك أنه مشت بين يديه يومًا بعض نسائه في غلالة لا يكاد يفرق بينها وبين جسمها وذوائب تخفى أياة الشمس في مدلهمها، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه، فامتزج الجميع لينا واسترسالاً وتشابه طيبًا وجمالاً، وأدركت المعتمد أريحية الطرب، ومالت بعطفه راح الأدب، فقال شعرًا:

وهويت سالبة النفوس عزيزة ... تختال بين أسنة وبواتر

ثم تعذر عليه المقال، واشتغل عن تلك الحال، فقال لبعض الخدام القائمين على رأسه: سر إلى النحلي وخذه بإجازة هذا البيت ولا تفارقه حتى يفرغ منه، فأضاف النحلي إليه لأول وقوع الرقعة بين يديه هذين البيتين

راقت محاسنها وراق أديمها ... فتكاد تبصر باطنا من ظاهر

تندى بماء الورد تسبل شعرها ... كالطل يسقط من جناح الطائر

فلما قرأه المعتمد استحسنه واستحضره، فقال: أو كنت معنا؟ فقال النحلي بكلام معناه: يا قاتل المحل! أو ما تلوت ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨]، (الخطابي في غريب الحديث) قال: قالت جارية لأبيها: يا أبت اشتر لى لوطا أغطى به فرعلى فإني قد عتقت. قال اللوط: الرداء والفرعلى: الشعر. وقولها قد عتقت: تريد قد أدركت.

فصل في ذكر الجبهة والجبين
وما يتصل بهما من ذكر الطرر والسوالف

الجبهة على التقريب موضع السجود من الإنسان، والجبينان يكتنفانها من جانبيها (قال) ابن قتيبة في أدب الكتاب: ولا يكاد الناس يفرقون بين الجبهة والجبين، وإنما الجبهة مسجد الرجل الذي يصيبه ندب السجود، والجبينان مكتنفان لها، من كل جانب جبين. انتهى كلام ابن قتيبة• ويستحب من الجبهة استرسالها ورقة بشرتها وعدم تغضنها، ويقال لمن كان بهذه الصفة صلت الجبهة وطلقها وواضح الجبين، وليس وضح الجبين كناية عن البياض إذ قد يقال ذلك لمن كان أسمر اللون، وضد الصلت والواضح الأغضن والمرأة غضناء وواحد الغضون غضن بالسكون، وغضن بالتحريك. وتسمى هذه الغضون الأسارير، واحدها سرر بكسر السين وفتح الراء، وكأن الأسارير جمع أسرار بفتح الهمزة، والأسرار جمع سرر فالأسارير على هذا جمع الجمع، ويقال في معنى السرر سرار بزيادة الألف، وجمعه على هذا أسرة (قال أبو كثير الهذلي):

وإذا نظـــرت إلى أســـرة وجهـــه ... برقـــت كـــبرق العـــارض المتهلـــل

ويستحب أيضًا في الجبهة اتساعها من غير إفراط (قال أبو الفرج في الأغاني): كانت علية بنت المهدي شقيقة إبراهيم جميلة الصورة إلا أنه كان في جبهتها اتساع مفرط فمن أجلها اخترعت العصائب المكللة (قال الأعشى):

غـــراء فرعـــاء مـــصقول عوارضـــها ... تمشي الهوينا كما يمشي الوحي الوجل

فحكي أبو الفرج في كتابه المذكور عن حماد بن إسحق عن أبيه عن الأصمعي قال: قلت لأعرابية: ما الغراء؟ فقالت: هي التي بين حاجبيها بلج، وفي جبينها اتساع يتباعد معه قصتها عن حاجبيها فيكون بينهما نغنف• وهذه القصة التي وصفت الأعرابية هي الطرة وحقيقتها أن تقطع مقدم الناصية ونصف ما بقى منها على الجبهة والجبين صفا معتدلاً بحيث لا يصل ذلك إلى الحاجبين، فيبقى ما بين القصة والحاجبين نقيًّا من الشعر، وجمعها طرر تشبيهًا لها بطرة الثوب وهى حاشيته وهذا شيء كان النساء يفعلنة قبل هذا الوقت، وقد قال الحريري في مقاماته: لا والذي زين الجباه بالطرر والعيون بالحور، وقال في موضع آخر: لو لم تبرز جبهته السين لما قنفشت الخمسين، شبه أطراف الشعر المصفوف بروؤس السينات إذا كتبت، وهو مقلوب من قول التهامي:

وفـى كتابـك فاعـذر مـن تهـيم بـه — مـن المحاسـن مـا في أجمـل الـصور
الطـرس كالخـد والنونـات دائـرة — مثـل الحواجـب والـسينات كـالطرر

والسوالف: كناية عن خصل من الشعر ترسل على الخد، واحدها سالف وسالفة وفاعل إذا كان اسمًا ولم يكن صفة يجمع على فواعل، وأصل السالفة صفحة العنق، فسميت خصلة الشعر سالفة لاتصالها بالسالفة؛ إذ السالفة هي موضع إرسالها، وقد تسمى أيضًا أصداغًا لهذا المعنى؛ إذ الصدغ هو مبتدأ إرسالها (قال) صاحب الصحاح: الصدغ خصلة من الشعر ترسل بين العين والأذن، قال: ومنه قالوا صدغ معقرب (وأنشد الحصرى) في كتابه الموسوم بالنورين لأبى فارس، وذكر السوالف والأصداغ:

سـكرت مـن لحظـه لا مـن مدامتـه — ومـال بـالنوم عـن عـيني تمايلـه
ومـا الـسلاف دهـتني بـل سـوالفه — ومـا الـشمول ازدهتنـى بـل شمائلـه
ألـوى بـصبري أصـداغ لـوين لـه — وغـل صـدري بمـا تحـوى غلائلـه

(ولبعض أهل عصرنا وذكر السالف بغير تاء)

أرى سهم لحظ حـول عقـرب سـالف — وكيـف نجـاتي بـين سـهم وعقـرب
وألحـظ مـا ظلتـه بـاللحظ مـن دمـى — علـى وجنتيهـا والبنـان المخـضب

(وقال الشاعر وذكر الاصداغ):

ظبـــاء كالـــدنانير — كنـــاس في المقاصـــير
وقـــد عقـــربن أصـــداغا — كأذنـــاب الزرازيـــر

(وقال آخر)

وبنفـــسي مـــن إذا حســـته — نثـــر الـــورد عليـــه ورقـــه
وإذا مـــست يـــدي أصـــداغه — أفلتـــت منهـــا فعـــادت حلقـــه

أخذ هذا من حكاية تروى عن المغيرة بن عبد الرحمن قال: حججت مع أبى وأنا غلام وعلى جمة فجئنا للسلام على عمر بن أبى ربيعة فسلمنا عليه وجلسنا عنده، فجعل يمد الخصلة من شعري ثم يرسلها فترجع إلى ما كانت عليه، فيقول: واشباباه، وذكر

الحكاية (وقوله فعادت حلقة) أبو عمرو الشيبانى لا يجيز حلقة بفتح اللام، ويقول: إنه ليس في كلام العرب حلقة إلا جمع حالق، وغيره يجيز ذلك على ضعف، وإنما الوجه تسكين اللام في حلقة الحديد وحلقة الناس.

فصل في ذكر الحواجب

من أوصاف الحواجب الزجج وهو دقة خط الحاجبين وامتدادهما إلى مؤخر العين حتى كأنهما خطا بالقلم، وضده الزبب وهو غلظ شعرهما وكثافته (ومن) أوصافها البلج، وهو أن يكون ما بين الحاجبين نقيًا من الشعر، وهو من صفات السؤدد عند العرب، وكانوا يتيمنون بالسيد الأبلج (وقال الحريري) في مقاماته: لا والذي زين الثغور بالفلج والحواجب بالبلج (وقال) أبو طالب يمدح النبي ﷺ:

وأبلــج يستــسقى الغمــام بوجهــه ... ثمــال اليتــامى عــصمة للأرامــل

وضد البلج القرن، وهو أن يطول الحاجبان حتى يلتقي طرفاهما (قال) ثابت في كتاب خلق الإنسان: يقال رجل أقرن وامرأة قرناء، فإذا نسبت إلى الحاجبين قلت مقرون الحاجبين، ولا يقال أقرن الحاجبين. والمعروف من وصف رسول الله ﷺ البلج، ووقع في الحديث لأم معبد وصفه ﷺ بالقرن، وهو خلاف المعروف من وصفه، ولعل القرن من وصفه ﷺ كان خفيًّا جدًّا، وقد تكلمنا على هذا في كتابنا في شرح الشفاء (ولعلى بن رستم الساعاتي) وذكر البلج:

وأحــور ســاج لم أكــن قبــل حبــه ... لا عــرف مــا وجــد بــأحور ســاج

يريــك جبينًــا ســاطعًا تحــت طــرة ... كــسر صــباح في صــدور ديــاجى

إذا راش ســهم النــاظرين بهديــه ... وإن كــان ســلمًا غــير يــوم هيــاج

غــدًا مــوترًا مــن حاجبيــه حنيــة ... لهــا الــبلج الوضــاح قبــضة عــاج

(ولعلى بن المؤمل من شعراء اليتيمة وذكر القرن)

أبــديت مكنــون الهــوى لمــا بــدى ... للعــين لؤلــؤ ثغــره المكنــون

والقلــب مقــرون بكــل بليــة ... مــذ لاح ذاك الحاجــب المقــرون

فصل في ذكر العيون

من أوصاف العيون المستحسنة (الكحل) وهو اسوداد الحدقة من غير كحل حتى كأنها قد كحلت (والحور) وهو شدة اسوداد سواد العين مع شدة ابيضاض بياضها، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: الحور هو أن تتسع حدقة العين حتى لا يظهر معها شيء من البياض كأعين الظباء والبقر، قال: وليس في بني آدم حور، وإنما هو تشبيه لها بأعين الظباء (والدعج): وهو سعة الحدقة وشدة اسودادها (والبرج): وهو سعة العين وشدة ابيضاض بياضها (والنجل): وهو اتساع العين مع حسنها، ومثله العين بالتحريك، والمرأة عيناء وجمعها عين (والوصف) وهو طول أشفار العين وتمامها، ومثله الهدف بفتح الهاء والدال المهملة كذا في مختصر العين (ومن) أوصاف العين المستحسنة الفتور، وهو انكسار النظر وذبوله في أصل الخلقة، وهو معنى وصفهم العين بالمرض والسقم (وقال جرير):

إن العيــون الــتي في طرفهــا حــور ... قتلننـــا ثـــم لم يحـــيين قتلانـــا

يصرعن ذا اللب حتـى لا حـراك بـه ... وهـــن أضـــعف خلـــق الله أركانـــا

(وقال ابن ميادة):

ونظـرن مـن خلـل الـستور بـأعين ... مرضـى يخالطهـا الـسقام صـحاح

(وقال عبد الله بن جندب):

ألا يـــا عبـــاد الله هـــذا أخوكمـــو ... قتيـل فهـل فـيكم بـه اليـوم ثـائر

خــذوا بــدمي إن مــت كـل خريـدة ... مريضة جفن العـين والطـرف سـاحر

(وقال أبو نواس):

ضـعيفة كـر اللحـظ تحـسب أنهـا ... قريبــة عهــد بالإفاقــة مــن ســقم

وهذا الفتور والذبول هو الذي قصد من شبه العيون بالنرجس، ألا ترى أن ابن المعتز نبه على ذلك بقوله:

وســنان قــد طـرق النعــاس جفونــه ... فحكــي بمقلتــه عيــون النــرجس

ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن التشبيه إنما وقع بنرجس في المشرق في أعلاه دائرة

كحلاء يحف بها ورق بيض على شكل العين، فإن ذلك لم يثبت، ولو ثبت لكان لا يشبهها به إلا من علم وجوده، والتشبيه واقع ممن علم وجود ذلك وممن لم يعلم، واستحسن بعضهم في العين القبل وهو ميل الحدقة في النظر إلى الأنف

(وأنشد الثعالبي في كتابه فقه اللغة)

أشــــتهى في الطفلـــة القـــبلا لا كـــــثيرًا يــــشبه الحـــولا

ولا أعلم لهذا الاستحسان وجهًا وهو إلى المعايب أقرب منه إلى المحاسن (ومن) ألوان العيون الزرق والزرقة، وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ: «الزرق في العين يمن»[1] وفي حديث ذكره أبو الفرج في كتاب النساء قال: قال رسول الله ﷺ: «تزوّجوا الزرق فإن فيهن يمنًا»[2] (وقال) معاوية ﷺ لصحار العبدى: إنك لأزرق، فقال له صحار: والبازى أزرق (وأخذه الشاعر فقال):

أحبــك إن قــالوا بعينيــك زرقــة كـذاك عنـاق الطـير زرق عيونهـا

(وقال بعض المتأخرين)

قــالوا بـــه زرقـــة فقلــت لهــم بــذاك تمــت خــصاله البهجــة
مــا كحــل العــين مثــل زرقتهــا كــم بــين يــا قوتــه إلى ســبجة

(وأنشد الثعالبي في اليتيمة للواوا الدمشقي)

يـا مـن هـو المـاء في تكـوين خلقتـه ومـن هـو الخمـر في فعـال مقلتـه
ومن بزرقة سيف اللحظ طل دمى والـسيف مـا فخـرة إلا بزرقتـه
علمت إنسان عـيني أن يعـوم فقد جـادت سـباحته في بحـر دمعتـه

قال الثعالبي: وهذا كقول السري الموصلي

وقـــالوا بمقلتـــه زرقـــة تـــشين فظـــل لهـــا مطرقـــا
وهـل يقطـع الـسيف يـوم الـوغى إذا لم يكـــن متنـــه أزرقـــا

---

(١) [موضوع] ابن الجوزى في «الموضوعات» (١٦٢/١)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢٠٠/١).
(٢) [موضوع] العجلونى في «كشف الخفاء» (٥٣٠/١).

(ومن) ألوانها الشكلة بضم الشين المعجمة وسكون الكاف، وهى حمرة يسيرة تكون في بياض العين، فإن كانت في سوادها فهي الشهلة، وكلاهما مما يستحسنه كثير من الناس والرجل منهما أشكل وأشهل، ومثل الأشكل الأسجر بالسين المهملة والجيم (وجاء) في حديث جابر ﷺ: كان رسول الله ﷺ ضليع الفم أشكل العينين. خرجه مسلم -رحمه الله تعالى- من طريق شعبة عن سماك عنه.[١] قال شعبة: قلت لسماك ما ضليع الفم، قال: عظيمه، قلت: فما أشكل العينين؟ قال: طويل شقهما (قال) عياض -رحمه الله تعالى- في الإكمال: تفسير سماك ههنا الشكلة بطول شق العين وهم عند جميعهم، والصواب في الشكلة أنها حمرة بياض العين كما قدمنا نحن قبل، وكان الأصمعي يخالف في الأسجر، فيقول: هو بمعنى الأشهل بالهاء، وأكثر اللغويين على خلافه، وفي حديث حميد عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان أسجر العينين. ولم يرد في وصف رسول الله ﷺ الشهلة، وإنما وردت في وصفه الشكلة (ومن) معايب العين الحوص بالحاء المهملة وهو ضيقها، والخوص بالخاء المعجمة وهو ضيقها مع غورها. واللخص باللام والخاء المعجمة وهو غلظ الجفن الأعلى، والبخص مثله إلا أنه بالباء المفردة وهو غلظ الجفن الأسفل، قال ثابت: وذلك خلق في العين ليس داء حادثًا فيها.

فصل في ذكر الأنوف

من أوصافها الشمم وهو استواء أعلى قصبة الأنف مع ارتفاع يسير في الأرنبة، وهو من صفات الجمال وعلامة السؤدد في الرجال (قال حسان بن ثابت ﷺ):

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

(وقال الفرزدق)

بكفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم

وضد الشمم القنا وهو احديداب قصبة الأنف مع نزول الأرنبة، وكان رسول الله ﷺ أشم، بذلك وصفه أصحابه، وفي بعض الأحاديث ما يدل على أنه ﷺ كان أقنى، والمعروف ما ذكرناه. ولعل القنو كان فيه ﷺ خفيًا جدًا، كما ذكرناه في البلج والقرن، وقد بين ذلك ابن أبى هالة بقوله: اقني العرنين يحسبه من لم يتأمله أشم (ومن) أوصافها الدلف وهو قصر الأنف وصغر الأرنبة. وبعضهم يستحسنه (قال) أبو النحسم: أنشده ثابت في كتاب خلق الإنسان:

---

(١) مسلم في: الفضائل: حديث (٢٣٣٩/٩٧)، والترمذي في: المناقب: حديث (٣٦٤٦-٣٦٤٧)، وأحمد في «مسنده» (٨٦/٥-٨٨).

للـــشم عنـــدي بهجـــة وملاحـــة   وأحـــب بعـــض ملاحـــة الـــدلفاء

(وقريب من الدلف الخنس) وهو قصر الأنف وارتفاع يسير في الأرنبة كأنوف الظباء والبقر. وهو من المعايب (الجوزى) في كتاب الأذكياء عن الأصمعي –رحمه الله– قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه رجل بجارية أراد بيعها، فتأملها الرشيد ثم قال: خذ جاريتك، فلولا خنس بأنفها وكلف بوجهها لاشتريتها، قال: فانطلق الرجل بها، فلما بلغت الباب طلبت الرجوع، فأمر الرشيد بردها، فأنشدته:

مـــا ســـلم الظبـــي علـــى حـــسنه   كـــلا ولا البـــدر الـــذي يوصـــف

الظـــبي فيـــه خـــنس بـــين   والبـــدر فيـــه كـــاف يعـــرف

فأعجبته بلاغتها واشتراها، فكانت أحظى جواريه عنده (ومن) معايب الأنف ضخامته وكبره (قال) أبو الفرج في الأغاني: كانت رمله بنت عبد الله بن خلف جميلة حسنة الجسم وكان أنفها عظيمًا، فكان ذلك يعيبها، وتزوّجها عمر بن عبيد الله بن معمر وكانت عنده عائشة بنت طلحة، فقال يومًا لعائشة: فعلت يوم أبى فديك كذا، وفعلت يوم سجستان كذا وأقبل يعدد أيام حروبه، فقالت له عائشة: أنا أعلم أنك أشجع الناس، وأعرف لك يوما كنت فيه أشجع منك في جميع الأيام التي ذكرت، قال: وما هو؟ قالت: يوم اجتلبت رمله، وأقدمت على أنفها (ومن) معايبه القعم بالقاف والعين المهملة، وهو تطامن في وسطه، كذا ذكره ثابت. وقال الثعالبي: هو اعوجاج فيه، والفطس: وهو تطامن شديد فيه مع عرض واتساع، والكزم بتحريك الزاي وهو قصره أجمع وافتتاح خرقيه، كأنوف السودان.

فصل في ذكر الخدود

من الخدود الأسمج وهو المتسع، وضده السهل وهو الذي فيه طول يستحسن، وكذا الأسيل، قال امرؤالقيس:

تـــصد وتبـــدى عـــن أســـيل وتتقـــى   بنـــاظرة مـــن وحـــش وجـــرة مطفـــل

(وقال الأخطل):

أسيلة مجـرى الـدمع أمـا وشـاحها   فيجرى وأما القلب منها فـلا يجـرى

والوجنات من الخدود ما ارتفع منها، ويجوز تحريك الواو من مفردها بالحركات

الثلاث• وتشبيه الشعراء حمرة الخد بحمرة التفاح والورد وحمرة الخمر والجمر والدم باب واسع شائع تكاد شهرته تغنى عن إيراد شيء منه، ولكن نذكر هنا من ذلك قول العباس بن الحسن بن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب ﷺ وذكر التفاح:

زارتـــك مـــن بعـــض الخـــدور ... بـــيض نـــواعم كالبـــدور

حـــور تحـــور إلى ضـــنا ... ك بـــأعين مـــنهن حـــور

وكأنمـــــا برضـــــابهن ... جـــني الرحيـــق مـــن الخمـــور

يـــصبغن تفـــاح الخـــدو ... د بمـــاء رمـــان الـــصدور

(وقال آخر):

ومـــنعم كالمـــاء يـــشفي ذا الـــصدأ ... كـــشفائه ويـــشف مثـــل شـــفيفه

تلقـــى جـــني التفـــاح مـــن وجناتـــه ... وتـــرى جـــني الـــورد مـــن تطريفـــه

(وقال العطوى):

ذات خـــدين نـــاعمين ضـــنينين ... بمـــا فيهمـــا مـــن التفـــاح

وثنايـــا وريقـــة كـــسلاف ... مـــن رحيـــق وروضـــة مـــن أقـــاح

(وقال البحتري وذكر الورد):

لمـــا مـــشين بـــذي الأراك تـــشابهت ... أعطـــاف أغـــصان بـــه وقـــدود

في روضـــتي حـــبر وروض فـــالتقى ... وشـــيان وشـــي ربـــا ووشـــي بـــرود

وصـــفرن فـــامتلأت عيـــون راقهـــا ... وردان ورد جـــني وورد خـــدود

(وقال ابن المعتز وتضمنت أوصافًا):

ليـــــل وبـــــدر وغـــــصن ... شـــــعر ووجـــــه وقـــــد

خمـــــــــر ودر وورد ... ريـــــق وثغـــــر وخـــــد

(وعكس خالد الكاتب هذا التشبيه فقال)

رأت منه عيني منظرين كما رأت　　من الشمس والبدر المنيرين في الأرض

عشية حياتي بورد كأنه　　خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

(قال جحظة) حدثني خالد الكاتب قال: جاءني رسول إبراهيم بن المهدي فسرت إليه، فرأيت رجلاً أسود جالسًا على فرش قد غاب فيه. فاستجلسني واستنشدني فأنشدته البيتين، فزحف حتى سار على ثلثي الفراش، وقال: يا بني تشبه الناس الخدود بالورد، وأنت تشبه الورد بالخدود، وذكر بقية الخبر (وأنشد) صاحب الزهر لتميم بن المغيرة:

ورد الخدود أرق من　　ورد الرياض وأنعم

هذا تنشقه الأنو　　ف وذا يقبله الفم

فإذا عدلت فأفضل الـ　　ـوردين ورد يلثم

لا ورد إلا ما تولى　　صبغ حمرته الدم

سبحان من جعل الخدو　　دشقائقا تتبسم

وأعارها الأصداغ فهي　　بها شقيق معلم

(ومن) هذه الأبيات أخذ المستنصر العباسي قوله وقد تمشى ببغداد في بستان الخلفاء المعروف بالرقة مع فضة التي اشتهر بحبها، فرأى أغصان ورد وقد مال النسيم بها على النهر فقال:

يا نسيم الريح إن بكرت للنهر ورودا　　وتمشيت على الرقة سكران عميدا

قل لغصن الورد في الرو　　ض بحق أن تميدا

أظهر المحبوب خدين وأظهرت خدودا

غير أن الفضل عندي　　للذي أضحى فريدا

أحسن العالم عينين وخدين وجيدا

(وقال الصنوبرى وذكر الخمر):

ذات خد يكاد يدميه وهم　　من مشير بالجد أو بالمزاح

في بيـاض وحمـرة كـان قـد صـ ـبغ حـسنًا مـن مـاء مـزن وراح

(وأنشد ابن أبى طاهر):

لـه وجنـات مـن بيـاض وحمـرة فحافاتهـا بـيض وأوسـاطها حمـر
رقـاق يجـول المـاء فيهـا كأنهـا زجـاج أجيلـت في جوانبهـا خمـر

(وقال ابن وكيع وذكر الخمر):

أسـقم جـسمي بـسقم طـرف حيرنـي في الهـوى احـوراره
عجبـت مـن جمـر وجنتيـه يحـرقني دونـه اسـتعارة

(وأنشد) ابن الجلاب في روح الشعر لأحمد بن أبى الحكم بن شكيل:

أرى عقـرب الـصدغ في خـدها وفي كبـدي حمـة العقـرب
وفي وجنتيهـا شـعاع اللهيـ ـب وفي أضـلعي قـبس الملـهب

(وقال) محمد بن ياقوت وذكر الدم: قال أبو بكر بن دريد أنشدنيه لنفسه

يـصفر لـونى إذا تأملـه طـرفي ويحمـر خـده خجـلاً
حتـى كـأن الـذي بوجنتـه مـن دم خـدي إليـه قـد نقـلا

(وأنشد ابن بسام في الذخيرة لأبى أحمد بن حبرة):

مـالى بجـور الحبيـب مـن قبـل هـل حـاكم عـادل فـيحكم لى
حمـرة خديـه مـن دمـى صـبغت ويـدعى أنهـا مـن الخجـل

فصل في ذكر الشفاه واللثات

الشفاه: جمع شفة وثبوت الهاء في الجمع دليل على أن الأصل ثبوتها في الواحد ولكنها حذفت منه، ومن جمع شفة على شفوات، فالمحذوف عنده من شفة الواو• واللثات: جمع لثة، وهى اللحم المغشي لأصول الأسنان، ويسمى ما نزل منه بين الأسنان على هيئة الشرف العمور، واحدها عمر، ويسمى أيضًا القيود، ومنه قوله:

لمرتجـة الأطـراف هيـف خـصورها   عـــذاب ثناياهـــا لطـــاف قيودهـــا

(ويستحسن) من الشفاه الشفة اللمياء، واللمى مقصورًا سمرة يسيرة مستحسنة تكون في الشفاه واللثات، وقد تكسر اللام منه وتضم، وحكي الكسر المطرز، وحكي الضم أبو على الهجري (وأنشد القاني لجميل)

تبـــسم عـــن ثنايـــا واضـــحات   عـــذاب الطعـــم زينهـــا لماهـــا

قال: وقد يكون اللمى في غير الشفاه واللثات، يقال شجرة لمياء إذا أسود ظلها لكثافة أغصانها (ويستحسن) منه أيضًا الشفة الحوّاء واللعساء، والحوّة بضم الحاء وتشديد الواو سمرة يسيرة، وهو نحو من اللمى، وربما كانت أشد منه (قال ذو الرمة):

لميـــاء في شـــفتيها حـــوة لعـــس   وفي اللثـــات وفي أنيابهـــا شـــنب

(واللعس): سمرة شديدة تضرب إلى السواد ما هي، وقالوا: شجر ألعس كناية عن كثافته واسوداد ظله (ومن) الشفاه المستحسنة الشفة الظمياء، والظما مقصور سمرة يسيرة مع رقة وضمور. ومعنى ذلك في الشفة ظاهر وإذا وصفوا به الرمح كنوابه عن رقتة وسمرته وإذا وصفوا به الظل كنوابه عن السمرة وعدم الكثة • ورقة الشفاه مما يستحسن، وضده الدلم بالتحريك، والمرأة دلماء (قال) أبو عبيدة في كتاب النقائص عند قول الفرزدق

دعـــون بقـضبان الأراك الـتي جنـــا   لهـا الركـب مـن نعمـان أيـام عـرف

فحـــن بـــه عـــذب الثنايـــا غروبـــة   دفـاق وأعلـى حيـث ركـبن أعجـف

قال: وقوله حيث ركبن، أراد به لحم اللثة، يخبر أنها قليلة اللحم، والعرب تمدح بقلته وتذم بكثرته، فلذلك ذكر العجف، قال: ويستحب أيضًا في الشفة الحموشة وهى الرقة، فإن غلظت قيل شفة بثعاء بالباء المفردة والثاء المثلثة والعين المهملة والرجل أبثع. قال: ويقال في مثل ذلك امرأة شفاهية أي كبيرة الشفة، ورجل شفاهي. انتهى كلام أبي عبيدة (وقيل) لابن سيرين: إن فلانا اشترى جارية غليظة الشفتين، فقال: لو اشتراها غليظة الشفرين كان خيرًا له (ومما) ورد في ذكر الشفاه واللثات من الشعر، قول النابغة:

تجلـــو بقـــادمتى حمامـــة أيكـــة   بـــــردا أســـف لثاتـــه بالاثمـــد

كـــالأقحوان غـــداة غـــب سمائـــه   جفـــت أعاليـــه وأســـفله نـــدى

زعـم الهمـام بـأن فاهـا بـارد ... عـذب مقبلـه شـهى المـورد

زعـم الهمـام ولم أذقـه أنـه ... عـذب إذا مـا ذاقتـه قلـت ازدد

شبه شفتيها بقادمتى الحمامة، وهما الريشتان اللتان في مقدمتي جناحيها لرقتهما وشدة سمرتهما، فجعلهما يجلوان أسنانها، أي يظهران بياضها بما فيها من السمرة، وكان نساء العرب يجرحن لثاتهن ويجعلن الاثمد عليها فيبقى سواده فيها، وهذا كقول الآخر أنشد سيبويه:

كقـراح ريـش حمامـة نجديـة ... ومـسحن بـاللثتين غـضف الإثمـد

(وقوله) كالأقحوانة- البيت، شبه الثغر بالأقحوان وقد مطر ليلاً فجلاه المطر وصفى لونه. ثم جف الماء من أعلاه فاشتد بياضه بسبب ذلك وبقى أسفله مترويًا بندى الماء، وبقية الأبيات بينة المعنى (وقال ذو الرمة):

مـن الواضـحات البـيض تحـوى عقودهـا ... علـى ظبيـة مـن رمـل فـاردة بكـر

تبـسم ايمـاض الغمامـة جنهـا ... رواق مـن الظلمـاء في منطـق نـزر

يريد على ظبية بكر من رمل فاردة وهى الرملة التي انقطعت عن معظم الرمل، وشبه أسنانها بلمع البرق، يشير بذلك إلى بياض الثغر، وقوله جنها رواق من الظلماء: إشارة إلى سمرة شفتيها ولثاتها (ومن هنا أخذ ابن المعتز قوله):

لمـا تغـرى أفـق الظلمـاء ... مثـل ابتـسام الـشفة اللميـاء

(وأنشد الحصرى في الزهر لكشاجم)

عرضن فعرضـن القلـوب مـن الجـوى ... لأبرح من كـي القلـوب علـى الجمـر

كـان الـشفاء اللعـس منهـا خـواتم ... مـن التـبر مختـوم بهـن علـى الـدر

(وأنشد أبو الفرج في كتاب النساء)

فمـا أنـسها لا أنـس منهـا إشـارة ... بـسبابة اليمنـى علـى خـاتم الفـم

وأعلنـت بالـشكوى إليهـا فأومـأت ... حـذارا مـن الواشـين أن لا تكلـم

فلـم أرشـكلاً راق لى فـوق شـكلها ... كعنابـة يرمـى بهـا فـوق عنـدم

(وقال آخر)

عـــذبت في الرشـــف منهـــا شـــفة رشـــفها أطيـــب مـــن نيـــل الأمـــل
وعلتهـــا حمـــرة في لعـــس تـــستعير اللـــون مـــن ورد الخجـــل

فصل في ذكر الثغور

يقال: ثغر وتل- بفتح التاء وقد تكسر-: إذا كان حسن الوصف مستوى النبات، والرجل وتل بالكسر، فإذا كان بين الأسنان كلها تفريق يسير فالثغر شتيت والرجل شتيت الثغر وليس ذلك بمكروه، فإن كان التفريق بين الثنايا خاصة فالثغر أفلج والرجل أفلج الأسنان (قال ابن دريد): ولا تقول رجل أفلج إلا إذا ذكرت الأسنان معه، والفلج من الأوصاف المستحسنة، وقد قدمنا قول الحريري: لا والذي زين الثغور بالفلج والحواجب بالبلج. وجاء ذلك في وصف رسول الله ﷺ قال ابن عباس ﷺ: كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين، إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه ﷺ. خرجه الترمذي -رحمه الله- في الشمائل[1] (وقال) عياض -رحمه الله تعالى- في الشفاء: كان رسول الله ﷺ أفلج أبلج. كذا قال. وقد سمعت آنفًا ما حكيناه عن ابن دريد، والأشر في الأسنان حدة في أطرافها وتحزيز يكون في أعلاها، وهو مما يستحسن، وأكثر ما يكون مع الصغر وحداثة السن، والهمزة منه مضمومة، وأما الشين فإن شئت ضممتها وإن شئت فتحتها، والشنب هو الماء الجاري على الأسنان، وقال بعضهم: هو بردها وعذوبة مذاقها (ويروى) عن الأصمعي أنه قال: سألت رؤبة عن الشنب فأخذ حبة رمان فإذا هي برق، فأومأ إلى بريقها وقال: هذا هو الشنب، ومثل الشنب بالتفسير الأول الرضاب، ومثلهما الظلم بفتح الظاء (أنشد ثابت):

وهنـــــد تيمـــــت قلـــــبي غـــــداة النحـــــر إذ ترمـــــى
بوجـــــه مـــــشرق صـــــاف وثغـــــر بـــــارد الظلـــــم

(وقال أبو علي في الأمالي): أنشدنا أبو بكر بن الأنباري فيما أملاه علينا من معاني الشعر:

إذا ما اجتلـى الرانـي إليهـا بطرفـه غـــروب ثناياهـــا أنـــار وأظلمـــا

قال: الغروب حد الأسنان، والراني المديم النظر، وأنار من النور أي أصاب نورا،

---

(١) ورواه الدارمي في: المقدمة: حديث (٥٨).

وأظلم من الظلم وهو ماء الأسنان (قال الرياشى): سمعت الأصمعي -رحمه الله تعالى- يقول: أحسن ما قيل في وصف الثغور قول ذي الرمة:

وتجلو بفرع من أراك كأنه ... من العنبر الهندى والمسك ينضح

ذرى أقحوان واجه الليل وارتقى ... إليه الندى من رامة المتروح

هجان الثنايا مغربا لو تبسمت ... لأخرس عنه كاد بالقول يفصح

(وقال) الحصرى في الزهر: ومن قديم هذا المعنى وجيده قول النابغة وذكر الأبيات التي أنشدناها في الفصل الذي قبل هذا، قال: ومن قوله فيها ولم أذقه، أخذ كل من أتى بهذا المعنى، وأنشد لبشار في مثله:

يا أطيب الناس ريقا غير مختبر ... إلا شهادة أطراف المساويك

قد زرتنا مرة في الدهر واحدة ... ثنى ولا تجعليها بيضة الديك

يا رحمة الله حلى في منازلنا ... حسبي برائحة الفردوس من فيك

(وأنشد) غيره في مثل ذلك للمجنون، ويروى لنصيب الشاعر:

كأن على أنيابها الخمر سحها ... بماء الندى من آخر الليل غابق

وما ذقته إلا بعيني تفرسا ... كما شيم من أعلى السحابة بارق

(وأنشد أبو الفرج في الأغاني) هذين البيتين ونسبهما لامرئ القيس:

وثغر أغر شتيت النبات ... لذيذ المقبل والمبتسم

وما ذقته غير ظني به ... وبالظن يقضى عليك الحكم

(قال): وسمع مصعب بن الزبير صبيحة بنائه بعائشة بنت طلحة مغنية تغنى بهما فقام حتى دنا منها، وقال: يا هذه إنا ذقناه، فوجدناه على ما وصفت (وقال ابن الرومي):

تغنيت بالمسواك أبيض صافيا ... تكاد غرار الدر منه تحدر

وما سر عيدان الأراك بريقها ... تأوّدها في أيكها تتبصر

لئن عدمت سقيا الندا أن ريقها ... لأعذب من هاتيك سقيا وأخضر

وما ذقته إلا بشم ابتسامها ... وكم مخبر يبديه للعين منظر

(كأنه نسج على أبيات ابن أبى ربيعة التي منها)

يمج ذكى المسك منها مفلج ... نقى الثنايا ذو غروب مؤشر

يرق إذا يفتر عنه كأنه ... حصابره أو أقحوان منور

(وقال أيضًا):

تبسمت عن واضح نير ... مفلج عذب إذا أقبلا

كأقحوان الرمل في حائر ... أو كسني البرق إذا ما علا

الحائر: موضع يجتمع فيه الماء (وأخذ أبو حبة النميرى) قوله أو كسني البرق، فقال:

وبيضاء مكسال لعوب خريدة ... لذيذ لدى ليل التمام شمامها

كأن وميض البرق بيني وبينها ... إذا حان من بعض البيوت ابتسامها

(وقال ذو الرمة):

أسيلة مجرى الدمع هيفاء طفلة ... رداح كإيماض البروق ابتسامها

كأن على فيها وما ذقت طعمه ... زجاجة خمر طاب فيها مدامها

(وقال الشريف الرضي):

بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقي ... يلفنا الشوق من قرن إلى قدم

وبات بارق ذاك الثغر يوضح لى ... مواقع اللثم في داج من الظلم

(ومن بيتي الشريف أخذ الآخر قوله):

ضممته ضم مفرط الضم ... لا كأب مشفق ولا أم

ألثمه في الدجى وبرق ثنا ... ياه يريني مواقع اللثم

(وأنشد حجظة):

ومـن طـاعتي إيـاه يمطـر نـاظري   إذا هـو أبـدى مـن ثنايـاه لى برقـا

كـأن دمـوعي تبـصر الوصـل هاربـا   فمـن أجـل ذا تـسعى لتدركـه سـبقا

(أخذه أبو الطيب، فقال):

تبـل خـدي كلمـا ابتـسمت   مـن مطـر برقـه ثناياهـا

(وتبعه السري بقوله):

أريـتني مطـرًا ينهـل سـاكبه   مـن العيـون لـبرق لاح مـن بـرد

وأنشد الحريري في مقاماته البيت الأخير من هذه الأبيات، وهى للبحتري:

بـات نـديمًا لى حتـى الـصباح   أهيـف مهـضوم مكـان الوشـاح

أمـزج ريقـي بجـني ريقـه   وإنمـا أمـزج راحًـا بـراح

كأنمـا يبـسم عـن لؤلـؤ   منـضد أو بـرد أو أقـاح

وعارض ذلك ببيتيه اللذين قال في البيت الثاني منهما إنه البيت النزر الجامع لمشبهات الثغر:

نفـسي الفـداء لثغـر راق مبـسمه   وزانـه شـنب ناهيـك مـن شـنب

يفـتر عـن لؤلـؤ رطـب وعـن بـرد   وعـن أقـاح وعـن طلـع وعـن حبـب

(وقال) أبو الريحان في كتاب الجماهر: قولهم في اللؤلؤ الرطب رطب، إنما ذلك كناية عما فيه من ماء الرونق والبهاء ونعومة البشرة وتمام البقاء؛ لأن الرطوبة فضل مقدم لذات الماء فهي تنوب عنه في الذكر (قال): وليس نعنى بالرطوبة فيه المعنى الذي هو نقيض اليبوسة (وأنشد) في الكتاب المذكور لبعضهم معتذرًا عن كبر الثغر:

يفـتر عـن مثـل نظـم الـدر أتقنـه   بحـسن تأليفـه في الـنظم متقنـه

عـابوا وفـور ثنايـاه فقلـت لهـم   الـدر أكـبر في العـين أثمنـه

أخذ معنى هذين البيتين أبو عثمان سعيد بن يحيى الندرومي وهو ممن تقدم عصرنا قليلاً. فقال:

يعيبون من ثغري جفاء بنظمه وعندهم ذاكم يعيب ينجس
ألم يعلموا أن المباسم جوهر وأن كبار الدر أغلا وأنفس

فصل في ذكر الأعناق

يقال: عنق وجيد وقليل وهاد وكرد، وكلها بمعنى. وقال بعضهم: الكرد أصل العنق. وذكر السهيلي أن الجيد مما لم تستعمله العرب إلا في المدح لا تقول جيد قبيح ولا جعلت الغل في جيده، وأورد على نفسه قوله ﷻ ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، فأجاب بأن ذلك من نحو قوله سبحانه ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ومن نحو قول الشاعر• تحية بينهم ضرب وجيع.

(ومن) أوصاف الأعناق المستحسنة: التلع، وهو إشراق العنق وانتصابها، والسطع وهو كناية عن الطول. وجاء ذلك في وصف النبي ﷺ والجيد وهو قريب من السطع والرجل أجيد والمرأة جيداء• على القياس في مثل هذه الصفات (وقال قيس بن الحطيم):

حوراء جيداء يستضاء بها كأنها عود بانة قصف

وطول العنق مما يستحسن ما لم يفرط، فإذا أفرط عاد ذمًّا (قال الشمردل):

يشبهون ملوكا في تحليهم وطول أنضية الأعناق واللمم

الأنضية- بالضاد المعجمة-: جمع نضى، وهو ما بين الرأس والكاهل من العنق، كذا قال صاحب الصحاح. وقال أبو العباس في الكامل: النضى مركب النصل من السلاح يعنى من السهم، قال: وإنما ضربه في البيت مثلاً (وكان) واصل بن عطاء يعاب بطول عنقه وسمى نعامة لأجل ذلك، فقال فيه بشار:

مالى أشايع غزالاً له عنق كنقنق الدر إن ولى وإن مثلا

(وكان) جعفر بن يحيى بن خالد طويل العنق طولاً مفرطًا، فقال فيه أبو نواس:

ذاك الأمير الذي طالت علاوته كأنه ناظر في السيف بالطول

وزعموا أن جعفر بن يحيى هو أول من اتخذ هذه الأطواق العراض في اللباس المفرج ليستر بها عنقه، واستحسنها الناس بعده واستعملوها (وقال امرؤ القيس):

تـصد وتبـدى عـن أسـيل وتتقـي بنـاظرة مـن وحـش وجـرة مطفـل

وجيـد كجيـد الـريم لـيس بفـاحش إذا هـــي نـــضته ولا بمعطـــل

ليس بفاحش: أي ليس بمفرط الطول، تحرز بذلك مما ذكرناه (وذكر) أرباب البيان أن من وصف العنق بالطول قول النابغة:

إذا ارتعشت خـاف الجبـان رعاثهـا ومـن يتعلـق حيـث علـق يفـرق

وأنه أوّل من فتح للشعراء هذا الباب فتبعوه، وأن ابن أبى ربيعة تناوله فأوضحه بقوله:

بعيـدة مهـوى القـرط أمـا النوفـل أبوهـا وأمـا عبـد شمـس وهاشـم

وعندي أنه ليس في هذه الأبيات تعرض للعنق ولا إشارة لوصفه بطول ولا قصر، وإنما يدل على طول المرأة لا على طول عنقها، ألا ترى أنها لو كانت وقصاء وكانت مع ذلك طويلة لصح أن يقال فيها بعيدة مهوى القرط، فتأمل هذا الاستدراك تجده صحيحًا، إن شاء الله تعالى (وقال المروان بن منقذ):

وهـــي هيفـــاء هـــضيم كـــشحها ضـــخمة حيـــث تـــشد المـــؤتزر

صـــلته الخـــد طويـــل جيـــدها ضـــخمة الثـــدي ولمـــا ينكـــسر

(وقال ذو الرمة):

لها جيد أم الخشف ريعت فاتلعت ووجـه كمثـل الـصبح ريـان مـشرق

وعـين كعـين الـريم فيهـا ملاحـة هي السحر أو أدنـى التباسًا وأعلـق

(وقال آخر):

وأعجبنـــي منهـــا غـــداة لقيتهـــا تهبـــل أرداف لهـــا ومحـــاجر

وجيـــد كـــاملود الرخـــام رعاتـــه بمهلكـــة صـــبت عليـــه الغـــدائر

(وقال قيس بن الحطيم):

تـراءت لنـا يـوم الرحيـل بمقلتـي غريـر بملتـف مـن الـسدر مفـرد

وجيـد كجيـد الـريم حـال يزينـه توقـد يـا قـوت وفـضل زبرجـد

(وقال السرجى):

تريــك وجهًــا فــوق جيــد لهــا ... مثــــل رخــــام المرمـــر المـــدمج

كأنمــا الحلـــى علـــى نحرهـــا ... نجـــوم فجـــر ســـاطع أبلـــج

(وقال الشاعر وذكر ظبية):

فعينــاك عيناهــا وجيــدك جيــدها ... خــلا أن عظــم الــساق منــك دقيــق

(ومن) معايب العنق، الوقص وهو قصرها، والهنع وهو تطامنها، والصعر وهو ميلها ومثله الحدل بالحاء والدال المهملتين، والغلب وهو غلظها (قال ثابت): ومن كان أغلب لم يستطع أن يلتفت إلا بعنقه كلها.

فصل في ذكر المعاصم والاعضاد

المعصم: موضع السوار من الذراع، وقد يطلق ويراد به الذراع نفسها، ويقال: معصم خدل- بفتح الخاء المعجمة وسكون الدال المهملة- أي ممتلئ ريان، وكذلك معصم غيل بفتح الغين المعجمة وسكون الياء المعتلة (المبرد في الكامل) قال: قال أبو المخشن الأعرابي: كانت لى ابنة تجلس معي على المائدة فتبرز كفا كأنها طلعة في ذارع كأنها جمارة، فما تقع عينها على أكلة نفيسة إلا خصتني بها، فزوجتها وصار يجلس معي على المائدة ابن لى فيبرز كفا كأنها كرنابة في ذراع كأنها كربة، فما تقع عينه على لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها• الجمارة: قلب النخلة، ويقال: قلبها بضم القاف، وتشبيه المعصم بها كناية عما فيها من البياض والرطوبة والبضاضة والغضاضة. قال أبو حنيفة: وربما شبهوا بها المرأة لأجل ذلك. فقالوا كأنها جمارة والكرنابة: ما يبقى في النخلة من السعفة بعد قطعها، والكربة- بالتحريك- الشيء المقطوع منها (وقال أبو حية النميرى):

رمتـــه أنـــاة مـــن ربيعـــة عـــامر ... نـــؤم الـــضحى في مـــأثم أي مـــأثم

فقلــن لهــا في الــسر نفــديك لابــرح ... صـــحيحًا وإلا تقتليـــه بـــألم

فألقت قناعًـا دونـه الـشمس واتقـت ... بأحـــسن موصـــولين كـــف ومعـــصم

(أخذه من قول النابغة):

قامــت تــراآي بــين ســجفي كلــة ... كالــشمس يــوم طلوعهــا بالأســعد

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

يريد فاجاءتها فسقط نصيفها فسترت وجهها بمعصمها أو بكفها، والنصيف ثوب يعتجز به (قال الهيثم بن عدى): قال لى صالح بن حسان المدني: أتعلم أن النابغة كان مخنثًا، فقلت له: وكيف ذلك؟ قال: ألم تسمع قوله سقط النصيف البيت؟! ما يحسن مثل هذه الإشارة إلا مخنث من مخنثى العقيق (وأخذه جميل فقال يصف امرأة):

غدا لاعبًا في الحي لم يدر أننا ... نمر ولا أرض لنا بطريق

فلما انتحيناة اتقانا بكفه ... وأعلن منا روغة بشهيق

(وقال) مسلم بن الوليد في مثل ذلك وأحسن كل الإحسان على بشاعة تشبيهه وشناعته:

فأقسمت أنسى الداعيات إلى الصبا ... وقد فجأتها العين والستر واقع

فغطت بأيديها ثمار نحورها ... كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

(وأنشد أبو الفرج في كتاب النساء لجميل):

وسواعد عرضت وكشح ضامر ... جال الوشاح عليه كل مجال

وعجيزة ريا وساق خدلة ... بيضاء تسكت منطق الخلخال

(وأنشد أيضًا لأبى دهبل الجمحى وذكر الخضاب):

وكف كهداب الدمقسى لطيفة ... لها درس حناء حديث مضرج

تجول وشاحاها ويغرب خصرها ... ويشبع منها وقف عاج ودملج

(ومن أناشيد الثعالبي في اليتيمة):

قد حجبت وجهها عن النظر ... بمعصم حل عقد مصطبرى

كأنه والعيون ترمقه ... عمود صبح في دارة القمر

(ومما يتعلق بهذا الفصل الأبيات المتداولة التي يتغنى بها):

صل من هويت ودع مقالة حاسد ... ليس الحسود على الهوى بمساعد

لم يخلــق الــرحمن أحــسن منظــرا   مــن عاشــقين علــى فــراش واحــد

متوســدين عليهمــا لحــف الهــوى   متعـــانقين بمعـــصم وبـــساعد

يا من يلوم على الهوى أهل الهوى   هيهــات تــضرب في حديــد بــارد

(وفي) مثل هذه الأبيات في شهرتها وتداولها والتغني بها وهى مما نحن بسبيله الأبيات الأخرى التي أولها:

مــشتاقة طرقــت في الليــل مــشتاقا   أهــلا بمــن لم تخــن عهــدًا وميثاقــا

أهلا بمن ساق لى طيــف الأحبــة بــل   أهــلاً وســهلاً وترحيبًــا بمــن ســاقا

يــا زائــرًا زار مــن قــرب علــى بعــد   آنــست مستوحــشًا لا ذقــت مــا ذاقــا

الله يعلــم لــو أنــى اســتطعت لقــد   فرشــت ممــشاك احــدًا فــاد أماقــا

يا ليــل عــرج علــى العــين قــد جعــلا   عقــد الــسواعد للأعنــاق أطرافــا

ضــاق العنــاق وضــم الــشوق بينهمــا   ضــم الفــريقين أعناقــا فأعناقــا

أنشد هذه الأبيات أبو محمد الرشاطى في كتابة المسمة باقتباس الأنوار، وذكر أنها لأبى عبد الله الجامدى بالجيم، منسوب إلى الجامدة قرية من قرى واسط، وتروى لعمر بن أبى ربيعة، وادعاها كثير من الشعراء (وأنشد) الرشاطى أيضًا لأبى عبد الله الجامدى، عفا الله تعالى عنه:

ســقانى وحيــانى وبــات معــانقى   فيــا عطــف معــشوق علــى دل عاشــق

ويــا ليلــة باتــت ســواعدنا بهــا   تــدور علــى الأعنــاق دور المخــانق

نبــث مــن الــشكوى حــديثا كأنــه   قلائـــد در في نحـــور العواتـــق

فصل في ذكر الأنامل وتطريفها بالحمرة والسواد

(قال امرؤ القيس بن حجر):

وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبي أو مساويك إسحل

تعطو: أي تتناول. والشثن: الغليظ الجافي، يقول إن أناملها ليست كذلك. والأساريع: جمع أسروع، وهي دود بيض الأجساد، حمر الرءوس شديد الغضاضة والنعومة، فشبهها بها لبياضها ونعومتها، وقد يمكن أن يكون أشار إلى أن هذه الأنامل قد طرفت بالحمرة كأنها رءوس تلك الأساريع، وظبي: موضع معروف. وهذه الأساريع هي بنات النقي التي قال فيها ذو الرمة:

خراعيب أملود كأن بنانها ... بنات النقي تخفى مرارًا وتظهر

والإسحل: شجر يشبه الأثل، تتخذ منه المساويك، فشبه البنان بمساويكه للطافتها واستوائها (وفي هذه المساويك يقول ذو الرمة وذكر البنان):

جرى الإسحل الأحوى برخص مخضب ... على الغر من أنيابها فهي نصع

(وقال النابغة):

بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم يكاد من اللطافة يعقد

يقال: العنم التي شبه النابغة بها هي الأساريع التي شبه امرؤ القيس بها، ويقال: بل العنم شجر لين الأغصان محمر الثمر يشبه به البنان المخضوبة، وكثير من الرواة يروى بيت النابغة• عنم على أغصانه لم يعقد• فهذا يدل على أن العنم نبت لا حيوان• وكذلك قول الشريف الموسوي:

وألمستني وقد جد الوداع بنا ... كنا نشير بقضبان من العنم

يدل على أن العنم عنده شجر (قال ابن رشيق في العمدة): تشبيه امرئ القيس الأنامل المخضوبة بالأساريع من أبدع التشبيهات؛ إذ هي كأحسن البنان لينًا وبياضًا وطولاً واستواء، قال: غير أن نفس الحضري المولد إذا سمعت قول أبى نواس في ذكر الكاس:

تعاطيكها كف كأن بنانها ... إذا اعترضته الكف ضف مزاري

أو قول على بن العباس الرومي:

سقى الله قصرا بالرصافة شاقني ... بأعلاه قصري الدلال رصافي

أشار بقضبان من الدر قمعت ... يواقيت حمرا فاستباح عفافي

أو قول عبد الله بن المعتز:

أشارت بأطراف رطاب كأنها ... أنابيب در قمعت بعقيق

وقالت كلأك الله في كل موطن ... مكانك من قلبي مكان شقيق

كان ذلك أحب إليها من تشبيه البنان بالدود في بيت امرئ القيس، وإن كان تشبيهه أشد إصابة، انتهى كلام ابن رشيق.

(وقال الصنوبري في نحو مما تقدم)

بسطت أنامل لؤلؤ أطرافها ... فيها تطاريف من المرجان

وتقنعت لك بالدجى فوق الضحى ... وتنقبت بشقائق النعمان

(ومن قديم ما قيل في هذا المعنى قول عكاشة العمى):

قم فاسقني من قهوة أكوابا ... تدع الصحيح بعقله مرتابا

من كف جارية كأن بنانها ... من فضة قد طرفت عنابا

(ولابن المعتز في التطاريف السود):

وكف كأن الشمس مدت بنانها ... إلى الليل تجلوه فقبلها الليل

(وقال بعض المتأخرين):

وحوراء اللواحظ بين قلبي ... وبين جفونها حرب البسوس

ترى ماء النعيم يجول فيها ... كمثل الخمر في صافى الكؤوس

كأن بنانها أقلام عاج ... مرصعة الرءوس بآبنوس

(وأنشد ابن الجلاب في روح الشعر لأبي بكر محمد بن عياض القرطبي):

وعلقتهـــا فتانـــة أعطافهـــا ... تـــزري بغـــصن البانـــة الميـــاد

مـــن للغزالـــة والغـــزال بحـــسنها ... في الخـــد أو في العـــين أو في الهـــاد

خـــضبت أناملـــها الـــسواد وقلمـــا ... أبـــصرت أقلامـــا بغـــير مـــداد

(وقد) قدمنا في باب الزينة ما ورد في السنة من كراهة التطريف والنقش، واستحباب الغمس أي الخضاب، ثم تلونا ذلك بما ورد في إباحتها والترخيص فيها بما أغنى عن تكراره هنا، فينظر ذلك هنالك.

فصل في ذكر النحور والصدور

النحر: موضع القلادة من الصدر، كذا قال صاحب الصحاح. قال: وكذا اللبة. وقال الأعلم في شرحه للأشعار الستة عند قول امرئ القيس:

مهفهفـــة بيـــضاء غـــير مفاضـــة ... ترائبهـــا مـــصقولة كالـــسجنجل

قال: الترائب جمع تريبه، وهى موضع القلادة من الصدر. فتخرج من كلامهما أن النحور واللبات والترائب ألفاظ مترادفة، وفي ذلك نظر (ومن أبيات الحماسة):

ســـود ذوائبهـــا بـــيض ترائبهـــا ... ردم مرافقهـــا في خلقهـــا عمـــم

ردم: أي ممتلئات باللحم، وعمم: أي تمام وكمال (وأنشد ثابت في كتاب خلق الإنسان):

والزعفـــران علـــى ترائبهـــا ... شـــرق بـــه اللبـــات والنحـــر

فهذا قد أخبر أن صفرة ترائبها إنما هي لأجل الخلوق، فأما قول بن مطيرة أنشده أبو على في الأمالى:

بـــصفر تراقيهـــا وحمـــر أكفهـــا ... وســـود نواصـــيها وبـــيض خـــدودها

(وقول بشار):

وصـــفراء مثـــل الزعفـــران شـــربتها ... علـــى صـــوت صـــفراء الترائـــب رود

حـــسدت عليهـــا كـــل شـــيء يمـــسها ... ومـــا كنـــت لـــولا حبهـــا بحـــسود

فيحتمل أن تكون هذه الصفرة صفرة الخلوق كما تقدم، وأن تكون صفرة الحلي المذهب، كما قال عاصم في شرحه للحماسة (وقال الشاعر فيما يتعلق بهذا الفصل):

حقـاق مـن العـاج قـد ركبـت ... علـى صـحن صـدر مـن المرمـر

(وقال ابن المعتز):

وذات دلال سـبت مهجـتي ... بمستـشرفين علـى مرمـر

كـأن العقـود علـى نحرهـا ... نجـوم نظـرن إلى المـشترى

(أخذه من قول الحارث بن خالد):

كأنمـا الحلـي علـى نحرهـا ... نجـوم فجـر سـاطع أبلـج

(وقال الأعشى):

عهـدي بهـا في الحـي قـد سـربلت ... هيفـاء مثـل المهـرة الـضامر

قـد نهـد الثـدي علـى نحرهـا ... في مـسرف ذي بهجـة نـائر

لـو أسـندت ميتـا إلى نحرهـا ... عـاش ولم ينقـل إلى قـابر

(أنشد صاحب الزهر للعباس بن الحسين بن عبد الله بن العباس بن على بن أبى طالب ﷺ):

أتـاح لـك الهـوى بـيض حـسان ... سـبينك بـالعيون وبـالثغور

نظـرت إلى النحـور فكـدت تقـضى ... وأولى لـو نظـرت إلى الخـصور

فصل في ذكر الثدي واختلاف الناس فيما يستحبون من كبرها أو صغرها

يقال للمرأة إذا كعب ثديها أي ظهر كاعب، فإذا فلك أي استدار قيل مفلكة، فإذا نهد أي علا وأشرف قيل ناهد، وبعضهم يجعل الناهد والمفلكة واحدًا (قال أبو الفرج): قيل لإبراهيم بن سيار النظام: أي مقادير الثدي أحمد؟ فقال: وجدت الناس يختلفون في الشهوات، وسمعنا الله تعالى يقول حين وصف الحور العين ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾[النبأ: ٣٣]، ولم

يقل فوالك ولا نواهد (وقالت العرب): يسار الكواعب، ولم تقل يسار الفوالك ولا يسار النواهد.

فأكثر النظام ابتداء النهود، وفي ضمن ذلك تفضيله صغر الثدي على كبره (وقال كثير في مثل هذا):

نظـرت إليهـا نظـرة وهمـي عـاتق ... على حـين شبت واستبان نهودهـا

نظـرت إليهـا نظـرة مـا يـسرني ... بهـا حمـر أنعـام الـبلاد وسـودها

وبين ابن الجهم القدر الذي يريده من يريد صغر الثدي بقوله:

بمـــلأ الكـــف ولا يفـــضله ... وإذا أثنيتــــه لا ينــــثني

(وسئل آخر فقال):

أريـــده ضـــخما في غـــير تمديـــد ... مركنًـــا في غـــير تبديـــد

فهذا استحب كبره، وأراد منه أن يكون مركنًا أي ذا أركان، وهو المقعد الذي عناه النابغة بقوله:

والـــبطن ذو عكـــن لطيـــف طيـــه ... والنحـــر ينفحـــه بثـــدي مقعـــد

(قال أبو عبيدة): دخل مالك بن الحارث الأشتر على علي بن أبي طالب ﷺ صبيحة بنائه على بعض نسائه، فقال له: كيف وجدت أهلك يا أمير المؤمنين؟ قال: كخير امرأة لولا أنها جداء قباء، فقال: وهل يريد الرجال من النساء إلا ذاك، قال: لا حتى تروى الرضيع وتدفئ الضجيع. الجداء: صغيرة الثديين، والقباء: اللطيفة الكشحين (الجاحظ في البيان) قال: كتب الحجاج بن يوسف إلى الحكم بن أيوب أن يخطب على ابنه عبد الملك امرأة جميلة من بعيد، سليحة من قريب، شريفة في قومها، دليلة في نفسها، أمة لبعلها. فكتب إليه أن قد أصبتها، وهي خولة بنت مسمع لولا عظم ثدييها، فكتب إليه الحجاج: لا يحسن نحر المرأة حتى يعظم ثدياها، وزوجها ابنه (وقال المرار بن منقد):

صـــلتة الخـــد طويـــل جيـــدها ... ضـــخمة الثـــدي ولمـــا ينكـــسر

(ومن هذا أخذ بشار قوله):

والثـــدي تحـــسبه وســـنان أو كـــسلاً ... وقـــد تمايـــل مـــيلا غـــير منكـــسر

(ومن أبيات الحماسة):

أبت الروادف والثدي لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا
وإذا الرياح مع العشي تناوحت نبهن حاسده وهجن غيورا

يقول: إن ارتفاع ثدييها يمنع الثوب أن يمس البطن، وارتفاع ردفيها يمنعه أن يمس الظهر، فإذا تناوحت الرياح أي أتت من كل ناحية وجدت بين جسمها والثوب هواء خاليًا فتمكنت من رفعه فيبدو ما تحته، فينتبه حسد الحاسد وتهيج غيرة الغيور، وينظر إلى طرف من هذا المعنى قول الفرزدق:

إذا بطحت فوق الأثافي رفعنها بثديين في صدر عريض وكعثب

زعم أنها إذا بطحت على وجهها لم تمس الأرض بشيء من بدنها إلا برءوس ثدييها وبكعثبها لعظم ذلك، فصارت لبدنها كالأثافي. وسيأتي الكلام على هذا البيت بعد هذا (وقال الأعشى في الناهد):

عهدي بها في الحي قد سربلت هيفاء مثل المهرة الضامر
قد نهد الثدي على نحرها في مشرف ذي بهجة نائر

(وقال عبد الله بن أبى السمط):

كأن النهود وقد فلكت وزان العقود عليها النحورا
حقاق من العاج مكنونة حملن من المسك شيئًا يسيرا

(وهذا كقول ابن الرومى):

صدور فوقهن حقاق عاج ودر زانه حسن اتساق
يقول القائلون وقد رأوه أهذا الدر من هذا الحقاق

ونحو منه قول الآخر:

حقاق من العاج قد ركبت على صحن صدر من المرمر
خشين السقوط فاثبتنها بشبه مسامير من عنبر

والأصل في ذلك كله قول عمرو بن كلثوم:

وثديا مثل حق العاج رخصا حصانا من أكف اللامسينا

(وقال ابن المعتز):

وذات دلال سبت مهجتي بمستشرضين على مرمر

كأنهما خرط كافورة بأعلاهما نقطتا عنبر

(وأنشد الحجازي في المشهب لبعضهم):

يا صاحبي بمهجتي خمصانة مالت فمال الغصن من أعطافها

في الصدر منها للطعان أسنة ما أشرعت إلا لحمى قطافها

إن أنكرت قتلي هناك ففتشا تجدا دمى قد حف في أطرافها

ويتطرف طرفًا من معنى هذه الأبيات ما أنشده ابن الآبار في كتاب الحلة السيراء للأمين المقدس أبى زكريا، رحمه الله تعالى:

وحدراء تستعلي بنهدين أشرعا ولاغرو أن يدعو هواها فأتبعه

تقول وقد وقت لما بى أجازع وأنت جرى والأنسة مشرعة

فقلت لها جفناك عزا تجلدي ونهداك هدًا نفس هيمان موجعه

وما زلت ألقى القرن يعسل ريحه فكيف بمن تلقى الفؤاد بأربعة

وقال ابن الآبار صدر هذا عنهم (وقد) أنشد بمحلهم للقاضي أبى بكر بن العربي في مداعب له من فتيان الملثمة هز رمحه عليه وأومأ به إليه:-

يهز عليّ الرمح ظبي مهفهف لعوب بالباب البرية عابث

فلو كان رمحًا واحدًا لا تقيته ولكنه رمح وثان وثالث

قال: كذا قرأته في ديوان شعره، والبيتان عندي بالإسناد للقاضي أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية (أبو الفرج في كتاب النساء) قال: كان هشام بن عبد الملك مشتهرًا بحب ابنته عائشة دون سائر أخواتها وكان لا يصبر عنها، وكان إذا ركب في جند ركبت بين يديه وأن ثدييها في صدرها كالرمانتين.

فصل في ذكر الخصور

(قال امرؤ القيس):

وكـــشح لطيـــف كالجـــديل مخـــصر وســـاق كـــأنبوب الـــسقي المـــذلل

الكشح: الخصر، والجديل: العنان المظفور. يشير بذلك إلى رقة الخصر وإضماره (ومن أبيات الحماسة):

عقيليـــة أمـــا مـــلاث إزارهـــا فـــدعص وأمـــا خـــصرها فبتيـــل

ملاث إزارها: الموضع الذي يلاث الإزار عليه أي يلف، يريد ردفها. والدعص: هو الكثيب من الرمل. وبتيل: أي رقيق، والبتل القطع. يريد أنه لرقته قد يكاد ينقطع. وهذا كقول ابن عبد ربه:

يـــا لؤلـــؤًا يـــسبى العقـــول أنيقـــا ورشًـــا بتقطيـــع القلـــوب خليقـــا

مـــا إن رأيـــت ولا سمعـــت بمثلـــه درًّا يعـــود مـــن الحيـــاء عقيقـــا

وإذا نظـــرت إلى محاســـن وجهـــه ألفيـــت وجهـــك في ســـناه غريقـــا

يـــا مـــن تقطـــع خـــصره مـــن رقـــه مـــا بـــال قلبـــك لا يكـــون رقيقـــا

(ويقال) إن أبا الطيب المتنبي لما سمع هذه الأبيات صفق بيديه استحسانًا لها، وقال: والله يا ابن عبد ربه لتأتينك العراق حبوًا (وقال حبيب):

مهـــا الـــوحش إلا أن هاتـــا أوانـــس قنـــا الخـــط إلا أن تلـــك ذوابـــل

من الهيف لـو أن الخلاخـل ضـمرت لها وشحا جالـت عليهـا الخلاخـل

(وقال أبو الطيب):

وخـــصر تثبـــت الأبـــصار فيـــه كـــأن عليـــه مـــن حـــدق نطاقـــا

(أخذه السري فقال):

وأغيـــد مهتـــز علـــى صـــحن خـــده غلائـــل مـــن صـــبغ الحيـــاء رفـــاق

أحاطـت عيـون النـاظرين بخـصره فهـــن لـــه دون النطـــاق نطـــاق

(وقد) أنشدنا فيما تقدم من الفصول بيتي العباس بن الحسن، وهما:

أبـاح لـك الهـوى بـيض حـسان ... سـبينك بـالعيون وبـالثغور

نظـرت إلى النحـور فكـدت تقـضى ... وأولى لـو نظـرت إلى الخـصور

(وقال أحمد بن المغلس من شعراء اليتيمة):

أبـروق تـلألأت أم ثغـور ... وليـال دجـت لنـا أم شـعور

وغـصون تـأودت أم قـدود ... حـاملات رمـانهن الـصدور

مـثقلات أردافهـن ولكـن ... مرهفـات مـن فـوقهن الخـصور

فصل في ذكر العكن

من استحسن من المرأة الضمور والهيف لزم أن يكون غير مستحسن للعكن؛ فإن العكن لا تكون إلا مع السمن، ولأجل هذا احتاج النابغة إلى التحرز في قوله:

والـبطن ذو عكـن لطيـف طيـه ... والنحـر تنفحـه بثـدي مقعـد

قوله لطيف طيه: تحرز من السمن المعيب، فأراد أن بطنها ألطف ما يمكن أن تكون عليه بطن ذات عكن، وقد تقدم حديث هيت المخنث، وقوله لعبد الله بن أبي أمية: عليك ببادية بنت غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، مراده بذلك أنها تقبل بأربع عكن، ولكل واحدة طرفان مما يلي ظهرها فهي تدبر بثمان (قال الشاعر):

لمـا رأت أن الرحيـل قـد حـان ... قامـت تهـادى في رقيـق الكتـان

بواضـح الوجـه جميـل الخـيلان ... وعكـن مثـل متـون الغـولان

وقال يزيد بن معاوية في زوجته أم خالد بنت هاشم بن عتبة:

لهـا عكـن بـيض كـأن متونهـا ... إذا شـف عنهـا الـسابرى قـداح

(وقال آخر):

لهـا كفـل واف وبطـن معكـن ... واخـثم مثـل القعـب غـير منـوّر

وقد تقدم إنشاد هذا البيت مع صلته قبل هذا (الرشاطى في اقتباس الأنوار) قال:

كان سابور بن أزدشير أجمل ملوك فارس، وكان قد استولى على بعض الشام وتوجه إلى سواد العراق، فحاصر صاحب الخضر وهو حصن منيع كان هنالك، فأقام عليه أربعة أعوام لا يقدر منه على شيء، وأشرفت ابنة صاحب الحصن وكانت تسمى نظيرة وكانت أجمل نساء زمانها فرأت سابور فهويته وراسلته، فاشترط لها ما أرادت ودلته على غرة من الحصن فملكه وقتل أباها وأعرس بها، فلم تزل ليلتها تلك تتقلب على فراشها لا تنام، فسألها عن ذلك فقالت له: إن جنبي لينبو عن فراشك هذا، فقال: إنه لمن خز الصين وإنه لمحشو بالقز، ومانامت الملوك على ألين منه، ثم أمر بأن يلتمس ما كان يؤذيها، فوجدوا ورقة آس قد كانت على الفراش قد لصقت بإحدى عكنها، فأزيلت من عكنها وقد أثرت فيها، وجرى الدم مكانها وذلك للينها ونعمتها، وفي الحكاية طول (وقال ابن وكيع) فيما يتعلق بهذا الفصل أنشده الخضري في كتاب نور الطرف:

خـــذها بكفـــي فـــاتر الجفـــون ... مدامـــة كدمعـــة المحـــزون

علـــى غـــدير أملـــس المتـــون ... مثـــل فرنـــد الـــصارم المـــسنون

أمواجـــه كعكـــن البطـــون

(وكرر ابن وكيع هذا المعنى في قوله):

سقاني كـأس الـراح شـاطئ جـدول ... تداريجـه يحكـين بطنًـا معكنـا

إذا صـافحته راحـة الـريح خلتـه ... بتكـسيرها إيـاه ثوبًـا معينـا

(وأنشد ابن الجلاب في روح الشعر لابن صارة):

والنهـر قـد رقـت غلالـة متنـه ... وعليـه مـن ذهـب الأصيل طـراز

تترقـرق الأمـواج فيـه كأنهـا ... عكـن البطـون تـضمها الأعجـاز

فصل في ذكر السرر

قال صاحب الصحاح: تقول كان ذلك قبل أن يقطع سرك بالضم، ولا تقول قبل أن تقطع سرتك، لأن السرة لا تقطع، إنما هي اسم للموضع الذي يكون فيه السر، والسر هو الطرف الذي يقطع منها، وقد قدمنا في باب الأوصاف المجملة أن السرة من الأربعة التي يستحب اتساعها من المرأة، وذكرنا أن قولها في وصفها كمدهن العاج إشارة إلى اتساعها

وبياضها (وقال) ابن المعتز، وجمع بين ذكر العكن والسرر:

وتحـت زنـانير شـددن عقودهـا ... زنـانير أعكـان معاقـدها الـسرر

(قال) أبو الحسن الباخرزى في كتاب دمية القصر: لم أزل أستحسن هذا المعنى لابن المعتز. ويملكني الإعجاب به حتى سمعت قول التهامي:

وغـادرت في العـدا طعنًـا يحـف بـه ... ضـربًا كمـا حفـت الأعكـان بالـسرر

فغطى استحساني لهذا البيت على استحساني لما قبله (ومن) كتاب كنوز المطالب لابن سعيد وذكر تميم بن المعز، فقال: ومن أحسن ما قيل في نيل مصر قوله:

يـوم لنـا بالنيـل مختـصر ... ولكـل يـوم مـسرة قـصر

والـسفن تـصعد كـالخيول بنـا ... في موجـه والمـاء ينحـدر

فكأنمـا أمواجـه عكـن ... وكأنمـا داراتـه سـرر

(قال) ابن سعيد: وقد رويت هذه الأبيات للأمير منصور بن دبيس في نيل العراق (ولبهاء الدين زهير بن محمد المصري):

حبـذا نفحـة ريـح ... فرجـت عنـى غمـه

ضـربت ثـوب فتـاة ... أظهـرت فيهـا وحـشمه

فرأيـت الـبطن والـ ... ـسرة والخـصر وثمـه

(وذكر الباخرزى) في كتاب دمية القصر المذكور قبل مما يتعلق بهذا الفصل، وإن لم يكن فيه تصريح بذكر السرر. قال: أمر بهاء الدولة أبا الحسن بن أحمد البتى أن يكتب له أبياتا من الشعر من نظمه مستحسنة لتكتب على تكة سراويل، فقال ارتجالا:

لم لا أتيـه ومـضجعي ... بـين الـروادف والخـصور

وإذا نـسجت فـإنني ... بـين الترائـب والنحـور

ولقـد نـشأت صـغيرة ... بـأكف ربـاب الخـدور

(قال الباخرزى): وصدق، هذا من أحسن ما قيل في هذا المعنى. قال الباخرزى: والتكة هي قفل اللذة.

فصل في ذكر الفرج
وما ورد في النظر إليه منعاً وإباحة

لم يختلف أحد في استحسان ضخامة الفرج وكبره، ومن اختلف في استحسان السمن أو الضمور وكبر الثدي وصغره ووفور العجيزة أو توسطها لم يختلف في هذا، بل جميعهم متفق على أن الفرج مهما ازداد ضخامة ووفورًا ازداد حسنًا واستحق تفضيلاً ومدحًا (قال النابغة) يذكر المتجردة امرأة النعمان، وقد كان النعمان سأل ذلك منه، فقال:

وإذا لمست لمست أخثم جاثما — متحيزًا بمكانه ملء اليد

وإذا طعنت طعنت في مستهدف — رابي المجسة بالعبير مقرمد

وإذا نزعت نزعت عن مستخصف — نزع الحزوّر بالرشاء المحصد

الأخثم- بالخاء المعجمة والثاء المثلثة-: العريض المرتفع. والجاثم- بالجيم-: هو الذي ثبت في موضعه وتمكن، وأصل الجاثم الرابض اللاصق بالأرض، وقوله متحيزا بمكانه: يعنى أنه قد حاز ما حوله وبرز. والمستهدف: المرتفع، وكذا الرابي. والعبير: الزعفران. والمقرمد: المطلي. وقوله وإذا نزعت نزعت عن مستخصف: أصل النزع جذب الحبل من البئر، فضربه مثلاً لجذب الذكر من الفرج. والمستخصف: الشديد الضيق القليل البلل. والحزوّر: الغلام القوى. والرشاء المحصد: الحبل المفتول، يقول هو ضيق، فإذا نزعت عنه نوعت بشدة كما ينزع الغلام القوى بالحبل المحكم الفتل، وخصه بذلك لأنه يأمن عليه فيشتد جذبه له (وأنشد سيبويه):

إن لها مركبًا ارزبا — كأنه جبهة ذرا حبا

المركب والركب: أعلا الفرج، والارزب: الغليظ، ويروى: مركنا بالنون، وهو كناية عن شكله، يريد أنه ذو أركان (وقد) شبهوه بكركرة البعير وهى الرحا التي تحت زوره، وما أرادوا بذلك إلا نتوه وعظمه وجرمه (قال أبو عبيد الأسدى) يخاطب أسماء بنت خارجة ويشير إلى ابنته هند:

جزاك الله يا أسماء خيرا — فقد أرضيت فيسئلة الأمير

بصدع قد يفوح المسك منه — عظيم مثل كركرة البعير

وشبهوه أيضًا بسنام البعير والناقة، قال عبد بني الحسحاس:

مــن كــل بيــضاء لهــا كعثــب   مثــل ســنام البكــرة المــابر

وبالقعب المكفوء وهو القدح المقلوب، وذلك أيضًا لضخومته ونتوه، وقد تقدم قول هيت في بادية بنت غيلان: وبين رجليها مثل القعب المكفوء (وقال الشاعر):

لهــا كفــل واف وبطــن معكــن   وأخــثم مثــل القعــب غــير منــوّر

يشير بقوله غير منوّر بكسر الواو أنه حلق ولم ينبت بعد* ومن أبيات الحماسة:

قامــت تمطــى والقمــيص منخــرق   فــصادف الخــرق مكانًــا قــد حلــق

كأنــــه قعــــب نــــضار منفلــــق

(وأنشد أبو على في الأمالى وهو للأعشى):

إذا انبطحت جافي عـن الأرض بطنهـا   وخـوى بهـا راب كهامـة جنبـل

إذا مـا علاهـا فـارس متبـذل   فـنعم فـراس الفـارس المتبـذل

خوى بها: بالخاء المعجة أي رفعها. والجنبل: بضم الجيم هو القدح العظيم، يقول إن كعثبها لضخامته يرفعها إذا انبطحت فيتجافى لذلك بطنها عن الأرض، وهذا كقول الفرزدق:

إذا بطحـت فـوق الأثـافي رفعتهـا   بثـديين في صـدر عـريض وكعثـب

زعم أنها إذا بطحت لم يمس الأرض منها إلا ثدياها وكعثبها، فكانت لبدنها كالأثافي وقد تقدم الكلام على هذا البيت، وقوله: إذا ما علاها فارس متبذل هو كقول الفرزدق أيضًا:

ما مركب وركـوب الخيـل يعجـبني   كمركـب بـين دملـوج وخلخـال

ألـذ للفـارس المجـرى إذا انبهـرت   أنفـاس أمثالهـا مـن تحـت أمثـالى

وقد ذموا بصغر الفرج وهجوا به، وعدوه من أوصاف النساء المذمومة، وقالوا: امرأة قعرة بفتح القاف وكسر العين المهملة، إذا كانت قليلة لحم الفرج (وقال) ابن ميادة يهجو نساءه:

وتبدى الجميسيات في كل زينة فروجا كآثار الصغار من البهم

يعني: آثار أظلافها في الأرض إذا مشت. قال ابن ميادة: فاتفق لى أن ضلت لى إبل فخرجت في طلبها، فدفعت إلى حي الجميسيين، فرأيت عجوزًا بفناء بيت فأقبلت عليها أنشدها، فعرفتني وأنا لا أدرى، وكانت جالسة بفناء البيت، فاستوقفتني ثم دخلت إلى البيت وكلمت جارية لها، فلم يرعني إلا ريح الطيب قد نفح من البيت، وإذا امرأة جميلة قد هتكت الستر واستقبلتني وعليها إزار أحمر فأطلقته، وقالت: انظر يا ابن ميادة الزانية، أهكذا كما نعت؟ قال: فما رأيت قط أعظم مها قبلا، لقد نبا بين فخذيها كأنه القعب المكفوء. فقلت: لا والله ما هو كما نعت، وما هو إلا كآثار القياسرة الدهم، وانصرف ابن ميادة وفي نفسه من المرأة شيء فكان ينسب بها القياسرة، والقياسرة: الإبل العظام. والجميسيات: بالجيم، منسوبات إلى بني جميس بن عامر، قال ذلك الرشاطى في اقتباس الأنوار (الصولى) في كتابه المؤلف في أخبار أبى تمام حبيب بن أوس قال: حدثني محمد بن سعيد عن عمر بن شبة عن الأصمعي قال: كان الناس يقدمون قول أبى النجم في ذكر الفرج ويتعجبون من حسن وصفه، وذلك قوله:

كأن تحت درعها المنغط إذا بدا منها الذي تغطى

شطار ميت تحته بشط ضخم القذال حسن المخط

كأنما قط على مقط كهامة الشيخ اليماني الشط

لم يعل في البطن ولم ينحط

(قال) الصولى: فلما قال بشار:

عجزاء من سر بني مالك لهاهن من بطنها أرفع

زين أعلاه بإشرافه وانضم من أسفله المشرع

عقى على ذلك فحفظه الناس وقدموه انتهى كلام الصولى• المنغط: المنشق المنخرق وأنشده ابن قتيبة في أدب الكتاب. المنقد: بالدال، وجعله مما أبدل من القوافي. والشط: سنام البعير، كذا قال ابن قتيبة. وقال الخليل: الشط شق السنام. قال ابن السيد في الاقتضاب: وهو أحسن في التشبيه (ولابن صارة من شعراء الذخيرة في وصفه):

أبـــــــرزت إذ بـــــدت لنـــــا كعثبًـــــا يملـــــؤ اليـــــد

فيـــــه فـــــرج كأنـــــه عقـــــد عـــــشرين مفـــــردا

(قال) بعض اللغويين: الحارقة من النساء، بالحاء المهملة والقاف: هي الضيقة الفرج قال: ومنه حديث علي ﷺ: خير النساء الحارقة. وللحارقة أيضًا تفسير آخر غير هذا يأتي بعد، وقد تقدمت أبيات ابن الرومي في وصف ضيق الفرج وحرارته في باب الألوان• ونذكر ههنا فصلاً في إباحة النظر إلى الفرج وإبطال ما روى في ذلك من المنع منقولاً من كلام الإمام أبى الحسن بن القطان في كتابه المسمى بالنظر في أحكام النظر، قال ابن القطان: أما النظر إلى الفرج فموضع خلاف، أجازه المالكية، وقيل لأصبغ إن قومًا يذكرون الكراهة فيه، فقال: من كرهه فإنما كرهه بالطب لا بالعلم، ولا بأس به وليس بمكروه. وروى عن مالك: لا بأس أن ينظر إلى الفرج في الجماع، زاد في روايته: ويلحسه بلسانه. وهذه مبالغة في الإباحة، وليس على ظاهره (قال) القاضي أبو الوليد بن رشد: أكثر العوام يعتقدون أن لا يجوز للرجل أن ينظر إلى فرج امرأته في حال من الأحوال، قال: وقد سألني عن ذلك بعضهم واستغرب أن يكون جائزًا (قال) ابن القطان: وعلى هذا أيضًا مذهب الحنفية في الجواز. وأما الشافعية فلهم فيه قولان أحدهما: الإباحة والآخر المنع كما تقدم، والنظر إلى داخله عندهم أشد. ذكر ذلك الغزالي ولم يحك فيه عن الشافعية قولاً ثالثًا، وأعرفه لأبى اسحق منهم قال: يكره النظر إليه لأنه سخف ودناءة، ولا يحرم (قال): وقد روى في منع ذلك وإباحته حديثان لا يصح حديث منهما (فأما) حديث المنع فروى تقي بن مخلد عن هشام بن خالد عن بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر أحدكم إلى فرج زوجته ولا فرج أمته؛ فإن ذلك يورث العمى» ورواه أبو أحمد بن عدى عن بقية أيضًا بالسند المذكور، فقال: «إذا جامع أحدكم جاريته أو زوجته فلا ينظر إلى فرجها فإن ذلك يورث العمى»[1] قال فيه أبو أحمد بن عدى: حديث منكر. قال ابن القطان: ليس في رواته من ينكر حديثه غير بقية، فقد قال المحدثون بقية أحاديثه غير نقية، فكن منها على تقية (وأما) حديث الإباحة فروى عبد الرحمن بن زياد عن سعيد بن مسعود الكندي أن عثمان بن مظعون أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني لا أحب أن انظر إلى عورة امرأتي ولا أن ترى عورتي، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله جعلها لك لباسًا،

---

(١) [موضوع] ابن حبان في «المجروحين» (٢٠٢/١)، وابن عدى في «الكامل» (٥٠٧/٢)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢٠٩/٢)، والشوكاني في «الفرائد المجموعة» (١٢٧).

وإني أرى ذلك منهن ويرينه مني» قال: فمن بعدك يا رسول الله أولى. قال ابن القطان: في سند هذا الحديث ضعف ومجاهيل، وعبد الرحمن بن زياد كاف في ضعفه جدًا.

فصل في ذكر الأرداف

الردف والكفل والعجز والعجيزة والمأكمة واحد، ويقال: امرأة عجزاء، إذا كانت عظيمة العجيزة، وذلك من صفات المرأة المستحسنة. وكره بعضهم إفراط كبرها، وضد العجزاء الزلاء والرسخاء وهما صفتا ذم عند الجميع• قالوا: كانت الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة تصب الماء على رأسها فلا يصل إلى فخذيها منه شيء لو فور عجيزتها (وذكروا) أن عائشة بنت طلحة كانت تستلقي على قفاها، ثم تدحرج الأترجة من تحت ظهرها فتخرج من الناحية الأخرى لوفور عجيزتها أيضًا، وحلف مطيع بن إياس أن جاريته أيضًا كذلك، (قال) الحارث بن خالد المخزومي في عائشة بنت طلحة:

قرشـــية عبـــق العـــبير بهـــا ... عبـــق الـــدهان بجانـــب الحـــق

وتنـــوء تثقلـــها عجيزتهـــا ... نهـض الـضعيف ينـوء بالوسـق

(قال مسلم بن قتيبة): رأيت عائشة بنت طلحة بمنى- أو قال بمسجد الخيف- وكانت جالسة فنهضت لتقوم ومعها امرأتان ينهضانها فانخزلت عجيزتها لعظمها فقالت: أني لعناة بكما. قال مسلم: فذكرت قول الحارث بن خالد• وتنوء تثقلها عجيزتها• البيتان المتقدمان (قالت) سلافه مولاة فلانة: زرت مع مولاتي عائشة بنت طلحة وأنا يومئذ وصيفة فرأيت عجيزتها من خلفها وهى جالسة كأنها غيرها فجئت فوضعت يدي عليها لأعلم ما هي، فلما وجدت مس يدي قالت: من هي هذه التي تمسني؟ قلت: أنا رأيت هذا الذي خلفك فخلت أنها امرأة جالسة معك، فجئت لأنظر من هي، فضحكت وقالت: ما أكثر من يعجب مما تعجبين منه. قالت سلافة: ولم أرقط أحسن جسمًا من عائشة بنت طلحة (وذكر أبو الفرج في الأغاني) أن رملة بنت عبد الله بن خلف وكانت ضرتها عند عمر بن عبيد الله قالت ذات يوم لمولاة عائشة: أريني عائشة إذا كانت متجردة ولك عندي ألفا درهم، فأخبرت عائشة بذلك، وقالت لها: إن فلانة قد سألتني أن أريها إياك متجردة وتعطيني ألفي درهم، فما ترين في ذلك؟ فقالت عائشة: أعلميها أنى أتجرد ولا تعلميها أنى عالمة بذلك، ثم قامت عائشة بنت طلحة كأنها تغتسل، فأقبلت رملة فرأتها مقبلة ومدبرة، فلما فرغت من ذلك أعطت مولاتها، وقالت لها: وددت أنى ضاعفت لك العدد ولم أكن رأيتها

من قبل (قال) المسعودي في مروج الذهب: كانت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان وافرة العجيزة، قال: وجلس يومًا أبو الجهم بن حذيفة العدوى على المائدة مع معاوية بن أبى سفيان، فقال له: يا أبا الجهم! من أسن أنا أم أنت؟ فقال: يا أمير المؤمنين! والله لكأنى أنظر إلى أمك وعظم عجيزتها وقد جئت أخطبها قبل أبيك وقبل زوجها الفاكة بن المغيرة، ثم تزوّجها أبوك فأتت بك وبإخوتك، فقال معاوية: أما إنها كانت تستكرم الأزواج وتقل الخداج، ثم قال له معاوية: يا أبا الجهم، إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي ويثب وثوب الأسد، وهذه مائة ألف فاستعن بها والحق بأهلك، وإياك ومثل هذا، فقبل أبو الجهم بين عينيه، وقال: أبيت إلا حلمًا وكرمًا، ثم قال:

نقلبـــه لنختـــبر حالتيـــه — فتخـــبر منهمـــا كرمًـــا ولينًـــا

نميـــل علـــى جوانبـــه كأنـــا — نميـــل إذا نميـــل علـــى أبينـــا

(وقال السليك في معنى ما تقدم من الشعر):

مـــن الخفـــرات لم تفـــضح أباهـــا — ولم ترفـــع لإخوتهـــا شـــنارا

كـــأن مجـــامع الأرداف منهـــا — نقـــى درجـــت عليـــه الـــريح دارا

(وقال نصيب):

ولـــولا أن يقـــال صـــبا نـــصيب — لقـــت بنفـــسي النـــشأ الـــصغار

بنفـــسي كـــل مهـــضوم حـــشاها — إذا ظلمـــت فلـــيس لهـــا انتـــصار

إذا مـــا الـــذل ضـــاعفن الحـــشايا — كفاهـــا أن يـــلاث بهـــا الإزار

(وقال الحكم الخضري بضم الخاء وسكون الضاد المعجمتين):

تـــساهم ثـــدياها ففـــى الـــدرع دارة — وفي المـــرط لفـــاوان ردفهمـــا عبـــل

فـــوالله مـــا أدرى أزيـــدت ملاحـــة — وحسنًا على النسوان أم ليس لى عقل

أخذ البيت الأوّل من قول ابن أبى ربيعة:

خـــود وثـــير نـــصفها — ونـــصيفها مهفهـــف

وهذا معنى قول أبى تمام:

تشكى ألاين من نصف سريع ... إذا قامت ومن نصف بطي

ومن البيت الثاني أخذ مالك بن أسماء قوله:

أمفطى منى على بصري في الحـ ... ـب أم أنت أكمل الناس حسنا

(كشاجم في كتاب أدب النديم له) قال: كان المأمون كثيرًا ما يجالس عمرو بن أبى عمرو الشيبانى، قال عمرو: بينا أنا جالس بين يدي المأمون إذ دخل الحاجب فألقى إليه سرًا أصغى إليه بأذنه فذهبت لأنهض، فقال: اجلس فلولا أن للحجبة مؤامرات لا تصلح إلا باستطلاع الرأي فيها لكنت عندنا ممن لا نحتشمه ولا نستر أمرًا عنه، فقلت: الحمد لله الذي وصل لى هذا الفضل من أمير المؤمنين، ثم التفت إلى الحاجب، فما لبث أن دخل بوصائف حسان الصور فاعترضهن، ثم قال: أيهن أفضل عندك؟ فقلت: إن كان لما جمعت من الأوصاف المستحسنة فهذه وأشرت إلى واحدة منهن مدمجة الخصر راجحة الكفل، ثم قلت: لأمير المؤمنين رأيه واختياره وموقع شهوته، فقال: قد وافقت شهوتي ما اختبرته برأيك، وأمره بأخذها وخرج النخاسون وسائر الجواري، ثم التفت إلى وقال: ما قالت الشعراء المجوّدون في الأكفال؟ قلت: الأبيات التي تتهاداها الرواة، قال كأنك تريد قول القائل:

وبيض منيرات الوجوه كأنما ... تآزرن دون الريط من رمل عالج

يدرن مروط الخز قتلا كأنها ... قصار وإن طالت بأيدي النواسج

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، هو الذي أردت، قال: لعمري لقد أحسن إلا أن أخا بنى أسد أرق معنى وأحسن مغزى في قوله:

يمشين مشى قطا البطاح تأوّدا ... قبا البطون رواجح الأكفال

يمشين بين حجالهن كما مشت ... بزن الجمال دلجن بالأحمال

فإذا أردن زيادة فكأنما ... يخلعن أرجلهن من أوحال

أفهمت ما أراد في البيت الثاني؟ قلت: قد أعطى الله أمير المؤمنين من المعرفة ما لا ينازع فيها، فقال: إن الأحمال إذا أدلج بها حاملوها على الإبل استرخت أكفالها، فإنما شبهها بها وهى على تلك الصفة (قال) كشاجم: وليس ما أنشده بأحسن من قول الأعرابي:

أبت الروادف والثدي لقمصها ... مس البطون وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشي تناوحت ... نبهن حاسده وهجن غيورا

وقد قدمنا الكلام على هذين البيتين في بعض ما تقدم من الفصول (ومن البيت الأوّل أخذ المتنبي قوله):

وترفع ثوبها الأرداف عنها ... فيبقى عن وشاحيها شسوعا

(قال) الجوزى في كتابه المؤلف في أخبار عمر -رضي الله تعالى عنه- بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: العجيزة أحد الوجهين:

فصل في ذكر السوق

يقال: ساق خدلجة أي ممتلئة لحما، وكذلك ساق خدلاء وخدلة، وتوصف به المرأة كناية عن امتلاء ساقيها وذراعيها، ومثلها المكورة. وضد ذلك في صفة السوق الحمشة بفتح الحاء المهملة وسكون الميم وبالشين المعجمة وهى الساق الرقيقة، وإذا وصفت المرأة بها أضفت فقلت: المرأة حمشة الساقين (وفي) حديث سماك بن حرب عن جابر قال: كان في ساقي رسول الله ﷺ حموشة. أي رقة، خرجه الترمذي وصححه[1] (ومن) الشعر في هذا الفصل قول امرئ القيس:

وكشح لطيف كالجديل مخصر ... وساق كأنبوب السقي المذلل

أنبوب السقي: كناية عن البردي النابت بين أثناء النخل المسقى. شبهه بساق المرأة لبياضه وامتلائه ونعمته، والمذلل: الذي جمعت أطرافه وعطفت، وذلك دليل على كرامته على أربابه، وتعاهدهم له بالسقي (وقال جميل):

وعجيزة ريا وساق خدلة ... بيضاء تسكت منطق الخلخال

(أخذه من قول النابغة):

على أن حجليها وإن قلت أوسعا ... صموتان من ملء وقلة منطق

---

(١) [صحيح] الترمذي في: المناقب: حديث (٣٦٤٥)، وأحمد في «مسنده» (٥/٩٧-١٠٥).

والنابغة هو أول من استعار خرس الخلخال وصمتها فتبعه الناس، قال في ذلك المؤمل:

عجبــت لـــن تطيــبني بمـــسك ... وبـــي يتطيـــب المـسك الفتيــت

خلاخيـــل النـــساء لهـــا وجيـــب ... ووســـواس وخلخـــالي صـــموت

(وقال ابن أبي زرعة):

اســـتكتمت خلخالهـــا ومـــشت ... تحـــت الظـــلام بـــه فمـــا نطقـــا

حتـــى إذا ريـــح الـــصبا نـــسمت ... مـــلأ العـــبير بنـــشرها الطرقـــا

(وقال) خالد بن يزيد في زوجه رملة بنت الزبير:

تجــول خلاخيـــل النـــساء ولا أرى ... لرملـــة خلخـــالاً يجـــول ولا قلبَـــا

فـــلا تكثـــروا فيهـــا المـــلام فـــإنني ... تخيرتهـــا مـــنهم زبيريـــة قلبـــا

(وزاد فيها عبد الملك، فقال):

فـــإن تـــسلمي نـــسلم وإن تتنـــصري ... يعلـــق رجـــال بـــين أعيـــنهم صـــلبا

فلما دخل عليه خالد قال له عبد الملك: ألست القائل، ثم أنشده الأبيات، فلما سمع خالد البيت الأخير لعن قائله (وقال ابن الرومي):

وإذا لبـــــسن خلاخـــــلا ... أكـــــذبن أسمـــــاء الخلاخـــــل

يـــــأبى تخلخلـــــهن ســـــو ... ق مرجحنـــــات خـــــوادل

خوادل بالدال المهملة، وقد تقدم شرح ذلك في أول الفصل (وقال) محمد بن يحيى القرشي- عرف بابن عين الفولة- ممن تقدم عصرنا قليلاً أنشدنيه والدي، رحمه الله تعالى ورضي عنه:

ما أنس لا أنس إذ زارت على فـرق ... والنجم في الجانـب الغربـي مهـزوم

واستمسكت حليها خوفًا فقال لهـا ... خلخالهـــا إن مـــا تخـــشين مكتـــوم

ونم حلـــى التراقـــى فـــانثنى قلقـــا ... وشـاحها رحمـــة والحـــسن مرحـــوم

فأما قول الشاعر، وهو كعب بن جعيل:

وضـــجيع قـــد تعللـــت بـــه	طيـــب أردانـــه غـــير ثفـــل
صـــعدة قـــد ســبقت في حـــائز	أينمـــا الـــريح تميلـــها تمـــل
وبمتـــــنين إذا مـــــا أدبـــــرت	كالعنـــــانين ومـــــرتج وهـــــل
وإذا قامــــــت إلى جاراتهــــــا	لاحــت الــساق بخلخــال زجــل

فإنهن كن ربما جعلن في الخلاخيل جلاجل، وذكر ذلك الآمدى في المؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء (الجوزى في كتاب الأذكياء) قال: لما عرضت الخزران على المهدي قال لها: يا جارية، والله إنك لمنية المتمني، ولكنك حمشة الساقين، فقالت: يا أمير المؤمنين إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما، فاشتراها وحظيت عنده، وأولدها ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد. وقد ذكرنا آنفًا معنى الحموشة، وتقدم في ذكر الزينة ذكر بلقيس وأنها كانت شعراء الساقين، وأن الجن أرادوا أن يرى سليمان عليه السلام ذلك فتنبو عينه عنها، فبنوا لها صرحًا ممردًا من زجاج، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها لكي تخوضه، فرآها سليمان عليه السلام فأعجبته، وكره ما رآه في ساقيها من الشعر، فكلف بعض الجن بما يزيل الشعر فاخترعوا له النورة، (قال الثعالبي في فقه اللغة): ويسمى الشعر الذي يكون في ساق المرأة الغفر بفتح الغين المعجمة وسكون الفاء، وعلى ذكر بلقيس وصرحها ذكر ابن الآبار في تحفة القادم أن أبا بكر بن سكن الشلبى جلس يومًا على نهر شلب بالجسر فتعرضت بعض الجوارى للجواز. فلما أبصرته رجعت عن وجهها وسترت ما قد ظهر له من محاسن وجهها، فقال ابن سكن:

وعقيلـــة لاحـــت بـــشاطئ نهرهـــا	كالـــشمس طالعـــة لـــدى آفاقهـــا
فكأنهـــا بلقـــيس وافـــت صـــرحها	لـــو أنهـــا كـــشفت لنـــا عـــن ســـاقها
حوريـــــة قمريـــــة بدريـــــة	لـــيس الجفـــا والـــصد مـــن أخلاقهـــا

انتهى ما ذكره ابن الآبار، ويمكن تغيير هذين البيتين بأن يقال:

وعقيلـــة لاحـــت بـــشاطئ نهرهـــا	كالـــشمس تتلـــو في المـــشارق صـــبحها
لـــو أنهـــا كـــشفت لنـــا عـــن ســـاقها	لحـــسبتها بلقـــيس وافـــت صـــرحها

فصل في ذكر الأقدام

الأقدام: جمع قدم، والقدم في اللغة اسم للرجل بأسرها من حيث اتصلت بالساق (قال ثابت) في كتاب خلق الإنسان: أحسن الأقدام السبطة التي لان عصبها وطابت سلامياتها وأصابعها، وضدها الكزماء بالزاي، ويقال للقدم التي لا خمص فيها: رحاء بالراء والحاء المهملتين (وكان) رسول الله ﷺ لا أخمص لقدميه، وقد قدمنا- نحن- في بعض الفصول تشبيه القدم باللسان، وذلك كناية عن سبوطتها وصغرها (وقال ابن الرومي):

تغشى غواشي فروعها قدما ... بيضاء للناظرين مقتدرة

مثل الثريا إذا بدت سحرا ... بعد غمام وحاسر حسره

مقتدرة: بفتح الدال أي لطيفة، ورجل مقتدر الطول أي قصير، وعكس الصنوبري تشبيه القدم بالثريا، فقال وقد استوفي في بيته الثالث الذي أنشدنا جميع الأبيات بسببه تشبيهه بالثريا في جميع أحوالها:

قم فاسقني والظلام منهزم ... والصبح باد كأنه علم

وميلت رأسها الثريا للمسرى ... إلى الغرب وهي تحتشم

في الشرق كاس وفي مغاربها ... قرط وفي أوسط السما قدم

(قال الحصرى) في كتاب نور الطرف وقد ذكر هذه الأبيات: هذا من أجمع ما قيل في الثريا وأحسنه (قال أبو الفرج في الأغاني): كانت عائشة بنت طلحة من أجمل الناس وأكملهم محاسن، وكان فيها عيبان اثنان: كبر في أذنيها وعظم مفرط في رجليها، وكانت ضرتها رملة بنت عبد الله بن خلف كبيرة الأنف وكانت عائشة تعيبها بذلك، فيبلغ ذلك رملة فتقول: أتراها نسيت أذنيها ورجليها (قال): وعاتبتها عائشة بذلك يومًا بمحضر زوجها عمرو بن عبيد الله، فقال لها: قولي خيرًا، واحذري أن يقال فيك ما فيك، يشير إلى أذنيها ورجليها، (ابن أبى شيبة) عن ثابت عن أنس: أن رسول الله ﷺ بعث أم سليم تنظر إلى امرأة فقال: «شمي عوارضها وانظري إلى عرقوبيها»[1] (وقال الأصمعي): إذا اسود عرقوب المرأة اسود سائرها وهذا معنى قول النابغة:

---

(١) ورواه أحمد في «مسنده» (٣/٢٣١)، والحاكم في «مستدركه» (٢/١٦٦).

ليست من السود أعقابا إذا انصرفت ٤ .ولا تبيع بجنبي نخلة البر ما

(وفي) حديث مسلم عن شعبة عن سماك قال: كان رسول الله ﷺ منهوش العقبين. قال شعبة: قلت لسماك ما منهوش العقبين؟ قال: قليل لحمهما. يروى ذلك بالشين المعجمة وبالسين المهملة، وذلك مستحب من وصف الرجل، وضده الدرم وهو امتلاء العقبين باللحم، وهو مستحب من وصف المرأة (وينشد للعجاج)

قامت تريك خشية أن تصر ما ساقا بخنداة وكعبا أدرما

وكفلا مثل النقي أو أعظما

ساقا بخنداة: أي تامة ممتلئة، وكذا خبنداة بتقديم الخاء، وهذا الرجز ينسبه الناس إلى العجاج• وقد ذكر الرشاطي في كتابه المسمى باقتباس الأنوار في حديث خرجه عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ وحاد يحدو بهذا الرجز (ومما) يتعلق بهذا الفصل قول أبي بكر بن مجبر وهو مما يكتب على قبقاب:

لا يدعي العاشقون الحب منزلة إلا إذا احتملوا للحسن كل أذى

لو لم أكن أنفذ العشاق فيه لما أو طأت خدي أقدام الحسان كذا

أنفذ العشاق إن شئت قلتها بالفاء والذال المعجمة، وإن شئت قلتها بالقاف والدال المهملة.

الباب الحادي والعشرون

جامع لذكر النكاح وبيان ما فيه من المنافع والمضار وما قيل في الإقلال منه والإكثار ومذاهب العرب في وطء الليل ووطء النهار وذكر أسماء من أسماء النكاح منزلة على حسب ما نزلتها العرب في لغاتها

الجماع هو أعظم الذات الجسمانية وأقوى الشهوات الحيوانية، وذكر الأطباء من منافعه أنه ينشط النفس ويسرها، ويزيد في النشاط، ويزيل الغضب، ويذهب بالفكر الرديئة والظنون السيئة، حتى أنه ربما أبرأ من الماليخوليا، وأنه يسكن عشق العشاق إذا أكثروا منه وإن كان مع غير من يهوونه ويخفف عن البدن الممتلئ وهو عظيم النفع لأصحاب الأبدان القوية العبلة الكثيرة الدم، ومضر لمن كان بضد ذلك (قال الرازي) في كتابه المعروف بالمنصوري: وليحذره أصحاب الأبدان اليابسة حذر العدو فإنه يؤدى إلى الدق إذا أكثروا منه وكذلك الثقة والضعفاء والنحفاء، ومن نواحي خواصره ومراقة رقيقة مهزولة، ومن عصبه ضعيف فإن الجماع الكثير يضر بهؤلاء ضررًا شديدًا (وقال جالينوس) في بعض كتبه: المنى أحد الفضلات التي لابدّ من إخراجها فإنه إن أقام في البدن حدثت منه مضار وأمراض رديئة، فلذلك يستحب أن ينقص منه باعتدال (قال): وأحوج الناس إلى إخراجه من يعتريه عند ترك الجماع ثقل في الرأس وظلمة في العينين وكآبة وبلادة وإفراط في النوم، فالجماع والاحتلام يخفف عن هؤلاء ذلك كله (قال): وأشد الناس استغناء عن الجماع من يصيبه بعقبه الرعدة والكسل وسقوط شهوة الطعام (قال الرازي): وينبغي أن يكون الجماع على الجوع ولا على الامتلاء المفرط ولا في الحمام ولا بأثر التعب ولا بعقب القيء ولا الإسهال ولا الفصد (قال): وينبغي لمن قهرته شهوته في الإكثار من النكاح أن يقل من التعب وإخراج الدم وطول الجلوس في الحمام، وأن يغتذى بالأغذية التي تزيد في المنى، وأن يكثر من استعمال الأدوية المخصوصة بهذا الشأن (قال) أبو الفرج في كتاب النساء: وينبغي للرجل إذا قضى حاجته من المرأة أن يبادر إلى الغسل بالماء الحار دون الماء البارد في الشتاء والصيف، وليكن ذلك في حمام إن أمكن أو موضع كنين لا يصل إليه فيه الهواء، فإن الغسل بالماء الحار يرطب الأعضاء التي خرجت منها رطوبتها وتحللت حرارتها في المنى ويسخنها، والاغتسال بالماء البارد رديء في الشتاء وفي الصيف، لأنه يزيد في برد الأعضاء ويبسها (قال): وينبغي إذا فرغا من الغسل أن يتناولا الطيب والبخور، ويكثرا من استعمال

المسك فإنه أطيب الطيب، ولا يقربا شيئًا من الكافور ولا يمساه، وليكن جلوسهما على الفرش الوثيرة الرطبة، وإن كانت حمراء أو خضراء فهما أحسن من غيرهما من الألوان. انتهى ما ذكره أبو الفرج، -رحمه الله تعالى- (قال) الحارث بن كندة طبيب العرب: من أراد البقاء ولا بقاء، فليباكر الغداء وليؤخر العشاء، وليقلل من غشيان النساء، ولا يجامع على الامتلاء (وقال الشاعر):

ثـــلاث هـــن مـــن ســـبب الحمـــام ... وداعيـــــة الـــــسقام إلى الأنـــــام

مـــــدام يـــــستدام وطـــــول وطء ... وإدخـــال الطعـــام علـــى الطعـــام

(وقال بعض الحكماء): ينبغي للعاقل أن لا يخلي نفسه من ثلاثة من غير إفراط: الأكل، والمشي، والجماع، فأما الأكل فهو قوام البدن فتركه إخلال، والإكثار منه اعتلال، وأما المشي فمن ترك تعهده فيوشك أن يطلبه فلا يجده، وأما الجماع فهو كالبئر إن نزحت جمت وإن تركت أدمت، يقال أدمت البئر: إذا انقطع ماؤها (وفي) معنى قوله إذا نزحت جمت وإن تركت أدمت قولهم: الذكر كالضرع إن حلب در، وإن ترك قر (قال تأبط شرا): ما أحب الدنيا إلا لثلاث: أكل اللحم، وركوب اللحم، وإدخال اللحم في اللحم (قال يزيد بن المهلب): وددت لو كانت طلية نورة بمائة ألف دينار، ولو كان فرج المرأة في جبهة أسد حتى لا يطلى إلا كريم، ولا يصل إلى الفرج إلا شجاع (وقالوا): أربع لا يشبعن من أربع: أنثى من ذكر، وأرض من مطر، وأذن من خبر، وعين من نظر (قال بعض الحكماء): كل شهوة يعطيها الرجل نفسه، فلابد أن يكتسب قلبه بها قسوة لا الجماع، فإنه يرقق القلب ويصفيه ولأجل هذا كانت الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والحكماء يفعلونه، ويأمرون به (قال عياض في الشفاء). لم يزل التمدح بكثرة الجماع والفخر بوفوره عادة معروفة وسيرة ماضية. فإنه دليل الكمال وصحة الذكورية، وهو في الشرع سنة مأثورة، ولم يره العلماء مما يقدح في الزهد (قال) سهل بن عبد الله -رحمه الله-: كيف يزهد فيهن وقد حببن إلى سيد البشر ﷺ؟! وذكر حديثًا عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلت على الناس بأربع: السخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وقوة البطش»[1]. انتهى كلام عياض، رحمه الله تعالى (البخاري) عن قتادة عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة. قال قتادة: قلت لأنس أو كان يطيقه؟ قال:

---

(١) [موضوع] الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/٧٠)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/١٦٩).

كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين[1] (قوله) يطوف على نسائه وهن إحدى عشرة مشكل؛ فإنه لم يجتمع عند رسول الله ﷺ في وقت واحد من النساء أكثر من تسع، وربما أن يكون أنس عد سريتيه ريحانة وماريه في جملة نسائه، فكملن بذلك إحدى عشرة، كما قال مالك فيمن ظاهر من أمته أنه يلزمه الظهار؛ لدخولها في جملة النساء في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ [المجادلة: ٢]، وقد استوفينا الكلام على هذا في شرح الشفاء فلينظر هنالك، وإنما نذكر هنا نبذًا وإشارات (سلمى) مولاة النبي ﷺ عن زوجها أبى رافع قال: طاف النبي ﷺ ليلة على نسائه التسع وتطهر من كل واحدة منهن قبل أن يأتي الأخرى، وقال «هذا أطهر وأطيبفهذا الحديث بين، ليس فيه إشكال لذكره فيه أنهن تسع، ونبه ﷺ بقوله «هذا أطهر وأطيب»[2] على أن الاغتسال من كل واحدة غير واجب، وإنما هو مستحب، يبين ذلك الحديث الآخر الذي يرويه النسائي عن حميد عن أنس: أنه ﷺ طاف ليلة على نسائه بغسل واحد،[3] وفي رواية قتادة عن أنس: كان رسول الله ﷺ يطوف على نسائه بغسل واحد.[4] ولا خلاف في هذا، وإنما اختلف هل يلزم الواطئ الوضوء عند إرادته المعاودة أم لا؟ فقالت الجماعة: لا وضوء عليه، وروى عن عمر وابنه أنهما ألزماه الوضوء وضوء الصلاة، وبذلك قال عطاء. وقال أحمد بن حنبل: استحب له أن يتوضأ، فإن لم يفعل فلا شيء عليه• وسبب الخلاف بينهم قوله ﷺ: «إذا أتى أحدكم أهله، ثم أراد أن يعود فليتوضأ»[5] فمن حمل ذلك على الوضوء الشرعي أوجب على الواطئ الوضوء وضوء الصلاة، ومن حمل ذلك على الوضوء اللغوي أوجب عليه غسل الفرج واستحب له وضوء الصلاة مراعاة للخلاف، وسواء كان هذا في امرأة واحدة أو في امرأتين فأكثر (عياض في الشفاء) عن طاوس قال: أعطى رسول الله ﷺ قوة أربعين رجلاً في الجماع، ومثله عن صفوان بن سليم في حديث آخر: «أتاني جبريل عليه السلام بقطعة فأكلتها فأعطيت قوة أربعين رجلاً في الجماع» (البخاري) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أفضل هذه الأمة أكثرها نساء. قال عياض في الشفاء: يعنى بذلك النبي ﷺ (قال) الخطابي في بعض تآليفه ما معناه: إن الله تعالى اختار لنبيه ﷺ من الأمور أفضلها وجمع له الفضائل التي يزداد بها في نفوس العرب

---

(١) البخاري في: الغسل: حديث (٢٦٨).

(٢) أبو داود في: الطهارة: حديث (٢١٩)، وابن ماجه في: الطهارة: حديث (٥٩٠)، وأحمد في «مسنده» (٦/٨ و ١٠).

(٣) النسائي في: الطهارة: جـ (١) ص(١٤٣).

(٤) المصدر السابق ص(١٤٣-١٤٤).

(٥) مسلم في: الحيض: حديث (٣٠٨/٢٧)، وأبو داود في: الطهارة: حديث (٢٢٠)، والترمذي في: الطهارة: حديث (١٤١)، وابن ماجه في: الطهارة: حديث (٥٨٧).

جلالة وضخامة. وكانت العرب تتفاخر بقوة النكاح، وكان النبي ﷺ من قوة البنية واعتدال المزاج على ما شهدت به الأخبار، ومن هو بهذه الصفة من كمال الخلقة كانت دواعي هذا الباب أغلب عليه. فأبيح له ﷺ الزيادة على أربع، ومنع غيره من أمته من ذلك خوفًا أن لا يعدلوا فيهن ولا يقوموا بحقوقهن، وذلك مأمون منه ﷺ (قال): ولما لم يكن للإماء من الحق في التسوية والعدل ما للحرائر أبيح للأمة جميعًا أن يملكوا منهن ما شاؤا، وهذا كلام عال نفيس. وقد قدمنا -نحن- الكلام على قوله: أفضل هذه الأمة أكثرها نساء (قال عياض في الشفاء) عن ابن عباس‌ﷺ قال: كان في ظهر سليمان عليه السلام ماء مائة رجل، وكانت له ثلاثمائة امرأة وثلاثمائة سرية (قال): وحكي النقاش أنه كانت له سبعمائة امرأة وثلاثمائة سرية (قال): وكان لداود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يديه تسع وتسعون امرأة وتمت بزوج أوريا مائة امرأة (قال): وقد نبه على ذلك الكتاب العزيز بقوله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣]، (مسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: «سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كلهن يأتين بغلام يجاهد في سبيل الله، فقال: له صاحبه أو الملك: قل إن شاء الله، فنسى ولم يقل فلم يأت منهن إلا واحدة جاءت بشق غلام» فقال رسول الله ﷺ: «لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان له دركا لحاجته»• وفي رواية أخرى: «لأطوفن على ستين امرأة» وفي رواية: «على تسعين امرأة» وفي غير رواية مسلم: «على تسع وتسعين» وفي بعض روايات البخاري: «على مائة امرأة»[1]. وهذه الروايات ليست بمتعارضة فإنه ليس في إثبات القليل نفى الكثير (قال) جعفر بن محمد: ثلاثة من أخلاق الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-: التنظف، والتطيب، والنساء. ثم ذكر سليمان عليه السلام فقال: كانت له ألف امرأة في قصر واحد: سبعمائة سرية وثلاثمائة زوجة، فقيل له: يا ابن رسول الله! كيف يقدر على جميعهن؟ فقال: جعل الله فيه قوة بضع وأربعين رجلاً، وجعل ذلك لنبينا محمد ﷺ، قيل له: فعلى فأمسك كأنه استحيا من ذكره لأبوته، ولمكان فاطمة، عليهما السلام (الجاحظ في البيان) عن عبد الله بن الحسين قال: قال على رضي الله عنه: خصصنا بفصاحة وسماحة وصباحه وحظوة عند النساء، وقال في وصيته لولده: يا بني، لا تطل الخلوة مع النساء فيمللنك وتملهن، واستبق من نفسك بقية، فإن إمساكك عنهن وهن يرين أنك ذو انتشار خير من أن يقعن منك على انكسار (وأنشد) بعضهم لعلى بن أبي طالب، رضي الله عنه:

---

(١) البخاري في: الجهاد: حديث (٢٨١٩)، ومسلم في: الأيمان: حديث (٢٢-٢٥/١٦٥٤).

أفلـــح مـــن كانـــت لـــه قوصـــرة　　　يأكـــل منهـــا كـــل يـــوم مـــرة

والقوصرة: إناء تجعل فيه التمر. قال ابن السيد في الاقتضاب: وهو ههنا كناية عن المرأة، ومثله:

أفلـــح مـــن كانـــت لـــه مزخـــة　　　يزخهـــا ثـــم ينـــام الفخـــة

الزخ: النكاح، يقال: زخ المرأة يزخها، والفخة: نومة فيها فخيخ أي صوت (قال) بعضهم: حكم علي ﷺ في هذا الرجز، وهو المرة الواحدة في اليوم والليلة هو القدر المتوسط في هذا الباب وهو أعدل الأشياء وأقله ما حكم به عمر بن الخطاب ﷺ وهو المرة الواحدة في كل طهر، ولا حد لأكثره، وإنما هو بحسب المزاج والقدرة (عبد الملك بن حبيب) عن عمر ﷺ قال: حسب المرأة المسلمة أن يأتيها زوجها في كل طهر مرة، وذكر في ذلك حديثًا رفعه إلى النبي ﷺ قال: «يكفى المرأة المؤمنة الوقعة في الشهر»[1] (قال) محمد بن يحيى بن حسان: عاتبت جدتي جدي في قلة الباءة، فقال لها: بيني وبينك قضاء عمر بن الخطاب ﷺ فقالت: وما قضاء عمر؟ قال: قضى أن الرجل إذا أتى امرأته في كل طهر مرة فقد أدى لها حقها، قالت: أفكل الناس ترك قضاء عمر بن الخطاب ولم يأخذ به غيري وغيرك (أبو الفرج في الأغاني) قال: عزل معاوية مروان بن الحكم عن الحجاز، فعاتبه مروان في ذلك، فقال له: عزلتك لكراهتك أمر زياد، ولأن رملة ابنتي أتتك تستعدى على زوجها عمرو بن عثمان فلم تعدها، فقال له مروان: أما كراهتي أمر زياد فإن جميع بني أمية كرهوه، ثم جعل الله لنا في ذلك الكره خيرًا، وأما استعداء رملة على عمرو فوالله إني لتأتى على سنة أو أكثر وعندي بنت عثمان فما اكشف لها ثوبًا. فعرض لمعاوية أن رملة إنما استعدت على عمرو طلبًا للنكاح، فغضب معاوية من كلامه وأغلظ له في الجواب. وفي الخبر طول (الزبير في الموفقيات) قال: كانت لابن أبى عتيق جارية فارهة تقبل وتدبر وكان الفتيان يتبعونها، فجاء ابن أبى عتيق ذات يوم ليدخل منزله فوجد مقابلة الباب فتيين، فقال لأحدهما: كم تجامع يا ابن أخي؟ قال: واحدًا في اليوم وربما لم أفعل، وقال للآخر: كم تجامع؟ قال: عشرين في اليوم، فقال للأول: إياك أن تمر على منزلي، وقال للآخر: أما أنت فأقبل وأدبر متى شئت. يريد ابن أبى عتيق أن من قال: أجامع كل يوم عشرين لا يعرف للنكاح حقيقة ولو عرف حقيقته لم يقل ذلك، وأما الآخر فهو قول عارف مجرب فلذلك أبعده وزجره عن

(١) أورده الهندى في «كنز العمال» رقم (٤٤٨٦٧).

القرب من داره (أبو الفرج في الأغاني) عن عباد السدى قال: مررت بمنزل من منازل طريق مكة يقال له النباج، فإذا كتاب على حائط هنالك فقرأته، فإذا فيه مكتوب: النيك أربعة الأول شهوة، والثاني لذة، والثالث دواء، والرابع داء. وحر إلى أيرين أحوج من أير إلى حرين. وكتبته دنانير مولاة البرامكة بخط يدها (ومثل هذا) ما حكاه اليعقوبى قال: توجهت إلى باب حمدونة ابنة الرشيد، فخرجت دقاق مولاتها وفي يدها مروحة مكتوب عليها في الوجه الأوّل الحر أحوج إلى أيرين من الأير إلى حرين، وفي الجانب الثاني من المروحة كما أن الرحا أحوج إلى بغلين من البغل إلى رحيين (ولبعض) أهل عصرنا في هذا المعنى أبيات رأيت أن أثبتها في هذا المكان:

نمــلّ مــن اللــذات فالــدهر طبــع ... مجيـــب لـــا أحببتـــه متـــبرع•

ولا تقطــع الأوقــات في غــير لــذة ... فيــذهب منــك العمــر وهــو مـضيع

وما لـذة الـدنيا سـوى النيـك وحـده ... هــو المتعــة العظمــى لــن يتمتــع

فلا تخل من تهوى مـن النيـك ليلـة ... فذلك محض النـصح إن كنـت تـسمع

ولا تقتنــع ممــن تحــب بواحــد ... فمــا لامــرئ في واحــد متقنــع

فمـا الحــق إلا اثنـان لابـد منهمـا ... همـا أعـدل الأشـياء والحـق يتبـع

وإن نكـت في بعـض الليـالي ثلاثـة ... فــذاك انبــساط في المنــى وتوســع

وإن كنت تخشى مـن حبيبـك عتبـة ... فأربعـــة ثـــم الزيـــادة تمنـــع•

(قال) الغزالي -رحمه الله تعالى- في الإحياء: كان عبد الله بن عمر ﷺ شديد النكاح، وكان يفطر من الصوم على الجماع، وربما جامع قبل أن يصلى المغرب ثم يغتسل ويصلى (قال): وقد جامع ليلة ثلاثًا من جواريه في ليلة من شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء والآخرة (وحكي) التيفاشى في قادمة الجناح: أن نافعا مولاه كان كذلك، وأنه كانت له جارية تسمى كوكب الصبح، فكانت تفر منه لكثرة جماعة (قال): وكان عبد الله ابن زمعة صهر رسول الله ﷺ من خير قريش صلاحًا وعفافًا، وكان لا يستطيع الصبر عن النكاح في شيء من الأوقات ليلاً ونهارًا، فتجنب لأجل ذلك حضور مشاهدة قريش وحضور المساجد وبني مسجدًا بداره (قال) وكان يتزوّج المرأة فلا تمكث عنده إلا أيامًا يسيرة حتى تفر إلى أهلها، فقالت امرأة من أهل المدينة تسمى زينب بنت عمرو بن أبى سلمة: ما لهن

يهربن منه؟ فقيل: لكثرة غشيانه لهن، فقالت: ما يمنعه منى وأنا العظيمة الخلق الكبيرة العجيزة المنعمة الفرج، فبلغه ذلك فتزوّجها فصبرت عليه وولدت له (أبو الفرج في الأغاني)
عن الشعبي قال: اشتاق النعمان بن بشير صاحب رسول الله ﷺ إلى سماع الغناء وهو بالمدينة فتوجه إلى منزل عزة الميلاء فسمعها، ولما خرج اعترضته امرأة تشكو إليه كثرة غشيان زوجها لها، فقال لها النعمان بن بشير: لأقضين بينكما بقضية لا ترد على أن الله أحل له أربعًا من النساء فلزمك منه أربع مواقع مرتان بالليل ومرتان بالنهار، كذا جاءت هذه الحكاية، ولا أعرف لهذا الاستدلال وجهًا، وإذا أباح الله -تعالى- للرجل أربعًا، فمن أين يؤخذ من ذلك أن له أن يطأ الزوجة الواحدة بين اليوم والليلة أربع مرات، وإنما يستحسن في ذلك تفقه كعب بن سؤر في القضية التي قدمنا ذكرها في باب معاشرة النساء
(وذكر أيضًا) أبو الفرج في الكتاب المذكور قال: لما تزوّج عمر بن عبيد الله بن معمر عائشة بنت طلحة حمل إليها ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم مهرًا وخمسمائة ألف درهم هدية، وقال لمولاتها لك ألف درهم إن دخلت بها الليلة، وأمر بالمال فحمل إلى عائشة وغطى بالثياب، فخرجت عائشة فرأته فاستكثرته فظنته فرشًا أو ثيابًا، فسألت مولاتها، فأعلمتها أنه مال، فاستكثرته وتبسمت، فقالت لها مولاتها: ما جزاء من حمل هذا أن يبيت وحده، فقالت لها: هو كذلك، ولكن لا يجوز دخوله إلا بعد أن أتهيأ له وأتزين، فقالت لها: والله إن وجهك لأحسن من كل زينة ولا تحتاجين إلى شيء من طيب أو حلة إلا وهو عندك. وأكبت على رجليها تقبلهما وتطلب منها أن يكون دخوله بها تلك الليلة، فقالت لها: ويحك كيف يكون هذا بهذه السرعة؟ فصدقتها الخبر وأعملتها بما جعل لها عمر بن عبيد الله من المال، فأمرتها أن تأذن له فسار إليها من ليلته، وأدنى منه طعام فأكله كله حتى أعرى الخوان منه، ثم سأل عن المتوضأ فأخبرته، فقام فتوضأ وصلى فأطال الصلاة. ثم قام إليها وأسبل الستر وعانقها وضمها إليه ومازال يفتح فاها ويقبلها ويترشفها برهة. ثم قام فوطئها واحدًا، وتحدث معها ساعة ومد يده إليها، ففعل مثل ذلك ووطئها ثانيا، ومازال هذا شأنه يحادثها ويضاحكها ويقبلها ويطؤها إلى أن أكمل سبعًا، ثم قام فدخل المتوضأ وخرج فدخل الحمام، قالت مولاتها: فلما خرج وقفت على رأسه، وقلت له لله درك، فمثلك يتزوّج النساء، فقال: وكيف ذلك؟ فقلت له: لقد عددت لك في ليلة البارحة سبعة واحدًا بعد واحد، ولقد شفيت الغليل فضحك عمر وضحكت عائشة، ولم يكن عند عائشة في أزواجها أحظى منه، وكان ينال منها ما شاء عفوًا دون مناكره، وكانت قبله عند مصعب فلم يكن يطمع منها في شيء إلا بعد شدة وتحيل (وذكر) الزبير غير ما

تقدم أن عمر بن عبيد الله لما ابتنى بها قال لها: لأقتلنك الليلة فلم يصنع إلا واحدًا، فلما أصبح حركته، وقالت له: قم يا قتال، ثم قالت:

قد رأيناك ولم تجل بنا ... وبلوناك فلم نرض الخبر

قال أبو الفرج: وهذا تحامل من الزبير وعصبية، والخبر في رضاها عن عمر وميلها إليه غير ما حكاه الزبير مما هو معلوم مشهور. انتهى ما ذكر أبو الفرج، وقد ذكر صاحب نثر الدر أن هذه القضية إنما جرت لعائشة مع مصعب (ابن عبد المؤمن شرح المقامات) قال: وقع أعشى همدان أسيرًا عند الديلم فعشقته ابنة العلج الذي هو أسير عند أبيها، فأمكنته من نفسها فواقعها ليلة سبعًا، فلما أصبح قالت: يا معشر المسلمين أهكذا تفعلون بنسائكم؟ فقال لها: نعم، فقالت: بذا نصرتم، ثم قالت له: أرأيت إن خلصتك أكنت تصطفينى لنفسك؟ فقال لها: نعم، فعاهدها على ذلك، فحلت قيوده وأخذت به طريقًا تعرفها حتى خلصا، فقال في ذلك بعض الشعراء:

فمن كان يفديه من الأسر ماله ... فهمدان يفديها العداة أيورها

(قال الأصمعي): كانت بالبصرة امرأة جميلة فتنافس الناس في زواجها، فتزوّجها شاب معدم فأقام معها مدة يوفيها خمسًا كل ليلة ثم ربع ثم ثلث ثم ثنى ثم صار إلى واحد كل ليلة، فلما رأت دوامه على واحد، قالت في نفسها: قد كان فيمن خطبني من المياسير من لا يقصر عن واحد كل ليلة فاعتلت عليه وغاضبته وسارت إلى منزل أهلها، فوصل إليها الفتى وجعل يستعطفها، فقالت: لقد كنت وأشارت إليه بأصابعها الخمس وكنت عنك راضية، ثم قبضت أصبعًا فقالت: ولم يكن بك بأس، ثم قبضت أصبعًا وقالت: ولكنك تغيرت، ثم قبضت أصبعًا ثالثا وقالت: لو أقمت على ذلك لم أغاضبك، فقال الفتى وأشار إلى سبابته: لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها (الخطابي في غريب الحديث) عن أبى سعيد الخدرى قال: إن رسول الله ﷺ نهى عن السباع. قال الخطابي حاكيا عن بعضهم: السباع كثرة الجماع. وهذا تأويل غريب. وقد تقدم ذكر هذا الحديث قبل هذا، وإنما المراد بالسباع فيه المفاخرة بالجماع وإفشاء الرجل ما يجرى بينه وبين زوجته فيه، وهو الصواب في تأويل الحديث، والله أعلم (أبو الفرج في الأغاني) قال: كانت إياد تفخر على العرب، فتقول: منا أجود الناس، ومنا أشعر الناس، ومنا أنكح الناس. يريدون بأجود الناس كعب بن أبى[1]

(١) في المخطوط « أبا »، والمثبت من المحقق.

أمامة وبأشعر الناس أبا دؤاد، وبأنكح الناس ابن ألغن، قالوا: كان ابن ألغن إذا أنعظ احتكت الفصال بأيره، وكانت امرأة تستصغر أيور الرجال فجامعها، فلما أولجه فيها، قالت: يا معشر إياد أبالركب تجامعون النساء (قال الجاحظ في بعض تآليفه): وقد ذكر الشاعر ابن ألغن هذا وافتخر به، فقال يذكر إيادًا:

أولاك الأولى كـان ابـن ألغـن مـنهم ... ولا مثـل مـا كـان ابـن ألغـن يـصنع

يمـسح سـلعاء الجـبين منيفـة ... فـيرأب شـق الفـرج وهـو موسـع

قال: وكانت أم المنذر بن الجارود وأخته لأبيه عند رجل واحد فعيره بعض الناس بذلك، فقال: ما بالحلال من بأس،[1] فقال الفرزدق:

لحـا الله هـذا مـن حـلال ومـن يقـل ... سـوى ذاك لاقاهـا بـاير ابـن الغـن

(قال أبو عبيدة): كان امرؤ القيس بن حجر مفركا عند النساء- أي مبغضا- فسأل زوجته أم جندب عن سبب ذلك، فقالت: أنت ثقيل الصدر خفيف العجز سريع الإراقة بطيء الأناقة، تعنى أنه ينزل سريعًا، ويستلقى فلا يقوم إلا بعد مدة طويلة، فلذلك كرهته. ويسمى أيضًا السريع الإنزال في اللغة الرذوج بالراء المهملة والذال المعجمة والجيم، ويقال أيضًا الزملق بتشديد الزاي وهى مضمومة وبتشديد الميم وهى مفتوحة وكسر اللام، وقيل: إن امرأ القيس أرضعته في صغره كلبة. فكان ريحها يوجد إذا عرق (وكان) الأضبط بن فريع مفركًا وكان شجاعًا، وكان إذا لقي في الحرب يتقدم أمام الصف، ويقول:

أنـا الـذي تفركـه حلائلـه ... ألا فتـى معـشق أنازلـه

(قال أبو الفرج في الأغاني): اجتمع نساء الأضبط ذات يوم فتحدثن فيما بينهن عن سبب كراهتهن للأضبط، فأجمع كل منهن على أنه بارد الكمرة، وكان معهن امرأة من غيرهن، فقالت لهن: المتعجز إحداكن إذا كانت ليلتها منه أن تسخن كمرته قبل أن يأتيها، وكان الأضبط واقفًا يسمع لهن، فقام ونادي بالعوف، فبادر إليه قومه من كل جانب ومكان، فقال لهم: أوصيكم بتسخين الكمرة فإنه لاحظوه لبارد الكمرة عند النساء، فقالوا: تبًا لك، ألهذا تدعونا! وانصرفوا وهم يضحكون (قال أبو عبيدة البكرى في كتاب اللآلئ) كانت العرب تقول: إن أولاد الموطوءة ليلاً أنجب من أولاد الموطوءة نهارًا، وكانوا

(١) جاء في هامش المخطوط: (قوله ما بالحلال الخ) هو ليس بحلال عند مالك لأنه لو قدرت إحداهما ذكرًا لكانت الأخرى إما زوجة وأم أخيه نسبًا وإما أخت ابنة من النسب وهو محلاهما غير سائغ، كما هو واضح أهـ.

يزعمون أن المرأة إذا وطئت نهارًا لم تنجب، وإذا وطئت آخر الليل في أول الطهر وأول الشهر لم يخطئ إنجابها، قال: وإلى هذا أشار الشاعر بقوله:

حملـت للـهلال في قبـل الطهـ ـــر وقـد لاح للـصباح بـشير

(وقال) ابن المسيب في شرحه لشعر أبي العلاء عند قوله:

وإنـي لشـر يـا ابـن آخـر ليلـة وإن عـز مـال فـالقنوع ثـراء

قال: أراد بقوله يا ابن آخر ليلة أن أمه حملت به في آخر ليلة من طهرها حين استقبلت الحيض، وذلك مذموم من فعل الناكح ومفسد للولد، وإنما المحمود والمصلح للولد أن تحمل به في أول الطهر، فيجيء الولد محكم البنية صحيح الجبلة (قال ابن قتيبة في أدب الكتاب): ويقال للمرأة إذا حملت وهى حائض: قد حملت سهوًا (قال غيره): ويقال أيضًا في ذلك: قد حملت وضعًا بضم الواو، وتضعًا بضم التاء الصحيحة المثناة (قال أبو عبيدة): قالت امرأة من العرب- وقال يعقوب ابن السكيت: هي أم تأبط شرا-: والله ما حملته وضعًا ولا وضعته يتنًا ولا أرضعته غيلاً. فالوضع ما ذكرناه، واليتن: أن يخرج رجلاً الجنين قبل رأسه، وذلك أنه يكون في البطن منتصبا، فإذا أراد أن يخرج بقدرة الله تعالى انقلب فخرج رأسه قبل رجليه فإذا أخرج رجليه قبل رأسه فذلك اليتن وهو مذموم. والغيل والغيلة: أن ترضعه أمه وهى حامل، وهو مضر للولد (وفي) بعض الأحاديث: «لا تقتلوا أولادكم سرًّا، فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره عن فرسه»[1] (وفي الصحيح): «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، ثم ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر بأولادهم شيء»[2] (وقال البكري): وكانوا يقولون إذا حملت المرأة وهى فزعة وجاءت بغلام جاءت به لا يطاق (وذكر الجاحظ) أن حالة الفزع والارتياع للمرأة من ألذ أحوال الجماع، قال: وكذلك مجامعتها بعد الإعياء والحركة الشديدة، وبعد انفصال الشهر الخامس من حملها إلى دخول الشهر السابع، وفي أول استقبالها الطهر من النفاس. انتهى كلام الجاحظ (ومما) أنشده الأصمعي قال: قال أبو كثير الهذلي في الإشارة إلى بعض ما تقدم:

---

(١) [حسن] أبو داود في: الطب: حديث (٣٨٨١)، وابن ماجه في: النكاح: حديث (٢٠١٢)، وأحمد في «مسنده» (٤٥٣/٦).

(٢) مسلم في: النكاح: حديث (١٤٠-١٤١/١٤٤٢)، وأبو داود في: الطب: (٣٨٨٢)، والترمذي في: الطب: (٢٠٧٧)، والنسائي في: النكاح: جـ (٦) ص(١٠٦-١٠٧)، وأحمد في «مسنده» (٣٦١/٦).

ولقد سربت على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مهبل

ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فهاش غير مثقل

حملت به في ليلة مزؤودة كرهًا وعقد نطاقها لم يحلل

فأتت به حوش الفؤاد مبطنًا سهدًا إذا ما نام ليل الهوجل

ومبرأ من كل عبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

(المغشم): الذي يغشم الناس، أي يظلمهم (والمثقل): الكثير اللحم الضخم. وكان أبو عبيدة ينصب مزؤودة والأصمعي يجرها بجعل الزؤود وهو الخوف لليلة مبالغة (والمبطن): الخميص البطن (والسهد): اليقظان (والهوجل): الثقيل. قال عيسى بن عمر: أنشدت حبر بن حبيب قوله ممن حملن به- البيت

•تعسمرها قبل أن تحل نطاقاه•

وهذا فصل مما يختص به الإنسان من ضروب النكاح منقول من فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي -رحمه الله تعالى-

وأرسل أبو منصور أكثر ألفاظ هذا الفصل مهملة غير مضبوطة، فأوجب ذلك وقوع التصحيف فيها كثيرًا من نسخة الكتاب ورواته، فاحتجنا -نحن- هنا إلى ضبطها بعد أن حققناها من أصول اللغة (قال أبو منصور، -رحمه الله تعالى-): لعل أسماء النكاح تبلغ مائة كلمة عن ثقات الأئمة، بعضها أصلي وبعضها مكني، وسأكتب لك من تفصيل أنواعه وأحواله ما هو شرط الكتاب (المحت) بالحاء المهملة والتاء المثناة (والمسح) بالسين والحاء المهملتين: النكاح الشديد عن أبي عمرو (والدعظ) بالدال والعين المهملتين والظاء المعجمة (والزعب) بفتح الزاي وبالعين المهملة: الاستيعاب في النكاح عن الليث عن الخليل (والدعس والعرد) وجميع حروف اللفظين مهملة: النكاح بشدة وعنف عن أبي دريد (الهك والهق): الإجهاد بشدة النكاح عن ابن الأعرابي (الوصاع) بكسر الواو وبالصاد والعين المهملتين: أن يحاكي العصفور في كثرة السفاد عن أبي سعيد الضرير (السغم) بالسين المهملة والغين المعجمة: أن يدخل الإدخالة ثم يخرج، فلا يحب أن ينزل عن النضر بن شميل (الخوق) بفتح الخاء المعجمة: أن تباضع الجارية فتسمع للمخالطة صوتا وأزيزا عند دخول الذكر وعند خروجه ويقال لذلك الصوت خاق باق عن ثعلب عن ابن الأعرابي (الدحر)

بالدال والحاء المهملتين والزاي: كثرة النكاح (وكذلك الهزج) بالزاي والجيم عن الليث وغيره (الفهز) بالفاء والزاي: أن ينكح الرجل الجارية في بيت وأخرى في بيت آخر تسمع حسه، وقد جاء النهى عن ذلك (والإفهاز كذلك) أن يبتدئ الفعل مع واحدة، وينزل مع أخرى عن ثعلب (التدليص) بالدال والصاد المهملتين: هو النكاح خارج الفرج عن أبى عمرو (الإكسال): أن يدرك الناكح فتور فلا ينزل (الخقخقة) بالخاآت المعجمة والقافات: مطاولة الإنزال عن شمر (الغيل): أن ينكحها وهى ترضع عن أبى عبيدة (الشرخ): أن يطأها وهى مستلقية على قفاها (الحاذقة) بالحاء المهملة والقاف: أن يأتيها على حرف أي وهى على جنبها، وسيأتي في هذه اللفظة مزيد بيان بعد هذا إن شاء الله تعالى. انتهى ما نقل من كتاب أبى منصور• وكما أن أسماء النكاح تبلغ على ما ذكره مائة اسم، فكذلك الأحكام الناشئة عنه لعلها تبلغ ثلاثمائة حكم، وقد جمعها الناس بناء على قول ابن أبى زيد في الرسالة: ومغيب الحشفة في الفرج يوجب كذا ويوجب كذا، فاستدركوا وزادوا واستنبطوا وأفادوا وألفوا فأجادوا، ولأبى الحسين بن زرقون في ذلك مختصر (وكان) شيخنا الإمام أبو على عمر بن محمد بن علوان الهذلى -رحمه الله تعالى- قد ألف في ذلك تأليفًا تهاداه الناس واستغربوه، جمع فيه ما قال غيره، واستدرك أحكامًا كثيرة استخرجها بكثرة اطلاعه وقوة استطلاعه وتبحره في العلم واتساعه، وكان يزعم أنه لا يكاد يوجد حكم يشذ عن كتابه، وكنت حين قرأت التأليف المذكور عليه في شهر ذي القعدة سنة اثنتين وسبعمائة رأيته قد أغفل أحكاما كثيرة حملني سن الحداثة إذ ذاك وحب الظهور على أن وضعت فيها جزءًا. انتهت الأحكام المستدركة فيه إلى خمسين حكمًا واتسعت فيه في ذكر الخلاف وبسط التعليل، فجاء تأليفا تامًا أيضًا مستقلاً ووقفته عليه فعظمه غاية التعظيم، وتلا قول الله ﷻ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وكانت وفاة شيخنا المذكور في الرابع لشعبان من سنة عشر وسبعمائة.

الباب الثاني والعشرون

في الرهز في الجماع

الرهز والارتهاز: كناية عن حركات وأصوات وألفاظ تصدر عن المتناكحين في أثناء فعلهما، تعظم بها لذتهما وتتقوى بها شهوتهما (قال ابن ذكوان): لم أسمع في الكناية عن الرهز بأحسن من قول الشاعر:

وأنـــت إمامـــة مـــا تعلمـــين فـــضلت النـــساء بـــضيق وحـــر
ويعجـــبين منـــك عنـــد الجمـــاع حيـــاة الكـــلام ومـــوت النظـــر

(أبو الفرج في الأغاني) عن المدائني عن فلانة قالت: كنت عند عائشة بنت طلحة فقيل: قد جاء عمر بن عبيد الله تعنى زوجها، قالت: فتنحيت ودخل، فكنت أسمع كلامهما فلاعبها مدة ثم وقع عليها فشخرت ونخرت وأتت بالعجائب من الرهز وأنا أسمع، فلما خرج قلت لها: أنت في نفسك وشرفك وموضعك تفعلين هذا! فقالت: إنا نستهب لهذه الفحول بكل ما نقدر عليه وبكل ما يحركها، فما الذي أنكرته من ذلك؟ قلت: أحب أن يكون ذلك ليلاً، قالت: إنه يكون ليلاً هذا وأعظم منه، ولكنه حين يراني تتحرك شهوته وتهيج، فيمد يده إلى فأطاوعه فيكون ما ترين، فقلت لها: يا عائشة! لقد أوتى عمر منك ما لم يؤته أحد من أزواجك (صاحب نثر الدر) لما زفت عائشة بنت طلحة إلى زوجها مصعب بن الزبير سمعت امرأة بينها وبينه وهو يجامعها شخيرًا وغطيطًا ونخيرًا في الجماع لم تسمع مثله، فقالت لها في ذلك، فقالت لها عائشة: إن الخيل لا تشرب إلا بالصفير. انتهى ما ذكره صاحب نثر الدر (وأخذ الشاعر هذا المعنى) ونقله إلى باب آخر، فقال:

أدرهـــا بالـــصغير وبـــالكبير وخـــذها مـــن يـــدي قمـــر مـــنير
ولا تـــشرب بـــلا طـــرب فـــإني رأيـــت الخيـــل تـــشرب بالـــصفير

(وقال أبو عتبة الأسدى) يخاطب أسماء بن خارجة حين زوّج ابنته هندًا من عبيد الله بن زياد:

جـــزاك الله يـــا أسمـــاء خـــيرًا فقـــد أرضـــيت فيـــشلة الأمـــير
بـــصدع قـــد يفـــوح المـــسك منـــه عظـــيم مثـــل كركـــرة الـــبعير

إذا دفـــع الأمـــير الأيرفيـــه   سمعـــت لـــه أزيـــزًا كالـــصرير

لقـــد زوجتهـــا حـــسناء بكـــرًا   تجيـــد الرهـــز مـــن فـــوق الـــسرير

(وكان) عبيد الله بن زياد هو أبو عذرها، وكانت شديدة المحبة له، ولما قتل جزعت عليه جزعًا شديدًا، وقالت يومًا: إني لأشتاق إلى القيامة لأرى وجه عبيد الله بن زياد. ويقال: إن عمرو بن حريث ومحمد بن الأشعث ومحمد بن عمير اجتمعوا بأبي أسماء فعاتبوه على تزويجه ابنته لعبيد الله بن زياد، وقالوا له: خطب إليك وليس له عليك سلطان، فبادرت إلى إجابته، فقال: قد كان ما كان، قال: وبلغ الخبر عبيد الله بن زياد، فلما استعمل على الكوفة تزوّج عائشة بنت محمد بن الأشعث، وزوج أخاه مسلم بن زياد بنت عمرو بن حريث، وزوج أخاه عبد الله بنت محمد بن عمير. قال ابن عباس: فاجتمعوا إليه والله كلهم في اللؤم (أبو الريحان) في كتابه المسمى بالجماهر قال: كان المتوكل مستهترًا مشتهرًا بالنساء، وكان ربما يجامع ويشتاق إلى المعاودة فيجد أعضاءه قد ضعفت عن حركات الرهز، قال: فجعل له حوض قد ملئ من الزئبق، وبسطت له عليه الفرش، فكان يجامع عليه، وكان الزئبق يحركه دون أن يستعمل الحركة، قال: فاستلذ بذلك، وسأل عن معدنه، فقيل له: هو بالشير من أذربيجان، فوجه إلى حمدون النديم ليوجه له بكل ما يتحصل منه، وكتب له منشورا بولاية الشير، فقال حمدون:

ولايـــــة الـــــشير عنـــــا   والعـــــزل عنهـــــا ولايـــــة

فـــــولني العـــــزل عنهـــــا   إن كنـــــت بـــــي ذا عنايـــــة

ولم يزل يرغب في العزل إلى أن عزل وأعفى من الولاية (الأبي في نثر الدر) قال: عرضت على المتوكل جارية، فقال لها: ما تحسنين؟ فقالت: عشرين فنًا من الرهز، فاشتراها (وأنشد البكري في الآلي لبعضهم):

شـــفاء الحـــب تقبيـــل وضـــم   وجـــر بـــالبطون علـــى البطـــون

ورهـــز تـــذرف العينـــان منـــه   وأخـــذ بالـــذوائب والقـــرون

(ابن عبد المؤمن في شرح المقامات) قال: أقبل رجل إلى على بن أبى طالب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين إن لى امرأة كلما غشيتها تقول قتلتني قتلتني، فقال له على ﷺ: اقتلها، وعليّ إثمها (العتبى) قال: سمع عقيل بن علقة المرى بنتًا له ضحكت ثم شهقت في

آخر ضحكها، فاخترط السيف وحمل عليها وهو يقول:

فرقـــت إنـــي رجـــل فـــروق ... مـــن ضـــحك آخـــره شـــهيق

فنادت بإخوتها فحالوا بينها وبينه، وكان عقيل جافيًا شديد الغيرة (جلس أعرابي في حلقة يونس بن حبيب، فتذاكروا النساء وتفاوضوا في أوصافهن، فقالوا للأعرابي: أي النساء أفضل عندك؟ قال: البيضاء العطرة اللينة الخفرة العظيمة المتاع الشهية للجماع التي إذا ضوجعت أنت، وإن تركت حنت. يشير بقوله إذا ضوجعت أنت إلى رهزها (وقيل لأعرابي): أتعرف ما الحب؟ قال: وكيف لا؟ قيل: ما هو؟ قال: عناق الحبيب، ولثم الثغر الشنيب، والأخذ من الحديث بنصيب، قيل: ما هكذا نعده فينا، قال: فما تعدونه؟ قالوا: القعس الشديد والجمع بين الركبة والوريد ورهز يوقظ النوام وفعل يوجب أكبر الآثام، فقال: ما هذا فعل ذوى الوداد، وإنما هو فعل طالبي الأولاد (وسأل) الأصمعي امرأة من بني عذرة، فقال لها: أنتم أهل العشق، فما هو العشق عندكم؟ قالت: الغمزة والقبلة والضمة، فما هو عندكم يا حضري؟ قال: فقلت أن يرفع رجليها ويدفع بجهده بين شفريها، قالت: يا ابن أخي! ما هذا بعاشق، إنما هو طالب ولد (وقال المأمون في هذا المعنى فأحسن) وتروى هذه الأبيات لغيره:

مـــا الحـــب إلا قبلـــة ... وغمـــز كـــف وعـــضد

أو كتـــب فيهـــا رقـــى ... أنفـــذ مـــن نفـــث العقـــد

مـــن لم يكـــن ذا حبـــة ... فانمـــا يبغـــى الولـــد

مـــا الحـــب إلا هكـــذا ... إن نكـــح الحـــب فـــسد

(وقال أبو تمام مخالفًا لذلك):

وقـد قيـل في نكـح المحبـة فاسـد ... وكـم نكحـوا حبًّـا ولـيس بفاسـد

(قال محمد بن يحيى المدني): سمعت عطاء يقول: كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولا يفرح أن يرى من يراها فإذا ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار واليوم تسير إليه، فإذا رآها قام إليها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة وأصحابه (وحكي) البكري في الآلى عن إسحق بن إبراهيم الموصلي -رحمه الله تعالى- قال: حدثتني أم الهيثم قالت: حجت زبيدة في بعض الأعوام فلما انتهت إلى حي ضرية ضربت لها القباب والفساطيط ثم

أحببت أن تأنس بجواري الحي فأمرت بجمعهن إليها فكنت ممن دعي، قالت: فلما صرنا عندها أطعمتنا طعامًا خلنا من الجنة وسقتنا شرابًا حلوًا مال بنا كل ميل وشربت منه وجعلت تحدثنا بحديث كقطع الروض، ثم قالت: ما تعددن العشق فيكم؟ فقلنا لها: يحب الفتى الفتاة فيجتعان ويتشاكيان ويتباكيان ويتواصفان ما يجدان ثم يفترقان فقالت: أبحيث يريان أم بحيث لا يريان؟ قلنا: بحيث لا يريان، قالت: ما صنعتن شيئًا، قلنا: فكيف الأمر عندكم يا أهل الحضر؟ قالت: تكون النظرة فتنزرع المحبة ثم يتراسلان ويتخاطبان ثم يتواعدان فيجتمعان ثم يضرب زيد عمرًا، قالت أم الهيثم: وما معنى يضرب زيد عمرًا، فقالت: إن دخلت الحضر عرفتيه، فقلت: قد دخلت العراق ولم أعرف، فضحكت وقالت: إنك لمتجاهلة (ومن) هذا المعنى قول ابنة الحجاج لما أنشدت قول عمارة:

ومـــن ليلـــة قـــد بتهـــا غـــير آثـــم ... بـــساحية الحجلـــين ريانـــة القلـــب

فضحكت وضربت يدها على وجهها، وقالت: فهذا إثم حرمه الله تعالى. ذكر ذلك أبو على في الأمالي، وفي معنى قولها يضرب زيد عمرًا أنشد ابن بسام في الذخيرة لبعض العلماء الشعراء المتأخرين في زمان الموحدين، فقال:

وبيـــضاء هيفـــاء وفـــق المنـــا ... تحـــيرت فيهـــا وفي أمرهـــا

إذا أدبـــــرت وإذا أقبلـــــت ... ففـــي مرهـــا المـــوت أو كرهـــا

ولـــا خلونـــا ورق الكـــلام ... دفعـــت بكفـــي في صـــدرها

ومـــن لا أسميـــه مثـــل القنـــا ... ة زادت ذراعًـــا علـــى عـــشرها

فمازلـــت اجمـــع طعنًـــا وضـــربًا ... علـــى زيـــدها وعلـــى عمرهـــا

وســـارفتها العـــين هـــذا بـــذاك ... وقـــد شـــدت الـــسوق مـــن أزرهـــا

فأعطيتهـــا المحـــض مـــن فـــضتي ... واعطتنـــي المحـــض مـــن تبرهـــا

أشارة إلى بياض ماء الرجل وصفرة ماء المرأة. وقد روى النسائي في ذلك حديثًا عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما سبق كان له الشبه» (وأخذ قوله):

ولـــــا خلـــــو ورق الكـــــلام

وهو كناية عن المحاورة السابقة للجماع والملاعبة الغاشية من قول امرئ القيس:

ولما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة أي إذلال

(ولامرئ القيس) التقدم في العبارة عن مثل هذه الحالة بما أنشدناه وبقوله:

تقول وقد جردتها عن ثيابها ... كما رعت مكحول المدامع أتلعا

وحقك لو شئ أتانا رسوله ... سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أرادت لو أحد أتانا رسوله سواك لدافعناه، فحذف جواب لو لدلالة قوله ولكن لم نجد لك مدفعًا عليه (وأخذ هذا المعنى) عمر بن أبى ربيعة فقال:

وناهدة الثدبين قلت لها اتكى ... على الأرض في ديمومة لم تمهد

فقالت على اسم الله أمرك طاعة ... وإن كنت قد كلفت ما لم يعود

فلما دنا الإصباح قالت: فضحتني ... فقم غير مطرود وإن شئت فازدد

قولها على اسم الله من أعجب الأشياء ههنا، وهو كقول الآخر: أنشده ثابت في كتاب خلق الإنسان

قالت وقد أعجبها عتوره ... وغاب في كعثبها خذموره

أستقدر الله وأستخيره

العثور: بضم العين المهملة وبالتاء المثناة حركة الذكر وانتشاره، وخذموره: أصله (وعلى) قوله ورق الكلام حكي الجاحظ قال: كان عندنا بالبصرة مخنث يجتمع الناس في منزله، وكان بعض أصحابنا يتعشق امرأة مشهورة بالجمال فلم يزل المخنث يتلطف بها حتى جمع بينه وبينها، قال: فاجتمعت به وسألته عن كيفية اجتماعهما فقال: لما اجتمعنا رق الكلام ووقع الالتزام وقضيت الأمور وشفيت حرارات الصدور في كلام غير هذا، قال الجاحظ: فلو كان أعد هذا الكلام لمسئلتى قبل ذلك بدهر لكان قد أجاد وأملح.

الباب الثالث والعشرون

في وطء الرجل في غير الفرج وذكر صور من صور النكاح ورد ذكرها في بعض الأحاديث

لا خلاف في جواز وطء المرأة فيما عدا الدبر من مغابنها وسائر جسدها، وإنما اختلف في جواز وطئها في الدبر، فأكثر العلماء على منعه (وقد) جاء النهى عنه في أحاديث ووصف بأنه اللوطية الصغرى، وطائفة كثيرة يجيزونه، ونسب ابن شعبان في كتاب النساء إباحة ذلك إلى جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، واختلف فيه عن مالك فرويت عنه إباحته من غير الحائض، وأسند ابن شعبان ذلك إليه من روايات كثيرة، وذكر على بن زياد أنه سأله عن ذلك فأنكره وأكذب من نسبه إليه، وتأول من أباح ذلك قوله ﷻ ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٣]، على أن معناه: حيث شئتم، وقال: لم يحل الله من المرأة موضعا دون موضع، والمانعون يتأوّلون ذلك على أن معناه: كيف شئتم، أي على أي صفة شئتم من استلقاء أو إكباب أو شرخ أو إتيان على حرف (وجاء) في ذلك حديث عن ابن عباس خرجه أبو داود عن ابن عباس قال: كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب، فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا ذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرخون النساء شرخًا منكرًا ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوّج رجل منهم من هذا الحي امرأة من الأنصار، فذهب يصنع ذلك فأنكرته عليه، وقالت له: إنما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني حتى شري أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[1] [البقرة: ٢٢٣]، أي: مقبلات أو مدبرات أو مستلقيات أو على حرف أو كيف شئتم، ولكن في موضع الولد• شري أمرهما: أي علا وارتفع (وفي حديث آخر) عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل المرأة من ورائها في فرجها كان ولدها أحول، فأنزل الله تعالى ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، خرجه البخاري[2] (قال) المازرى في المعلم: اختلف

---

(١) أبو داود في: النكاح: حديث (٢١٦٣-٢١٦٤).

(٢) البخاري في: التفسير: حديث (٤٥٢٨).

الناس في وطء النساء في أدبارهن هل ذلك حرام أم لا، وقد تعلق من قال بالتحليل بظاهر قوله تعالى ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وانفصل عن ذلك من يحرم بأن المراد بها ما نزلت عليه من السبب والرد على اليهود فيما اختلقت وقالت: والعموم إذا خرج على سبب قصر عليه عند بعض أهل الأصول، ومن قال بتعديه وحمله على مقتضى اللفظ من التعميم كانت الآية حجة له في نفى التحريم، ولكن وردت أحاديث كثيرة بالمنع منه. فيكون ذلك تخصيصًا لعموم الآية بأخبار الآحاد، وفي ذلك خلاف بين الأصوليين. وقد قال بعض الناس منتصرًا للتحريم: أجمعت الأمة على تحريم المرأة قبل عقد النكاح، واختلف فيه بعد العقد هل حل هذا العضو منها أم لا، فيستصحب الإجماع على التحريم حتى ينقل عنه ناقل، وعكس الآخرون وزعموا أن النكاح في الشرع يبيح المنكوحة على الإطلاق، فنحن مستصحبون لهذا حتى يأتي دليل يدل على استثناء بعض الأعضاء (قال) عياض -رحمه الله تعالى- في الإكمال: أني هنا تحتمل معنى كيف وتحتمل معنى حيث؛ إذ هي مقتضية لهما معًا، وبساط الحديث يقتضى معنى كيف وإباحة عموم صور الحرث لا مواضعه قال: وجل الناس على منعه من الطاهر والحائض، وحكي بعضهم الاتفاق على منعه من الحائض، ولأصحاب الشافعي في هذا الوجه قولان، فمنهم من قال إنه حلال منهما يعنى من الطاهر والحائض، ومنهم من فرق. والثالث قول الجمهور المنع بكل حال. انتهى كلام عياض -رحمه الله تعالى- (صاحب حرض الحلي) قال: التحميض إتيان النساء في أدبارهن، قال: ومنه حديث ابن عمر: كنا نشترى الجواري فنحمض فيهن. انتهى كلامه• هذا الأثر عن ابن عمر كأنه مناقض للأثر الآخر الذي يرويه الليث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال: قلت لابن عمر كيف ترى في التحميض؟ قال: وما التحميض؟ قلت: أن يأتي الرجل المرأة في دبرها، قال: أو يفعل هذا أحد من المسلمين، ذكره البكري في اللآلئ، ولكن قد ذكر البخاري حديثًا خرجه عن ابن عوف عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه، فأخذت عليه يومًا فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكان، فقال: أتدرى فيم أنزلت؟ قلت: لا، قال: أنزلت في كذا وكذا، ثم مضى،[1] ثم اتبعه البخاري بحديث آخر كالمفسر له يرويه أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، قال: يأتيها في ولم يذكر شيئًا[2] فهذا ما ذكره البخاري، وهو إشعار بأن ابن عمر كان يبيح وطء المرأة في الدبر، ويروى عن الزهري أنه

---

(١) البخاري في: التفسير: حديث (٤٥٢٦).

(٢) المصدر السابق (٤٥٢٧).

قال: وهل العبد فيما روى عن ابن عمر في ذلك (وقال النسائي) عن أبى النضر أنه قال لنافع: إن الناس قد أكثروا القول عنك أنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى أن يؤتى النساء في أدبارهن. فقال: لقد كذبوا علي، ولكن سأخبرك كيف كان الأمر إن ابن عمر عرض المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فقال: يا نافع! هل تعلم ما أمر هذه الآية؟ قلت: لا، فقال: إنا كنا معشر قريش نجيء النساء، وذكر نحوا من حديث ابن عباس المتقدم الذي خرجه أبو داود[1] (أبو الفرج في كتاب النساء) قال: لما تزوّج سليمان بن عبد الملك بن مروان أم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهيل الهلالية، وكانت قبله عند أخيه الوليد، وكانت قبل الوليد عند الحجاج بن يوسف أراد أن يطأ في الفرج ونزل قليلاً، فصاحت به ارفع يا أمير المؤمنين ولا تخفض، فقال لها: إني لم أذهب هناك. قال: وجامعها ليلة وكل وطلب المعاودة وأن تمكنه من نفسها في فرجها مكبة على وجهها ليعتمد على عجيزتها فأجابته إلى ذلك، وكان يقدمها ويؤثرها على سائر نسائه ولم يتزوّج ثلاثة من الخلفاء غيرها تزوّجت الوليد وسليمان وهشاما (ابن عبد المؤمن في شرح المقامات) قال: قرب أعرابي إلى امرأته وقد اغتلم واشتد إنعاظه، فلما هجم عليها قالت له: إني حائض، فقال لها: فأين الهنة الأخرى ثم حمل عليها هنالك وهى تدافعه وتسبه وهو ماض، فقال لها: فأين الهنة الأخرى ثم حمل عليها هنالك وهى تدافعه وتسبه وهو ماض في شغله وينشد:

كـــلا ورب البيـــت ذي الأســـتار   لأهـــتكن حلـــق الختـــار

قـــد يؤخـــذ الجـــار بـــذنب الجـــار

الختار: بكسر الخاء المعجمة حلقة الدبر (وإلى) هذه الحكاية أشار الحريري بقوله: إنه ممن يدور خلف الدار، ويأخذ الجار بذنب الجار (وأنشد ابن بسام) في الدخيرة لعلى بن حصين:

قمـــت نـــشوان وقامـــت   في تهـــاد وتثنـــى •

ونـــضت عنهـــا قميـــصًا   ثـــم لـــا ضـــاجعتنى •

قلبـــت بطنًـــا لـــبطن   قلـــت بـــل ظهـــر الـــبطن

---

(١) أبو داود في: النكاح: حديث (٢١٦٤).

فانثنــــــت في خجــــل قـــــا ثلــــــة بعــــد التـــ ـثني •

أناحانوت بـوجهين فلط إن شئت أو زن

ويسمى وطء المرأة على جنبها في اللغة: الحارقة بالحاء المهملة والراء والقاف (وفي) أثر بعض الصحابة: كذبتم الحارقة أي عليكم بها وهو إغراء، والعرب تغرى بهذه اللفظة، وقد تقدم ذلك منقولاً عن أبى منصور. قال أبو منصور: ويسمى وطؤها وهى مستلقية على ظهرها الشرخ، وهو معنى قول ابن عباس في الحديث المتقدم، وكان هذا الحي من قريش يشرخون النساء. وذكر الأطباء أن هذه الصورة هي ألذ صور النكاح وأقلها ضررًا (قال عبد الملك بن حبيب): كان عمر نهى النساء أن ينمن على هذه الصورة يعنى في غير وقت النكاح، قال: وكان يقول: لا يزال الشيطان يطمع في إدراكهن ما كانت مستلقية يريد أن الشيطان يسوّل لها إذ ذاك ذكر الرجل لأنها صورة اضطجاعها له (وجاء) في بعض روايات مسلم في حديث جابر المتقدم: أن اليهود كانت تقول: إذا جامع الرجل المرأة من ورائها في فرجها كان ولده أحول، فأنزل الله تعالى ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، قال: إن شاء مجبية، وإن شاء غير مجبية. قال المازرى: يعنى على وجهها. وقال عياض -رحمه الله تعالى-: التجبية تكون على وجهين: أحدهما: أن تضع يديها على ركبتيها وهى قائمة يعنى منحنية على هيئة الركوع، والأخرى أن تنكب على وجهها باركة.

الباب الرابع والعشرون
في الغيرة وبيان ما يحمد منها وما يذم

(الدارقطني) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليغار لعبده المسلم فليغر لنفسه» ذكره الدارقطني في كتاب العلل، وقال فيه: حسن صحيح (البزار) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «الغيرة من الإيمان»[1] (وفي) حديث مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله -تعالى- يغار، وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي المسلم ما حرم الله عليه»[2] (مسلم) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله ﷻ ومن أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله تعالى، ومن أجل ذلك حرم الفواحش»[3] (البخاري) عن المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو وجدت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح،[4] فقال: رسول الله ﷺ: «أتعجبون من غيرة سعد، إني لأغير منه، وإن الله -تعالى- لأغير مني (أبو الفرج في كتاب النساء) عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الغيرة غيرتان: فغيرة يحبها الله، وغيرة يكرهها الله، قلنا: يا رسول الله! ما الغيرة التي يحبها الله؟ قال: يغار أن تؤتى معاصيه وتنتهك محارمه، قلنا: فما الغيرة التي يكرهها الله؟ قال: أن يغار أحدكم في غير كنهه. يريد والله أعلم: ظهور أثر الغيرة من غير سبب يوجب ذلك إلا سوء الظن بالمرأة، وهو معنى ما روى عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن شداد قال: الغيرة غيرتان: غيرة يصلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخله النار (قال) الغزالي -رحمه الله تعالى- في الإحياء وذكر آداب المعاشرة بين الزوجين قال: ومن ذلك الاعتدال في الغيرة، وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي يخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت والتجسس على البواطن من غير ريبة، فقد نهى رسول الله ﷺ عن تتبع عورات النساء، وقال: «إن الله يبغض الغيرة من غير ريبة» وقال: إن من الغيرة ما يحبه الله، ومنها ما يبغضه الله، ومن الخيلاء ما يحبه الله، ومنها ما يبغضه الله. فالغيرة التي يحبها الله الغيرة مع الريبة، والغيرة التي يبغضها الله الغيرة من غير ريبة، والخيلاء التي يحبها الله خيلاء الرجل عند القتال وعند الصدقة، والخيلاء التي يبغضها الله الاختيال

(١) [ضعيف] الهيثمي في «مجمع الزوائد»، وعزاه إلى «البزار»، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/١٠٥).
(٢) مسلم في: التوبة: حديث (٣٦/٢٧٦١)، والبخاري في: النكاح: حديث (٥٢٢٣).
(٣) مسلم في: التوبة: حديث (٣٥/٢٧٦٠).
(٤) البخاري في: المحاربين: حديث (٦٨٤٦).

في الباطل (وقال على ﷺ): لا تكثر الغيرة على أهلك، فترمى بالسوء من أجلك (قال الغزالى): فأما الغيرة في محلها فلابد منها وهى محمودة، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يغار. وإن المؤمن يغار. وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه»[1]. وذكر الغزالى هنا بعض الأحاديث التي ذكرناها نحن في أول الباب (أبو الفرج في كتاب النساء) قال: قال معاوية ﷺ: ثلاث من خصال السؤدد: الصلع، واندماج البطن، وترك الإفراط في الغيرة (قال): ونزل قيس بن زهير ببعض العرب، فقال لهم: أنا غيور وأنا فخور وأنا أنف، ولكن لا أغار حتى أرى، ولا أفخر حتى أفعل، ولا آنف حتى أضام (قال أبو الفرج): فعابوا معاوية بعده ترك الإفراط في الغيرة من خصال السؤدد قال: ولا أرى فيها عيبًا فإن الإفراط هو مجاوزة الحد وتعديه إلى ظلم المرأة• وعابوا أيضًا قيس بن زهير بقوله لا أغار حتى أرى، قال: وأظنه إنما أراد رؤية السبب لا رؤية المواقعة• وهذا الذي قال: أبو الفرج كلام صحيح مقبول (ولمسكين الدارمى) في معنى قوله لا أغار حتى أرى:

وإنـي امـرؤ لا آلـف البيـت قاعـدا ... إلى جنـب عرسـي لا أفارقهـا شـبرا
ولا مقـسم لا تـبرح الـدهر بيتهـا ... لتجعلـه قبـل الممـات لهـا قـبرا
إذا هـي لم تحـصن أمـام فنائهـا ... فلـيس بمنجيهـا بنـائي لهـا قـصرا
ولا حامـل ظـني ولا قـول قائـل ... علـى غـيرة حتـى أحـيط بهـا خـبرا
فهـبني امـرأ راعيـت مـادمـت شـاهدا ... فكيـف إذا مـا سـرت عـن بيتهـا شـهرا

(وقال أيضًا في مثل ذلك):

ألا أيهـا الغـائر المستـشيط ... عـلام تغـار إذا لم تغـر
تغـار علـى النـاس أن ينظـروا ... وهـل يفـتن المحـصنات النظـر
ومـا خـير عـرس إذا خفتهـا ... وبـت عليهـا شـديد الحـذر
إذا الله لم يعطهـا عفـة ... فلـن ينفـع البعـل سـوط ممـر
ومـن ذا يراعـى لـه عرسـه ... إذا ضـمه والمطـى السـفر

---

(١) العجلونى في «كشف الخفاء» (١٠٥/٢).

(الزبير في الموفقيات) قال: قال علي ﷺ لولده: يا بني إياك والغيرة في غير موضعها فإنها تدعو الصحة إلى السقم، ولكن أحكم أمرهن فإن رأيت ذنبًا فاجعل النكير على الصغير والكبير، وإياك أن تعيرهن الذنب فيهون عليهن العيب (وقال بعض الحكماء) الغيرة جبلة جبل الله عليها بني آدم وجميع الحيوان، ولذلك ترى العير يقاتل عن العانة كل فحل يعرض لها غير أن طباع الناس تختلف فيها، فمن مفرط آخذ بالظنة ومن متغاض مخل بالدين والمروءة، وكلا الطرفين ذميم، وخير الأمور أوساطها (وممن) كان مفرطًا في الغيرة عقيل بن علقة، له مع بناته ونسائه في ذلك أخبار تشبه فعل الحمقى (وكان) سليمان بن عبد الملك أيضًا كذلك. حكي صاعد في الفصوص بسنده إلى ابن الكلبي قال: كان سليمان بن عبد الملك من أشد الناس غيرة، فخرج يريد بيت المقدس بنسائه وثقلته، فنزل في غور البلقاء في دير من ديارات الرهبان وذلك ليلة كمال البدر، وكان في جنده فتى من كلب يسمى سنانًا من قوم يقال لهم بنو كلب، وكان من أحسن الناس وجها وأنداهم صوتًا وكان أبلى به مرارًا بين يديه فلما كان في تلك الليلة دعا فتيانًا فأضافهم وسقاهم النبيذ، فلما أخذ فيهم الشراب رفع سنان صوته يتغنى بهذه الأبيات:

محجوبة سمعت صوتي فأرقها ... من آخر الليل لما بلها السحر

تدني على فخذيها من معصفرة ... والحلي منها على لباتها خصر

لم تحجب الصوت إغلاق ولا حرس ... فدمعها لطروق الصوت منحدر

في ليلة البدر ما يدرى مضاجعها ... أنور غرتها أبهى أم القمر

لو خليت لمشت نحوى على قدم ... تكاد من رقة للمشي تنفطر

وكان سليمان مع جارية له وكان معجبًا بها، فلما سمع الأبيات نهض وهو يرعد حتى كشف عنها سترها فوجدها على الهيئة المذكورة في الأبيات، فلما رأته والغضب به يتردّد في وجهه علمت أن ذلك منه غيرة لما قد سمع من الرجل، فقالت في نفسها: إن لم أترجم عن نفسي وإلا قتلني ويقتل الرجل من بعدى، فقالت قاتل الله القائل:

ألا رب صوت رائع من مشوّه ... قبيح المحيا واضع الأب والجد

قصير نجاد السيف جعد بنانه ... إلى أمة فدعاء ينسب أو عبد

فقال لها سليمان: أما إنه على ذلك لقد راعك صوته، فقالت: يا أمير المؤمنين، وافق صوته مني استيقاظًا فأصغيت إليه، قال: فلما سمع سليمان بن عبد الملك كلامها بقي يرعد كأنه السعفة في يوم ريح عاصف ورد بيده على قائم سيفه، وقال: أما والله لا قتلنه أو لأنكلن به نكالاً يتعظ به من سواه من الأوغاد، ثم بعث من أتى به موثقًا في الحديد مصفدًا، فقال له سليمان: من أنت ثكلتك أمك؟ فعرفه بنفسه، فأنشأ سليمان إذا ذاك يقول:

إن سنانا ثكلته أمه ... وخاله يثكله وعمه

ثم بنو كلب جميع قومه ... وسوف سرعا فيه تفجع أمه

كان لها ريحانة تشمه ... فسوف يلقى بعدما يغمه

ثم قال له: يا وغد أما إني لا أقتلك، ولكني أنكل بك، فأمر به فخصي وسمى ذلك الدير به دير الخصيان. انتهى ما ذكره صاعد (ويقال): إن هذه القضية هي السبب في أن سليمان بن عبد الملك كتب لعامله على المدينة وهو ابن حزم وأمره أن يخصي جميع من في المدينة من المخنثين فخصي الدلال المخنث وغيره (قال) الأصبهاني في كتاب أفعل: لما أحضر سليمان بن عبد الملك الشخص الذي غنى الأبيات ليخصيه كلمه فيه عمر بن عبد العزيز، فقال له: اسكت، فإن الفرس تصهل فتستودق له الحجر، وإن الفحل يهدر فتضيع له الناقة، وإن الرجل ليغنى فتشتاق له المرأة ثم، ثم خصاه (قال الأصبهاني أيضًا في الكتاب المذكور): إن سليمان بن عبد الملك كتب إلى ابن حزم عامله على المدينة أن يحصى المخنثين الذين بالمدينة بالحاء المهملة أي يعدهم ليرى فيهم رأيه، فوقعت للكاتب نقطة على الحاء فصيرتها خاء معجمة، فلما وصل الكتاب إلى ابن حزم خصاهم من ساعته. ويقال: بل كتب إليه بخصائهم على الحقيقة من غير إشكال ولا تراجع في أمرهم (قال): ولما خصي طويس قال الآن أعيد علينا الختان الأكبر فليت هذا من أول، فقال له المخنث الدلال: بل هو الختان الأكبر الذي لابد منه لكل مخنث أبتر• فقال نسيم السحر: الآن صرنا مخنثين خصيانًا حقًا• فقال نوم الضحى: يا نسيم، بل والله كنا مخنثين، فصرنا نساء• فقال له جامع الأنس: يا قوم استرحنا والله من حمل ميزاب البول• فقال غصن البان: اقصروا عن الكلام فإنكم والله جميعًا مجانين، فما الذي نصنع بسلاح لا ينفع. انتهى ما ذكره الأصبهاني (قال سهل بن هارون): ثلاثة من المجانين وإن كانوا عقلاء: الغيران،

والغضبان، والسكران. وكان الخليع الشاعر حاضرًا فقال له: والمنعظ يا أبا عمرو، فقال: والمنعظ وضحك، وأنشأ يقول إذ ذاك:

ومـــا شـــر الثلاثـــة أم عمـــرو بـــصاحبك الـــذي لا تـــصحبينا

(قال): وقد تنتهي الغيرة وحب المرأة بالرجل إلى أن يوصى المرأة عند وفاته أن لا تنكح أحدًا بعده أو لا تنكح فلانًا بعينه ويحلفها على ذلك، وأيضًا ربما يحلف فلانًا أنه لا ينكحها. وذلك من غاية الحمق والسخف، وإنما هو إغراء لها بنكاحه، وتنبيه لكل واحد منهما على الفكرة في أمر صاحبه (قال) ابن الساعي في تاريخه: كانت فاطمة بنت الحسين ابن على ﵁ وهى أخت سكينة عند الحسن بن الحسن بن على ﵁ وكان محبًا لها، فلما احتضر قال لها: إنك امرأة مرغوب فيك وكأني بعبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان قد جاء خلف جنارتى على فرس مرجلاً شعره لابسًا حلته يسير في جانب الناس متعرضًا لك، فانكحي من شئت غيره، فإني لا أدع من الدنيا ورائي هما غيرك وحلفها بالأيمان المغلظة من العتق والصدقة على ذلك، فلما مات الحسن جرى الأمر على ما وصفه قبل وفاته (قال): وكان يقال لعبد الله بن عمرو بن عثمان المطرف لحسنه وجماله، فرآها حاسرة وهى تضرب وجهها فأرسل إليها أن لا تضربي وجهك فإن لنا به حاجة فارفقي به، قال: فاسترخت يداها. وعرف ذلك منها، ثم عوضها مكان كل مملوك خلقت به مملوكين، ومكان كل شيء شيئين، ثم تزوجها فولدت الديباج محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان، وهو الذي قتله أبو جعفر المنصور، وكانت وفاتها هي وأختها سكينة في سنة واحدة، ﵁ (وذكر الرفيق في قطب السرور): أن الهادي كان اشترى أمته أمة العزيز وهى التي تسمى غادر بمائة ألف دينار. ويقال: إن الربيع أهداها له، قال: ولم يكن في زمانها أجمل منها ولا أحسن غناء ولا أجمع لكل فن يحتاج إليه من مثلها، قال: وكان الرشيد يهواها ويكتم ذلك. وكان الهادي ينومها في حجره ولا يوقظها حتى تنتبه من نومها لشدة محبته فيها، فبينما الهادي ذات يوم جالس معها إذا استؤذن عليه لأخيه هارون، فأسرعت إلى بعض المواضع القريبة وأسرعت في مشيها، ودخل الرشيد على أخيه الهادي فسلم عليه وجلس بين يديه، فقال له الهادي: يا هارون! قد حدثتني نفسي بشيء وهو يجول في فكرى وقد تنغص له عيشي، قال له: وما هو يا أمير المؤمنين لا نغص الله لك عيشًا؟ فقال له الهادي: يا هارون إنه وقع في خلدي أنني أموت قريبًا، وأنت تتزوّج امرأتي أمة العزيز من بعدى، فقال له الرشيد: بل يجعلني الله فداءك ويقدمني قبلك يا أمير المؤمنين؟ لا يخطر لك هذا

على بال فبئس الظن هذا، ولا أسمعني الله فيك سوءًا ولا أفجعني فيك، فقال الهادي: دعني من هذا، فهو ما أخبرتك، فقال له الرشيد: وما الذي يزيل هذا من قلبك؟ فقال له: الأيمان والعهود والمواثيق فأعطاه ما أراد من الطلاق والحج ماشيًا والعتق والصدقة وكل يمين مؤكدة، فكأن موسى الهادي قد سكن ما به لذلك، ثم لم يلبث الهادي إلا أيامًا قلائل حتى مات، وأرسل إليها الرشيد من ساعته يعرض لها بالخطبة، فأذكرته ما كان حلف به، فقال لها: ما أهون ذلك أحج وأطلق وأتصدق وأعتق، فطلق زبيدة طلقة انعزل بها عنها، واعتق حسينًا ومسرورًا الخادمين، وتصدق بمائة ألف دينار، وحج في تلك السنة ماشيًا، وكانت تفرش له اللبود ميلاً ميلاً، فيقال: إنه خرج أول الحول فوصل في آخره، وتزوج أمة العزيز لما قضى حجته، فأقامت عنده يسيرًا، فبينما هو ذات ليلة وهى نائمة ورأسها في حجرة إذا انتبهت فزعة مرعوبة مذعورة، فاستخبرها عن شأنها، فقالت: يا أمير المؤمنين! رأيت الهادي أخاك وقد دخل فأخذ بعضادتى هذا الباب، وتأوه وأنشأ يقول:

إن امــرأ غــره مــنكن واحــدة ... بعــدى وبعــدك في الــدنيا لمغــرور
أنــسيت عهــدي ولم تعبــأ بمــوثقتى ... تبًّــا لفعلــك والمفقــود مهجــور
فــلا تهــني بمــا أصــبحت راضــية ... وكــل حــي علــى الحــالات مقبــور

قال: فأقامت بعد هذا كله عامًا، وقيل: شهرًا، وقيل: جمعة وماتت (وذكر) ابن الكردبوس التوزرى في تاريخه أن الذي أنشده الهادي في النوم:

أخلفـــت وعـــدى بعـــدما ... جـــاورت ســـكان المقـــابر
وحلفـــت لى وحنثـــت في ... أيمانـــك الكـــذب الفـــواجر
ونكحـــت غـــادرة أخـــي ... صـــدق الـــذي سمـــاك غـــادر
لا يهنـــك الألـــف الجديـــ ... ـــد ولا تخطتـــك الـــدوائر

(قال المؤلف -رحمه الله تعالى-): وأما غيرة المرأة على الرجل فلا تبلغ- وإن أفرطت- مبلغ غيرة الرجل على المرأة، ولذلك أحل الله للرجل وطء أربع من النساء ووطء ما شاء من السرارى لما علم أن في صبر المرأة محتملاً، ولم يجعل للمرأة أن تنظر إلى غير زوجها لما علم أن صبره لا يحتمله مع حكم أخرى في ذلك (قال بعضهم): ولذة المرأة على قدر شهوتها وغيرتها على قدر لذتها (وفي) الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تدرى الغيري

أعلى الوادي من أسفله»[١] (وقالت) عائشة ﷺ: دخل على رسول الله ﷺ ذات يوم ومعه ولده إبراهيم، فقال: انظري يا عائشة شبهه بي، قالت: فحملني ما يلحق النساء من الغيرة على أن قلت: ما أرى شبها (وفي) صحيح مسلم عنها -رضي الله تعالى عنها- قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «إني لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت غضبانة، قالت: فقلت من أين تعرف ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا كنت راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت غضبانة قلت لا ورب إبراهيم»، قالت: قلت أجل يا رسول الله، والله ما أهجر إلا اسمك»[٢] (قال) عياض في الإكمال: مغاضبة عائشة لرسول الله ﷺ إنما هي من الغيرة التي عفي عن النساء فيها، حتى لقد ذهب مالك وغيره من علماء المدينة إلى إسقاط الحد عن المرأة إذا قذفت زوجها على جهة الغيرة، واحتجوا على ذلك بالحديث الذي قدمناه نحن، وهو قوله ﷺ «ما تدرى الغيري أعلى الوادي من أسفله» قال: ولولا هذا لكان على عائشة في مغاضبتها للرسول ﷺ أعظم الحرج؛ لأن الغضب على النبي ﷺ وهجره كبيرة لمن فعله، ألا ترى قولها إنما أهجر اسمك فدل ذلك على أن قلبها لم يهجره، وإنما كان ذلك منها غيرة لفرط محبتها فيه ﷺ (وقال) الطبري في بعض كلامه: الغيرة من النساء مسموح لهن فيها ولا تنكر من أخلاقهن ولا يعاقبن عليها؛ لأنهن فطرن عليها، ولا يملكن أنفسهن عندها، وذكر الحديث المتقدم «لا تدرى الغيري أعلى الوادي من أسفله»* ومثل حديث عائشة المتقدم قول عمر لحفصة: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قال: أتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قال: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر.[٣] وهو من هذا الباب (وخرج) مسلم عن أنس وذكر حديث صفية حيث صارت في مقسم دحية، وأن رسول الله ﷺ أرضاه عنها وضرب عليها قبته في السفر وابتنى بها وأولم عليها، قال: فلما رجعنا ونظرنا إلى جدر المدينة هششنا إليها، فرفعنا مطينا ورفع رسول الله ﷺ مطيته وصفية خلفه قد أردفها، فعثرت مطية رسول الله ﷺ وصرعت، قال: فليس أحد من الناس ينظر إليه ﷺ ولا إليها حتى قام رسول الله ﷺ يسترها فأتينا إليه، فقال: «لم نضر»، قال: فدخلنا المدينة، فخرج جواري نسائه يترأينها ويشمتن بصرعتها وهن ينظرنها ويشتفين[٤] (قال عياض): ذلك لما جبل عليه الضرائر من الغيرة، لاسيما بالطارئة عليهن (النسائى) عن أنس بن مالك قال: قالوا يا رسول الله، ألا تتزوج[٥] امرأة من الأنصار، قال: «إن فيهم لغيرة شديدة»[٦] (قال)

---

(١) العجلونى في «كشف الخفاء» (١٠٥/٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم في: النكاح: حديث (١٣٦٥/٨٨).

(٥) في المخطوط «نتزج»، والمثبت من المحقق.

صاحب نثر الدر: قال عبد الله بن جعفر لابنته: يا بنية إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وإياك والمعاتبة فإنها تورث الضغينة، وعليك بالزينة، واعلمي أن أزين الزينة الكحل، وأطيب الطيب الماء. وقد قدمنا ذكر هذا الأثر في باب الزينة (قال هشام بن حسان): كانت صفية بنت سيرين أخت محمد بن سيرين تقول: أما تستحي الحرة أن تغار، قال: وأرادت يومًا أن تدخل إلى بيتها، فإذا زوجها مع جارية له على فراشها، فأغلقت عليهما الباب وانصرفت فلما كان بعد أيام ضرب الجارية، فقالت له: أتضرب العروس؟ فضحك، وقال: قد علمت أنك عرفت، والجارية لك (الزبير في الموفقيات) عن عبد الله بن نافع عن عبد الله بن مصعب قال: شكا إلى هارون الرشيد وهو ولي عهد أن أم جعفر لا تحمل، فقلت له: أغرها، وحدثته حديث إبراهيم النبي -عليه الصلاة والسلام- في سارة أنها كانت لا تحمل فاتخذ هاجر فحملت بإسماعيل، فغارت سارة فحملت بإسحق، قال: فاتخذ هارون الرشيد مراجل فحملت بالمأمون وحملت زبيدة بالأمين. انتهى ما ذكره الزبير (وكان الرشيد) يبجل أم جعفر ويعظمها، وكان يقول: ربما أردت غشيانها فأهابها فيأخذني الزمع حتى يمنعني منها، ولولا رغبته في الولد لم يغرها بالتسري عليها، قال: وكانت تقول: إياك أن تجعلني في منزلة إمائك اللاتي تريد التلذذ والتمتع بهن، قال: وكنت أهاب الجلوس على فراشها مع جليل موقعها من قلبي إعظامًا (وأنشد) لها أبو تمام في الحماسة، وذكر أنها لبعض الحجازيين، ونسبها غيره لعمر بن أبي ربيعة:

• خبروها بأنني قد تزوّجـ	ـت فظلت تكاظم الغيظ سرا
ثم قالت: لأختها ولأخرى	جلد إليته تزوّج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها	لا ترى دونهن للسر سترا
ما لقلبي كأنه ليس مني	وعظامي أخال فيهن فترا
من حديث نمى إلى فظيع	خلت في القلب من تلظيه جمرا

(١) النسائي في: النكاح: جـ (٦) ص(٦٩).

الباب الخامس والعشرون

يشتمل على ملح من ملح المفاكهات والمطايبات تتعلق كلها بالنكاح وهو خاتمة الأبواب

(حمزة بن الحسن الأصبهاني في كتاب أفعل) قال: حضر خوّات بن جبير سوق عكاظ، فوجد امرأة قد عرضت أنحاء لها للبيع، ففتح نحيًا منها فنظر إليه وجعله في إحدى يديها، ثم فتح آخر ونظر إليه وجعله في يدها الأخرى، فلما شغل يديها بهما رفع رجليها وأقبل على عمله وهي لا تقدر أن تدافعه حفظًا لما في النحيين، فلما قضى شغله قام عنها فقالت له: لا هنيت. فضرب بهما المثل: أشغل من ذات النحيين، وأظلم من خوّات• قال: وكان خوّات من فتاك العرب، وقال له النبي ﷺ «يا خوّات ما فعل بعيرك الشارد؟» قال: قيده الإسلام يا رسول الله (قال) أبو عمرو في الاستيعاب: وفي هذه القصة يقول خوّات:

فشدّت على النحيين كفي ضنينة وأعجلتها والفتك من فعلاتي

قال: وهو خوات بن خبير بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس الأنصاري الأوسي أسلم وكان أحد فرسان رسول الله ﷺ (وذكر) يعقوب بن السكيت القضية في إصلاح المنطق بأوعب من هذا، قال: إن ذات النحيين من بني تيم الله بن ثعلبة (قال الرشاطي في اقتباس الأنوار) وذكر عمر بن شيبة في كتاب أخبار المدينة: أن رسول الله ﷺ رأى في بعض غزواته خوّاتا مع نسوة يحدثهن عند أراك بمر الظهران، فقال له رسول الله ﷺ: «مالك يا عبد الله؟» قال: ألتمس طلعا لبعيري، وقد عرف رسول الله ﷺ أنه لا بعير له ولا ناقة، فقال له ﷺ: أما ترك بعيرك شراده بعد، فاستحيا خوات، وجعل رسول الله ﷺ يكرر ذلك عليه ممازحًا له (وقولها) لما فرغ لاهنيت يشبه قول الآخر• فلا شب الغلام ولاهناها (ذكر الكلبي) قال: كان حممة بن رافع الدوسي من أجمل العرب، وكان له جمة يقال لها الرطبة، وكان يغسلها بالماء، فإذا كمل لها يومان حلها فتملأ جلساءه طيبًا (قال): وحج على فرس له فرأته الخناس الكتانية– وكان يقال لها الجمانة لجمالها، وكانت عند رجل من بني كنانة– فوقع حبه في قلبها، فقالت له: من أنت، فوالله ما رأيت أحسن من وجهك ولا من شعرك ولا من فرسك، فمن تكون؟ قال: امرؤ من الأزد، قالت: فإنك حملتني ما لا أطيق ووقعت في قلبي موقعًا فاحملني معك فإني لا أطيق الصبر عنك، قال: فحملها إلى بلده، فولدت له عمر بن حممة، وخرج زوجها الأول في طلبها فلم يقدر عليها، وسمع أنها ولدت فقال:

ألا حـــي الخنـــاس علـــى قلاهـــا وإن شـــطت وإن بعـــدت مـــداها
وقـــد نبئتهـــا ولـــدت غلامـــا فـــلا شـــب الغـــلام ولاهناهـــا

(وسمع) عمر بن الخطاب ﷺ هذين البيتين، فقال: قد شب، وقد هناها على رغم أنفه (الرشاطى في كتابه المسمى باقتباس الأنوار والتماس الأزهار) وأضفت إلى كلامه نبذا من كلام غيره، قال: كان مسيلمة بن حبيب الحنفي قد تسمى في الجاهلية بالرحمن، فلما بعث رسول الله ﷺ أرسل إليه يدعوه إلى الإسلام فلم يرجع عن كذبه، وقال: كلانا نبي فإن آمن بى آمنت به، ثم توفي رسول الله ﷺ وتخاذلت بنو تميم في أمر الردة واختلفوا اختلافا شديدًا، فهم على ذلك إذ قامت فيهم سجاح بنت سويد بن يربوع تدعى النبوة في فرسان تغلب. فأتاهم أمر أعظم مما كانوا فيه، وكانت تقول: إن مما أنزل عليها في الكتاب: يا أيها المؤمنون المتقون لنا نصف الأرض ونصفها لقريش ولكنهم قوم لا يعدلون فاتفقت بنو تميم كلهم على نصرتها وفيهم رؤساء الناس وساداتهم، وفيهم مثل الأحنف بن قيس وحارثة بن بدر وعطارد بن حاجب ونظراؤهم (وفي ذلك يقول عطارد):

أضـحت نبيتنـا أنثـى نطيـف بهـا وأصـبحت أنبيـاء النـاس ذكرانـا

وكان مؤذنها شيث بن ربعي* وقالت لتميم مرة: اسمعوا وعوا، واتبعوا ما أنزل على فإن فيه شفاء لما في صدوركم، ثم قالت: أيها الناس أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم اغدوا على الذئاب. فليس من دونهم حجاب، فصمدت إليهم فقتلت منهم قتلا ذريعًا، ثم قالت لهم بعد ذلك سورة أخرى: اقصدوا اليمامة، فقيل لها إن شوكة أهل اليمامة شديدة وقد استفحل أمر مسيلمة، فقالت لهم: إنه أنزل على: يا معشر تميم اقصدوا اليمامة ودفوا إليها دفيف الحمامة، فاضربوا فيها كل هامة، واضربوا فيها نارًا ملهامة، فلن تلحقكم بعد ذلك ملامة. قال: فتوجهت تميم معها إلى اليمامة، فلما سمع مسليمة الخبر ضاق ذرعًا وتحصن في حجر قصبة اليمامة، ثم أحاطت جيوشها به، فأرسل إلى وجوه قومه واستشارهم في أمره، فقال: يا معشر ثقيف ما تقولون في سجاح هذه التغلبية؟ فقالوا له: الرأي أن تسلم الأمر إليها وتنجو بنفسك فإن لم تفعل فهو البوار، فقال لهم: سأنظر في أمري، ثم إنه أرسل إليها كتابًا يقول فيه: أما بعد فإنه أنزل عليك وحى، وأنزل على وحي، فهلم نتدارس ما أنزل علينا، فمن غلب صاحبه اتبعه الآخر، ونكون لحمة واحدة ونأكل العرب بقومي وقومك، فلما وصلت الرسالة إلى سجاح أجابته إلى ما طلب، فأمر فضرب له قبة من أدم وأمر بالعود

المندلي فأحرق، وقال: استكثروا لها من الطيب، فإن المرأة إذا شمت الطيب تذكرت الباه. قال: فأتته إلى القبة وسألته عما أنزل عليه، فقال: ألم ترى إلى ربك كيف فعل بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشا وأمات وأحيا وإن إلى الله المنتهى، فقالت: ثم ماذا؟ قال: ألم ترى أن الله خلقنا أفواجا وجعل النساء لنا أزواجا نولج فيهن إيلاجا ونخرج منهن إذا شئنا إخراجا، فضحكت، ثم أنشأ وجعل يقول:

ألا قـــــومي إلى النيـــــــك	فقـــد هيـــئ لـــك المـــضجع
فـــإن شـــئت فرشـــناك	وإن شـــئت علـــى أربـــع
وإن شـــئت بثلثيـــــه	وإن شـــئت بـــه أجمـــع

قالت: بل به أجمع، وقالت: كذا أمرت، وواقعها. قال: فلما قام عنها، قالت: إن مثلى لا ينكح هكذا، فتكون وصمة على قومي، ولكنى مسلمة إليك النبوة، فإذا سلمتها إليك فاخطبنى إلى أوليائي. قال: فكان كذلك وخرجا، فاجتمع الحيان بنو حنيفة وتميم، فقالت سجاح: إنه قرأ على ما أنزل عليه من الوحي فوجدته حقًا فاتبعته. قال: فتزوّجها وسألوه عن المهر. قال: قد وضعت عنكم صلاة العصر (قال الرشاطى): فبنو تميم إلى الآن بالرمل لا يصلون صلاة العصر، ويقولون هي حق لنا ومهر كريمة منا لا نرده (قال) أبو بجيلة العكلى في ذلك أنشده الآمدى في معجم الشعراء:

إن ســجاحا لاقـــت الكـــذابا	نبيـــة فحلـــت الكتابـــا
وجعلـــت كعثبهـــا قرابـــا	أوقـــب فيـــه أيـــره إيقابـــا

(قال) الرشاطى: هي سجاح بنت أوس بن محوس (وقال القنجديهى) في كتابه: هي سجاح بنت الحارث بن سويد، وتكنى بأم صارم، أسلمت في أيام معاوية وحسن إسلامها (أبو الفرج في الأغاني) قال: خرجت أنا والسيد الحميري فلقيتنا بنت الفجاءة بنت عمر بن قطري بن الفجاءة وكانت امرأة برزة حسناء، فاستوقفها السيد وأنشدها من شعره، فأعجب كل واحد منهما بصاحبه ثم خطبها، فقالت له: فكيف يكون هذا ونحن على ظهر الطريق؟ فقال لها: يكون مثل نكاح أم خارجة، قيل لها: خطب، فقالت: نكح فاستضحكت، وقالت: انظر في هذا وعلى ذلك من أنت؟ فعرفها بنفسه، فقالت: لا شيء أعجب من هذا يماني وتميمية ورافضي وإباضية، فكيف يجتمعان؟ قال: نجتمع ولا يذكر أحد منا مذهبه

ولا سلفه، فقالت: أما علمت أنه إذا أرخيت الستور تكشف المستور وظهرت خفيات الأمور، قال: فأعرض عليك أخرى، قالت: وما هي؟ قال: المتعة التي لا يعلم بها أحد، فقالت: تلك أخت الزنا، فقال لها: أعيذك بالله أن تكفري بعد الإيمان، قالت: وكيف ذلك؟ فقال: قال الله سبحانه ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [النساء: ٢٤]، قالت: أستخير الله وأقلدك، وسارت معه فقضى حاجته منها وبلغ أمرها أهلها من الخوارج، فكانوا يتوعدونها بالقتل، فكانت تواصله مستخفية من أهلها متى وجدت سبيلاً إلى ذلك• ولشتان ما بين هذه الخارجية والخارجية الأخرى التي يقول فيها قطري:

لعمــرك إنــي في الحيــاة لزاهــد ... وفي العــيش مــا لم ألــق أم حكــيم

كانت أم حكيم هذه حسناء جميلة مبغضة للرجال، ولم يبق أحد من أشراف الخوارج حتى خطبها وهي ترد جميعهم، وقالت:

ألا إن وجهـــا حـــسن الله خلقـــه ... لأجدر أن يلقى بـه الحسن أجمعـا

وأكــرم هــذا الجــسم عــن أن ينالــه ... تــورك فحــل همــه أن يجامعــا

(وقوله) في هذه الحكاية يكون كنكاح أم خارجة، ذكر البكرى أن المثل يضرب بها فيقال: أسرع من نكاح أم خارجة، وكانت حسناء مقبوله فكان الرجال يرغبون فيها ولا يصبرون على ما تطلبهم به من الباءة فيطلقونها (قال) ويروى أن بعض أزواجها طلقها فرحل بها ابن لها عن حيه إلى حيها فتبينت راكبًا وهو مقبل فقالت لابنها هذا خاطب يخطبنى أفتراه يعاجلنى قبل أن أحل له ماله أل وغل (قال): وقد ولدت في عدة بطون من العرب حتى لو قال قائل إنه لا يكاد يتخلص من ولادتها كثير من الناس لكان قد قارب (الرشاطى) في اقتباس الأنوار والتماس الأزهار قال: كان حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم قد كبر وأسن وكانت عنده جندلة بنت فهر بن مالك وكانت امرأة ضخمة جميلة فأصابهم ليلة ريح ومطر فخرجت لتصلح بيتها وكان عليها صدار لها فاكبت على الطنب وبرقت برقة فابصرها مالك بن عمرو بن تميم وهى منحنية وقد تكشفت فوثب عليها وخالطها فلما فرغ منها، قالت:

يــا حنظــل بــن مالــك لحرهــا ... شــفى بهــا مــن ليلــة وقرهــا

قال: فأقبل بنوها وزوجها فقالوا لها: مالك؟ فقالت: لدغت، قالوا: أين؟ قالت: حيث لا يضع الراقى أنفه فذهبت مثلاً (أبو على في الأمالى) قال كان لهمام بن مرة بن ذهل بن شيبان ثلاث بنات قد عنسهن ومنعهن التزويج، قال: فتحدثن فيما بينهن في ذلك، فقالت الكبرى: مالى إلا أن أقول بيتًا من الشعر ليطلق سراحنا، فلما جاء أبوها استقبلته بوجهها فقالت:

أهمــام بــن مــرة إن شــوقى   إلى اللائــى يكــون مــع الرجــال

فقال لها: أي بنية، يكون مع الرجال الدراهم والدنانير والسيوف وما أشبه ذلك ولم تبينى لى شيئًا، فقالت الوسطى: ما صنعت شيئًا ينفعك ولا ينفعنا، ثم تقدمت إلى أبيها وقالت:

أهمــام بــن مــرة إن شــوقى   إلى قنفــاء مــشرفة القــذال

فقال: أي بنية لعلك أردت فرسًا أو بهيمة غيرها فسكتت، وتقدمت إليه الصغرى وقالت: والله ما أفلحتما ولا صنعتما شيئًا تحمدان عليه، ثم إنها تقدمت إلى أبيها وأشارت إليه وقالت:

أهمــام بــن مــرة إن شــوقى   إلى أيــر أســد بــه مبــالى

فلما سمع كلام الصغرى قال: ما بعد هذا بيان، ثم انطلق وزوجهن من ساعته (وقد) ذكر صاحب الجمهرة هذه الحكاية بنحو مما تقدم، وذكرها أبو العباس في الكامل فغيرها عن وضعها ولم يوردها على وجهها فانظرها هنالك (أبو على في الأمالى أيضًا) قال: كان لرجل من العرب ثلاث بنات وقد عضلهن ومنعهن الإكفاء، فقالت إحداهن: إن أقام أبونا على رأيه فينا ذهب حظ الرجال منا فينبغى لنا أن نعرض له بما في نفوسنا لعله أن يستفهم لذلك أو يكون له عقل يفعل به، قال: وكان الأعرابى يدخل على كل واحدة من بناته يومًا، فلما كان يوم الكبرى دخل عليها فسلمت عليه وقامت إليه ثم جلس يتحدث معها ساعة، فلما أراد الأعرابى الانصراف تقدمت إليه فقالت:

أيزجــر لاهينــا وينهــى عــن الــصبا   ومــا نحــن والفتيــان إلا شــقائق

٭ يــؤبن حبيــات مــرارًا كــثيرة   وتنبــاق أحيانًــا بهــن البوائــق

فساءه ما سمع منها غاية الإساءة وخرج عنها مغضبًا حرجان، فلما كان من الغد دخل على الوسطى فقامت إليه وجلسا يتحدثان ساعة ثم أراد الإنصراف، فتقدمت إليه وقالت:

ألا أيهـــا الفتيـــان إن فتـــاتكم دعاهــا سمــاع العاشــقين فحنــت

فـدونكم أبغوهــا فتــى غـير زمــل وإلا صــبت تلــك الفتــاة وحنــت

فزاده ذلك مساءة وخرج من عندها وسار لمكانه وقد زاد به القلق واشتد به الأرق وحار فيما يصنع. فلما كان من الغد سار إلى منزل الصغرى فقامت إليه وسلمت عليه ورحبت به فجلسا وتحدثا ساعة، ثم أراد الإنصراف فتقدمت إليه فقالت:

أمـا كـان في ثنـتين مـا يـدع الفتـى ويعقـل هـذا الـشيخ إن كـان يعقـل

فمـا هـو إلا الحـل أو طلـب الـصبا ولابـد منــه فـائتمر كيـف نفعـل

فلما رأى تواطأهن على ذلك زوجهن من ساعته (قولها):

ومـــا نحـــن والفتيـــان إلا شـــقائق

جاء ذلك في حديث خرجه أبو داود عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر الاحتلام، فقالت أم سليم: المرأة ترى ذلك أعليها الغسل؟ قال: «نعم» ثم قال: «إنما النساء شقائق الرجال» (قال) عبد الحق: في الأحكام يروى عن عبد الله بن عمر العمرى وليس بقوى في الحديث قال: وهذا اللفظ «إنما النساء شقائق الرجال» قدروى فيما أعلم من حديث أنس بن مالك بإسناد صحيح• والحديث الذي أشار إليه عبد الحق هو ما خرجه البزار عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأت المرأة الماء فلتغتسل» فقالت أم سليم: يا رسول الله وهل للمرأة من ماء؟ قال: «فأنى يشبههن الولد، فإنما النساء شقائق الرجال» (أبو الفرج في الأغاني) قال: كانت هند بنت النعمان بن المنذر من أجمل أهل زمانها وأمها مارية الكندية، وكانت تدين بدين النصرانية، فخرجت في خميس الفصح لتتقرب إلى البيعة ولها حينئذ إحدى عشرة سنة، وقد كان عدى بن زيد إذ ذاك قدم بهدية كثيرة من قبل كسرى إلى النعمان، وعدى إذ ذاك فتى شاب حسن الشعر مديد القامة حلو العينين حسن المبسم، فوافق دخول هند إلى البيعة دخول عدى بن زيد ليتقرب. وكانت هند مديدة القامة عبلة البدن، فرآها عدى وهي غافلة فلم تتنبه له حتى

تأملها، وقد كان جواريها رأين عديًّا مقبلاً، فلم يعلمنها به لمحبة كانت لإحداهن فيه، فلما رأت هند عديًّا ينظر إليها سبت جواريها ونالت منهن، ووقعت هند في نفس عدى، فلبث بذلك حولاً لا يخبر به أحدًا، فلما كان بعد الحول الثاني أرادت هند الخروج إلى البيعة فأسرع بعض جواريها إلى عدى بن زيد فأعلمنه بذلك، فخرج مبادرًا إلى البيعة وهو لا يصدق أن يرى هندًا من شوقه إليها وقد تزيا بزى حسن، وقد أخرج معه جماعة من فتيان الحيرة، فدخل البيعة فوجد هندًا وجواريها، فقال جواريها: يا سيدتنا انظري إلى هذا الفتى ما أجمله إنه لأحسن من جميع هذه الصور فنظرت إليه وسألت عنه، فقيل لها: هو عدى بن زيد، فاستعملت القرب منه وكلمته فوقع في قلبها موقعًا عظيمًا، فقالت لبعض جواريها: ويلك انظري كيف تجمعين بيني وبين عدى بن زيد، فإن لم اجتمع به هلكت، فبادرت الجارية إلى أبيها فأعلمته بذلك وأخبرته بخبرها وأنها قد شغفت به، وأن سبب حبها إياه رؤيتها له يوم عيد الفصح، وأعلمته أنه إن لم يزوجها به افتضحت وافتضح هو بسببها، فقالت له: أخطبه ليتزوجها، فقال لها: ويلك وكيف أبدؤه بذلك؟ فقالت له: هو راغب في ذلك. وأنا أحاول أمره من حيث لا يعلم أنك عرفت، ثم إنها تركته وسارت إلى عدى فأعلمته الخبر، وقالت له: ادعه فإذا أخذ فيه الشراب أخطبها؛ فإنه لا يردك فيما سألت منه، فصنع عدى طعامًا واحتفل فيه، ثم أتى النعمان فسأله أن يحضر عنده مع أصحابه ففعل، فلما أخذ فيهم الشراب قام عدى وخطب هندًا من النعمان، فأنعم له بها وضمها إليه بعد ثلاث (قال): ومكثت عنده حتى قتله النعمان أبوها في خبر طويل، فترهبت وحبست نفسها في الدير المعروف بدير هند في ظاهر الحيرة وهي بنته لنفسها، فأقامت فيه حتى ماتت، وكانت وفاتها بعد الإسلام بزمان طويل في ولاية المغيرة بن شعبة الكوفة، وبعث إليها المغيرة بن شعبة يخطبها لنفسه فردته، وقالت: لو علمت أنه بقيت في خصلة من شباب أو جمال لأرغبتك في نفسي، ولكن أردت أن تقول في المواسم: ملكت مملكة النعمان ابن المنذر وملكت ابنته ونكحتها اقتدارًا وغلبة (قال أبو الفرج في الأغاني): وقد روى أن هندًا هذه كانت تهوى زرقاء اليمامة، وأنها أول امرأة أحبت امرأة من العرب (وذكر الجوزى في الأذكياء قال: كان عبد الله بن رواحة مضطجعًا إلى جنب امرأته، فخرج إلى بعض الحجر فواقع جارية له، فانتبهت المرأة من نومها فلم تجده إلى جنبها، فخرجت فإذا هو مع الجارية فأخذت حديدة وأقبلت إليه فألفته راجعًا، فقالت: أما إني لو وجدتك حيث كنت لوجأت بها بطنك، فقال لها: ولم ذلك؟ فقالت: لأنك كنت مع جاريتك،

فأنكر ذلك، فقالت: بلى وقد رأيتك بعيني، فلج في الإنكار، فقالت له: إن ر، ول الله ﷺ نهى الجنب عن قراءة القرآن، فاقرأ إذًا منه ما أعلم به صدقك، فقال عبد الله عند ذلك:

وفينـــا رســـول الله يتلـــو كتابـــه   كما انشق مشهور من الـصبح سـاطع
أتــى بالهـدى بعـد العمــى فقلوبنـا   بــه موقنــات أن مــا قــال: واقــع
يبيــت يجــافي جنبــه عــن فراشــه   إذا اســتثقلت بالمــشركين المـضاجع

قال: فلما سمعت قوله، قالت: آمنت بالله وكذبت بصري، قال عبد الله: فغدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فضحك حتى بدت نواجذه (ومن) كتاب طارد الهموم اتفق مثل هذا لبعضهم، فأمرته زوجته أن يقرأ من القرآن ما يستدل به على صدقه، فقال:

شــــهدت بــــأن وعــــد الله حــــق   وأن النــــار مثـــــوى الكافرينـــــا
وأن العــــرش فــــوق المــــاء طــــاف   وفــــوق العــــرش رب العالمينــــا
• وتحملــــه ملائكـــــة شـــــداد   ملائكـــــة الإلـــــه مـــــسوّمينا •

فلم تشك أن ذلك من القرآن فصدقته، وتخلص بذلك منها (وذكر) ابن عبد البر قضية عبد الله بن رواحة في الاستيعاب، وقال: إنها مشهورة صحيحة، وذكر أنه أنشد الأبيات التي ذكرها صاحب كتاب طارد الهموم (وقريب) من هذه القصة ما ذكره أبو الفرج في الأغاني عن الحسن بن الضحاك قال: كانت لي نوبة في دار الواثق، فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ جاءني خصي، فقال لي: إن الواثق يدعوك، فسألته عن الخبر، فقال لي: إنه كان نائمًا إلى جنب حظية له، فقام وهو يظنها نائمة، فألم بجارية أخرى وعاد إلى فراشة، فغضبت عليه وتركته حتى نام، ثم قامت ودخلت حجرتها، فانتبه فلم يجدها، فسأل عنها. فأخبر أنها قامت غضبى ودخلت حجرتها، فاستدعى بك، قال: فمضيت مع الرسول. ورويت أبياتًا في طريقي، فلما جئت أخبرني القضية وأمرني أن أنظم في ذلك شعرًا، فأطرقت كأني أقول شعرًا، ورفعت رأسي وأنشدته:

غـــــضبت إذ زرت أخـــــرى زورة   فلـــــها العتبـــــى لـــــدينا والرضـــــا
يـــــا فـــــدتك الـــــنفس كانـــــت هفـــــوة   فاغفريهـــــا واصـــــفى عمامـــــضى
فلقـــــد نبهتنـــــي مـــــن نـــــومتي   وعلـــــى قلبـــــى كـــــنيران الغـــــضى

فاستحسنها وأمرني بإعادتها فأعدتها عليه حتى حفظها، ثم قام إلى الجارية فأنشدها أياها وترضاها، فكان بعد ذلك إذا رآني تبسم لحسن موقع الآبيات منه ومن الجارية ونجعها عندها (وحكي) المبرد عن إسحق بن الفضل الهاشمي، قال: كانت لى جارية، وكنت شديد الوجد بها، وكنت أهاب ابنة عمى فيها، فبينا أنا ذات ليلة على السرير إذ عرض لى ذكرها، فنزلت من أعلى السرير أريدها إذ ضربتني في طريقي عقرب، فرجعت إلى السرير مسرعًا وأنا أتأوّه، فانتبهت ابنة عمى وسألتني عن حالى، فعرفتها أن عقربًا لدغتني، فقالت: أعلى السرير لدغتك العقرب؟ فقلت: لا، قالت: فاصدقنى الخبر فأعلمتها، فضحكت وأنشدت:

وداري إذا نـــام ســـكانها ... يقـيم الحـدود بهـا العقـرب

إذا رام ذو حاجـــة غفلـــة ... فـــإن عقاربهـــا ترقـــب

ثم دعت جواريها، وقالت: عزمت عليكن إن قتلتن عقربًا بقية هذه السنة (البيهقى في الكمائم) قال: كان عبد الله بن عمر ﷺ أنزه الناس نفسًا وأبعدهم عن المزاح والرفث، فأتاه ابن أبى عتيق يومًا وكان ذا فكاهة ومزاح، وفي يده رقعة فيها:

ذهـب الإلـه بمـا تعـيش بـه ... وقـــرت لبـــك أيمـــا قمـــر

أنفقــت مالـــك كلـــه ســـفها ... في كـــل زانيـــة وفي الخمـــر

وكانت زوجة ابن أبى عتيق عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومية، وكانت قد هجته بهما، فقال له: يا أبا عبد الرحمن! انظر هذه الرقعة، وأشر على برأيك فيمن هجاني بما فيها، فلما قرأها عبد الله استرجع، وقال له: أرى لك أن تعفو وتصفح، فقال له: والله يا أبا عبد الرحمن لئن لقيته لأنيكنه نيكًا شديدًا يذهب غيظي، فأرعد عبد الله وأبرق، وقال له: مالك خزاك الله تعالى، هو والله ما أخبرتك فافترقا، فلما كان بعد أيام لقيه ابن عمر فأعرض عنه، فصاح به يا أبا عبد الرحمن! إني لقيت صاحب البيتين فنكته وبررت يميني، فصعق ابن عمر فلما رأى ابن أبى عتيق ما نزل به دنا منه، وقال له في أذنه: إنها زوجتى، فسرى عن ابن عمر وقام وهو يضحك فقبل بين عينيه، وقال له: أحسنت، فزدها من هذا الأدب ابن أبى عتيق هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ﷺ ومحمد بن عبد الرحمن هو المكنى بأبي عتيق، وعبد الله هو صاحب النوادر واللطف مع عمر بن أبى ربيعة (أبو الفرج في الأغاني) قال: واعد العرجى هوى له بشعب من شعاب عرج

الطائف، فجاء هو على حمار ومعه غلامه، وجاءت هي على أتان ومعها جارية لها، فواقع العرجى المرأة، وواقع الغلام الجارية، ونزا الحمار على الأتان، فقال العرجى: هذا يوم غاب عذاله• العرجى: هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، وسمى العرجى لسكناه عرج الطائف، وكان غزلا منهمكًا لا يبالى بأحد، فأوجب ذلك سقوط نباهته (الحريري في درة الغواص) قال: حدثني أحد شيوخي أن ليلى الأخيلية كانت تتكلم بلغة بهراء وبهراء يكسرون حرف المضارعة فيقولون: أنت تعلم، ونحن نرتمي، وما أشبه ذلك، فاستأذنت يومًا على عبد الملك بن مروان وبحضرته الشعبي، فقال: أتأذن لى يا أمير المؤمنين في ممازحتها، فقال له: افعل، فلما دخلت ليلى واستقر بها المجلس، قال لها الشعبي: يا ليلى ما بال قومك لا يكتنون، فقالت: ويحك ما نكتنى، فقال: لا، ولو فعلت لاغتسلت فخجلت من ذلك، واستغرب عبد الملك ضحكًا (وقريب) من هذا ما حكاه ابن دريد عن عبد الرحمن عن الأصمعي قال: كانت امرأة تحاجي الرجال فلا تكاد تغلب، فأتاها رجل فقال لها: أحاجيك فقالت له: قل، فقال: كاد، فقالت: كاد العروس أن يكون أميرًا، فقال: كاد، فقالت: كاد المسافر يكون أسيرا، فقال: كاد، فقالت: كاد البيان يكون سحرا، فولى وأراد أن يذهب، فقالت: أحاجيك، فقال لها: قولى، فقالت: عجبت، فقال: عجبت من السبخة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها، فقالت: عجبت، فقال: عجبت من الحجارة لا يعظم صغيرها ولا يصغر كبيرها، فقالت: عجبت، فقال: عجبت من حفرة بين رجليك لا يمل حفرها ولا يدرك قعرها، قال: فاستحيت، وتركت ما كانت تفعل (نظر) أعرابى إلى رجل يواقع امرأة فسئل عما يرى، فقال: رأيته يجذبها بمقدمه، ويحفزها بمؤخره، وخفي على المسلك (وقال آخر): رأيته قد تبطنها، ورأيت خلخالا شائلاً، وسمعت نفسًا عاليًا، ولا علم لى بما وراء ذلك (وقال) أحد الشهود الذين شهدوا عند المغيرة ﷺ: رأيت بين رجلى امرأة ورأيت قدمين مخضوبتين تخفقان وإستين مكشوفتين وخلخالا شائلا، وسمعت بينهما ضغطة ونفسًا حثيثًا (ابن عبد المؤمن في شرح المقامات) قال: جاءت امرأة إلى المغيرة بن شعبة بزوجها تستعدى عليه وتذكر أنه عنين، فقال الرجل:

الله يعلـــم يـــا مغـــيرة أنـــني ... قـد دسـتها دوس الحـصان المرسـل

وأخـــذتها أخـــذ المغـــصب شـــاته ... عجـــلان يـــذبحها القـــوم نـــزل

فقال له المغيرة: إني لأرى ذلك في شمائلك، وحكم له عليها (التيفاشى في قادمة الجناح) قال: خاصمت الدهناء بنت مسحل ابن عمها العجاج وكان عنينًا إلى والى اليمامة

وادعت عليه أنه مذ دخل بها ما قربها، وكان أبوها يعينها في خصامها، فقال له أهل اليمامة: أما تستحي أن تطلب العسب لابنتك، فقال: إني أحب أن يكون لها ولد، فإن أفرطتهم أجرت وإن بقوا نفعوها، فدخلت على العامل فقالت له: إني منه بجمع، فقال لها: لعلك تعازين الشيخ فقالت له: كلا إني لأرخى له كعثبى وأقيم له صلبي، فقال: كذبتك أيها الأمير إني لآخذها العقيلى والشعرنية، فقال: قد أجلتك سنة، وإنما أراد الوالى ستره، فانفصل العجاج، وهو ينشد ويقول:

أظنـــت الـــدهنا وظـــن مـــسحل ... أن الأمـــير بالقـــضاء يعجـــل

عـــن كـــسلاتى والحـــصان يكـــسل ... عـــن الـــسفاد وهـــو طـــرف هيكـــل

وأخذ بعد ذلك يضمها ويقبلها، أي كأنه رجل، فقالت له:

تـــالله لاتخـــدعننى بالـــضم ... وكثـــرة التقبيـــل بـــى والـــشم

إلا بهزمـــار يـــسلى همـــي ... يـــسقط منـــه فتخـــي في كمـــي

فذهب بها إلى أهله وطلقها من ليلته سترًا على نفسه• العسب: النكاح. وقولها: إني منه بجمع بضم الجيم وإن شئت كسرت، أي باقية على بكارتي، لم يصل إلى. وتعازين الشيخ: أي تمانعينه وتغالبينه. والعقيلى والشعرنية: نوعان من أنواع المصارعة. وقوله: والحصان يكسل بالضم وهى لغته، وسمعت غيره من بني تميم يقول يكسل بفتح الياء والسين المهملة، والفتح: جمع فتحة وهى الخواتيم، وقيل: هي حلق تجعل في الأصابع لا فصوص لها (وفي) معنى قولها تالله لا تخدعنى الأبيات، أنشد البكرى في اللآلئ لبعضهم:

مـــن دون أن تلتـــصق الأركـــاب ... وتلتقـــي الأســـباب والأســـباب

ويخـــرج الـــزب لـــه لعـــاب

(وقال) هدبة بن خشرم في مثل ذلك، أنشده الجوهري في الصحاح:

تـــالله لا يـــشفى الفـــؤاد الهائمـــا ... نفـــث الرقـــى وعقـــدك التمائمـــا

• ولا اللمـــام دون أن تلازمـــا ... ولا اللـــزام دون تفاغمـــا

• ولا الفغـــام دون أن تفاقمـــا ... وتعلـــو القـــوائم القوائمـــا

قال صاحب الصحاح: الفغام بالغين المعجمة: التقبيل، وكذلك الالثم، والفقام: بالقاف الجماع. وقال صاعد في الفصوص: الفغام بالغين وضع الأنف على الأنف، وبالقاف وضع الشفة على الشفة (وأنشد ابن وكيع) في كتابه المسمى بالنزهة لامرأة من بني ضبة، فقال:

لخلـــوة ليلـــة وبيـــاض يـــوم	مـع ابـن الـوابلي شـفاء قلـبي
بمحنيـــــة أوســــده شمــــالي	وأرفـــع بـــاليمين ذيـــول أتـــب
وأرشـف مـن محـاج الظلـم منـه	جنيـا مـن لذيـذ الريـق عـذب
وألـصق بالحـشا منـى حـشاه	ويـسهل مـن قيـادي كـل صـعب
وألمـس كفـه جهمـا لعلـى	علـى ركـب كجثـة ظهـر قعـب
فيجمـــع مـــنكبي إلى حتـــى	تـضاغط ركبتـاي ضـلوع جـنبي
ويـسحبني علـى البطحـات حتـى	تنـال غـدائري تعفـير تـرب

(وأنشد صاعد في الفصوص لبعضهم)

كنـت أحـب ناشـئا عبنـبلا	يهـوى النـساء ويحـب المغـزلا
يجمـع بـين جـده والهـزلا	يأخـذني أخـذ الـصقور الحجـلا

العبنبل: الرجل الضخم. قال صاعد: لحاها الله، لقد كانت غليمة (قال أبو الفرج) في الأغاني: أحب تابط شرا جارية من قومه، وكان على ما كان عليه من الشدة، فطالبها زمانًا فلم يقدر عليها. ثم لقيته ذات ليلة فأجابته لما طلب، فلما أراد مواقعتها عجز عنها واستحيا فتثاوبت عليه لتؤانسه، ويذهب جزعة، فأنشأ يقول:

مالـك مـن أيرسـليب الخلـة	عجـزت عـن بكهثـة رفلـة
تمـشى إليـك مـشية هزولـة	كمـشية الأرخ تريـد العلـة
لـو أنهـا راعيـة في تلـة	لـصرت الهـراوة العتلـة

الأرخ: الأنثى من البقر، والعلة: الواحدة من العل وهو معاودة الشرب، تريد أنها قد شربت أولاً فمشيتها ثقيلة لأجل ذلك، وهكذا قول بعضهم أنشده الثعالبي.

* لى أيـــر أراحنــــى الله منــــه   صــار همـــي بـــه عريـــضا طـــويلا

نــام إذ زارنـــي الحبيـــب عنـــادا   ولعهـــدي بـــه ينيـــك الرســـولا

حـــسبت زورة لـــشقوة وجـــدي   وافترقنـــا ومـــا شـــفينا الغلـــيلا

(ودخل) موسى بن عيسى على جارية له فعجز عنها، فأنشأ يقول:

الـنفس تحـرص والأسـباب عـاجزة   والمـرء يهلـك بـين اليـأس والطمـع

وذكر ابن قتيبة في أخبار الشعراء هذا البيت للرشيد (وقال) أعرابي قد عجز وكبر:

عجبـت مـن أيـرى وكيـف يـصنع   ادفعـــه بأصـــبعي فيرجـــع

يقوم بعد الشد ثم يركع

(وسئل) آخر عن حركته، فقال: يمتد ولا يشتد، فإذا أكرمته ارتد (الهيثم بن عدى) قال: كان عبد الملك بن مروان شديد الشغف بالنساء، فلما أسن وكبر وضعف عن الجماع زاد غرامًا بهن، فدخل إليه يومًا أيمن بن خريم، فقال: كيف أنت يا أيمن؟ فقال: بخير يا أمير المؤمنين، فقال: وكيف قوّتك؟ فقال: كما أحب، والله المحمود إني لآكل الجذعة، وأرتحل البعير الصعب، وافترع العذراء، لا يقعدني عنها الكبر، ولا ينقص منى في مخالطتها أبو طر، فغاظ ذلك عبد الملك وحسده عليه، فمنعه العطاء وحجبه حتى أثر ذلك في حالة، فقالت له امرأته: ويحك أصدقني عن حالك فهل أجرمت؟ قال: لا والله، فقالت: هل دار بينك وبين أمير المؤمنين حديث؟ فقال: نعم وأخبرها، فقالت: من هنا أتيت، لقد حسدك الرجل على ما وصفت به نفسك، ولكنى احتال لك، ثم تهيأت ودخلت على عاتكة زوج أمير المؤمنين، فقالت لها: إني أطلب منك أن تستعدى لى أمير المؤمنين على زوجي، قالت لها: وما ذاك؟ قالت: والله ما أدرى أمع رجل أنا أم مع حائط، وإن له لسنين لا يعرف لى حديثًا ولا فراشًا وقد عزمت على فراقه، فخرجت عاتكة إلى أمير المؤمنين عبد الملك فعرفته ذلك وسألته في أمرها، فوجه إلى أيمن وسأله عما تشكت به زوجته، فاعترف بذلك، فقال: أو لم أسألك عن هذا منذ مدة فوصفت كيت، فقال: يا أمير المؤمنين! إن الرجل ليتجمل عند سلطانه وبمحضر أعدائه بأكثر مما وصفت به نفسي، وأنا الذي أقول:

لقيـــت مـــن الغانيـــات العجابـــا	لـــو أدرك منـــي النـــساء الـــشبابا
ولكـــن جميـــع النـــساء الحـــسان	عنـــاء شـــديدًا إذا المـــرء شـــابا
إذا لم يـــنلن مـــن المـــرء ذاك	يكـــن شماسًـــا عليـــه صـــعابا
وإن لم يخـــالطن كـــل الخـــلا	ط أصـــبحن مخـــد عطـــات غـــضابا
عـــلام يكحلـــن جـــور العيـــون	ويحـــدثن بعـــد الخـــضاب الخـــضابا
فهـــل ذاك إلا لمـــا تعلمـــون	فـــلا تمـــنعن النـــساء الـــضرابا

قال: فجعل عبد الملك يضحك منه ومن قوله، ثم قال له: أولى لك يا أيمن لقد لقيت منهن برحًا، فما تصنع مع زوجتك، قال: أستأجلها أجل العنين وأداريها لعلى أستطيع إمساكها، قال: افعل ففعل ورجعت إليه، وأمر له عبد الملك بما فات من عطائه• أيمن بن خريم أحد التابعين ولأبيه خريم بن فاتك صحبة وروايات عن رسول ﷺ ونسب خريم إلى جده فاتك، وإنما هو خريم بن الأخرم بن عمرو بن فاتك، وقد ذكرناه في شرح الشفاء.

ويروى أن عبد الملك قال له لما أنشد هذا الشعر: ما عرف أحد النساء معرفتك ولا وصفهن وصفك (قدم) أبو النجم العجلى من البادية على هشام بن عبد الملك وقد أسن أبو النجم، فقال: كيف رأيك يا أبا النجم في النساء؟ فقال: ما لهن عندي خبر إلا أني أنظر إليهن شزرًا ولا ينظرن إلى إلا خررا، فقال: وما ظنك بى يا أبا النجم؟ قال: ظني بك يا أمير المؤمنين ظني بنفسي، فقال له: لا علم عندك، ثم أرسل إلى جواريه فقال لهن: أعلمن أبا النجم بحالكن معي، فقلن: يا أبا النجم ليس منا واحدة تصلى صلاة إلا بطهر منه أو بغسل، فاستغرب أبو النجم وتعجب من ذلك، ثم أمر هشام له بجارية وأمره أن يغدو عليه بخبره معها، فلم يقدر عليها أبو النجم ليلته، وأصبح فسأله هشام عما صنع، فقال: ما صنعت شيئًا، وأنشده:

نظـرت فأعجبهـا الـذي في درعهـا	مـــن حـــسنه ونظـــرت في ســـرباليا
فـــرأت لهـــا كفـــلا ينـــوء بخـــصرها	وعثـــا روادفـــه واجـــثم ناتيـــا
ورأيـــت منقـــبض العجـــان مقلـــصًا	رخـــوا حمائلـــه رقيقـــا باليـــا
أدنـــى لـــه الركـــب الحليـــق كأنمـــا	أدنـــى إليـــه عقاربـــا وأفاعيـــا

مـا بـال رأسـك مـن ورائـي طالعـا	أحـسبت أن حـر الفتـاة ورائيـا
فاذهـب فإنـك ميـت لا ترتجـى	أبـد الأبيـد ولـو عمـرت لياليـا

فضحك عبد الملك وأمر له بجائزة (قال هشام بن عبد الملك) للأبرش الكلبي: زوجني امرأة من كلب، فزوجه، فقال له ذات يوم وهو يداعبه: إنا تزوّجنا إلى كلب فوجدنا في نسائهم سعة، فقال له الأبرش: يا أمير المؤمنين! إن نساء كلب خلقن لرجال كلب (وسمع) رجل من كندة رجلاً من غيرهم يقول: إنا وجدنا في نساء كندة سعة، فقال له الكندي: إن نساء كندة مكاحيل فقدت مراودها (قال ابن عبد ربه في العقد) قال ثمامه بن أشرس: كنت مدلاً بكلامي وانقطاع خصمي، فأراد الله ﷻ أن يقطعني بأضعف الناس حجة، وذلك إني اشتريت جارية، فقلت: ويحك ما أوسع حرك، فقالت:

نفـسي الفـداء لـمن قـد كـان يملـؤه	ويـشتكي الـضيق منـه حـين يلقـاه

(قيل) لامرأة تطلق كثيرًا: ما بالك تطلقين أبدًا؟ فقالت: إنهم يريدون الضيق، ضيق الله عليهم قبورهم (قال الزبير في الموفقيات) عن عمه قال: أتى موسى بن مصعب امرأة مدنية لها قينة مغنية يعترضها، فإذا امرأة بارعة الجمال لها هيئة وحال، ورأى في الدار شابًا دميمًا يأمر وينهى ويذهب ويجيء، فسألها موسى عنه، فقالت: هو بعلي وأنا له الفداء، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون مصيبة ما أعظمها وما أفظعها، أهذا الجمال وهذه الهيئة لهذا الرجل الذي أرى؟ فقالت له: يا ابن أم! أما والله لو استدبرك بما يستقبلني به لبعث ظارفك وتالدك عليه، ولعظم في عينك، وعاد قبحه في عينك حسنًا، فقال لها: بارك الله لك فيه (ولقي) الفرزدق جارية فنظر إليها نظرًا شديدًا، فقالت: مالك تنظر إلى، فوالله لو كان لى ألف حر ما طمعت في واحد منهم، فقال لها: ولم ذلك؟ فقالت له: لقبح منظرك وسوء مخبرك. فقال لها: والله لو جربتنى لعفي مخبري على منظري، ثم تكشف لها عن مثل ذراع البكر، قال: فتضبعت وسال لعابها، وتكشفت له عن مثل سنام الناقة، فوقع عليها، وقال:

أدخلـت فيهـا كـذراع البكـر	مـدملك الـرأس سـديد الأسـر
زاد علـى شـبر ونـصف شـبر	كأنمـا أدخلتـه في جمـر

(قال) صاحب جراب الدولة: كانت امرأة تغاضب زوجها، فكلما وقع بينهما شر رفع رجليها وجامعها، فكانت تقول له: ويحك لا أقدر على مغاضبتك، كلما غاضبتني

جئتني بشفيع لا أقدر على رده (صاحب روضة الأزهار) قال: وقع بين رجل وامرأته شر، فلما اضطجع لينام دنت منه، فقام ذكره فرده بيده، وقال: مالك ولمن تغاضبك، فقالت: نحن تغاضبنا لسبب. فهل جرت بين هذين مغاضبة؟ قال: لا، وقام إليها واصطلحا (أبو الفرج في الأغاني) قال: قالت هند بنت الحارث المرية يوما لعمر بن أبى ربيعة وكان يهواها ويشبب بها: لو رأيتني يا عمر منذ أيام وقد أصبحت عند أهلي، فأدخلت رأسي في جيبي ونظرت إلى حرى وقد حلقته فإذا هو ملء الكف ومنية المتمني، فصحت وعمراه، قال عمر: فصحت يالنيكاه يالنيكاه ومددت صوتي فطفقت تضحك منى (ومن) الكتاب المذكور قال: اجتمع مطيع بن إياس ويحيى بن زياد ونظراؤهما فشربوا أيامًا تباعًا، فقال يحيى لأصحابه: ويحكم إن لنا أيامًا لم نصل، فقوموا فلنصل ولتصل الجارية بنا، فامتثلت ما أمروها به. وأخذت تصلى بهم وكان عليها غلالة رقيقة، وليس معها سراويل، فلما سجدت ظهر حرها وانكشف. وكان حديث عهد بالحلاق فطأطأ مطيع عليه فقبله، وقال:

ولــمـا بـــدا حرهـــا جاثمـــا	كـــرأس حليـــق ولم يعتمـــد
خـــررت عليـــه فقبلتـــه	كمـــا يفعـــل الناســك المجتهــد

(ومنه) قال: حج الحسين بن الضحاك، فمر في منصرفه بموضع يعرف بالقريتين فيه جارية تطلع في ثيابها وتضرب بيدها على حرها، وتقول: ما أضيعني وأضيعك، فقال:

مـــررت بـــالقريتين منـــصرفا	من حيث تقضى ذوو الهـدى النسكا
إذا فتـــاة كأنهـــا قمـــر	للـــتم لمـــا توســـط الفلكـــا
واضـــعة كفهـــا علـــى حرهـــا	فتقـــول واضـــيعتى وضـــيعتكا

وأنشد الأبيات، فضحكت وغطت وجهها حياء (ابن الأفطس) في كتابه المسمى بالمظفر قال: دخل المهدي إلى بعض الحجر، فرأى جارية مجردة تغتسل، فلما رأته غطت فرجها بيديها، فقال• نظرت في القصر عيني• وارتج عليه، فسأل ممن الباب من الشعراء، فقيل له بشار، فأمر بإدخاله، ثم سأله الإجازة، فقال:

نظـــرت في القـــصر عـــيني	نظـــرًا وافـــق حـــيني
ســـترت لمـــا رأتـــني	دونـــه بـــالراحتين

فـــــضلت منـــــه فـــــضول   تحـــــت طـــــي العكنـــــتين
ليتنـــــي كنـــــت عليـــــه   ســـــاعة أو ســـــاعتين

فضحك المهدي، وقال: قبحك الله، أكنت ثالثنا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إني أتوب من قولي ساعة أو ساعتين، قال: فما تقول ويحك، فقال: سنة أو سنتين، فقال: أخرج-لا أم لك، وأمر له بجائزة (أبو الفرج في الأغاني) قال: طلب من المهدي جواريه أن يتحدثن مع بشار، وقلن له: إنه محجوب البصر لا غيرة عليك منه، فأمره أن يدخل عليهن ويحدثهن. فاستظرفنه وقلن له: وددنا يا أبا معاذ لو كنت أبانا حتى لا نفارقك، فقال لهن: ونحن على دين كسرى فبلغ المهدي ذلك، فمنعه من مجالستهن (أخذ المتنبي هذا المعنى. فقال):

يا أخت معتنـق الفـوارس في الـوغى   لأخـوك ثـم أعـف منـك وأرحـم
• يرنـو إليـك مـع العفـاف وعنـده   إن المجـوس تـصيب فيمـا تحكـم

(ومن) الأغاني: عن بعضهم قال: أتيت بشارًا وبين يديه مائتا دينار، فقال لى: خذ من هذه ما شئت، ثم قال لى: أتدرى ما سببها؟ قلت: لا، فقال: أتاني فتى فقال لى أنت بشار؟ فقلت: نعم، فقال: إني آليت على نفسي أن أدفع إليك مائتي دينار، وذلك أني عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلى، فهممت أن أتركها فذكرت قولك:

لا يؤيـــسنك مـــن مخبـــأة   قـــول تغلظـــه وإن جرحـــا
عـــسر النـــساء إلى مياســـرة   والـصعب يركـب بعـدما جمحـا

فعدت إليها ولازمتها حتى اتصلت بها (الزبير في الموفقيات) عن سليمان بن عباس قال: أخبرني أبى قال: مررت في أرض بني عقيل، فرأيت جارية بيضاء تدافع في مشيها تدافع الفرس المختال تنظر عن عينين نجلاوين بأهداب كقوادم النسر، لم أر أكمل جمالاً منها، فوقفت لأكلمها، فقالت لى عجوز بفناء منزلها: مالك ولهذا الغزال النجدي الذي لاحظ لك فيه؟ فقالت لها الفتاة: دعيه يا أماه يكن كما قال ذو الرمة:

وإلا يكـــن إلا تعلـــل ســـاعة   قلـــيلاً فـــإني نـــافع لى قليلـــها

وفي بعض روايات هذا الخبر عن غير الزبير، فقالت العجوز:

ومالــك منهــا غــير أنــك نائــك بعينيــك عينيهــا وأيــرك خائــب

(ابن أبي طاهر في تاريخه) قال: كان في[1] المهدي غزل وحب في النساء، فبلغه عن عونة بنت أبي عون جمال وهيئة، فقال للخيزران: استزيريها فاستزارتها، فلما سارت عونة إليها قالت لها الخيزران: هل لك في الحمام؟ فقالت لها: إذا شئت، فدخلت معها فلم تشعر عونة إلا والمهدى قائم على رأسها وهى عريانة، فدخلت خلف الخيزران واستترت منه فجذبها، فأخذت كرسيا وقالت: والله لئن دخلت على أو دنوت منى لأهشمن به وجهك، فقال لها: إنما أردت أن أنظر إليك لأتزوّجك فقالت: لا سبيل إلى ذلك فانصرف عنها (وبلغه) عن بنت لوزيره أبى عبد الله مثل ذلك، ففعلت الخيزران الفعلة بعينها، ودخل المهدي فجذبها، فقالت: أنا أمتك فافعل بى ما شئت، فصرف الخيزران ووقع عليها. فنال منها ما أحب، فلما انصرفت أخبرت أخاها عبيد الله بذلك، فكلفها باستزارة الخيزران ودخلت الحمام معها، فلم تشعر الخيزران إلا بعبيد الله قد هجم عليها فاستترت، فقال لها: أما إنا لو أردنا أن نفعل ما فعلتم بحرمنا لفعلنا، ولكن لا نستحل ذلك، فانصرفت الخيزران وأعلمت المهدي بذلك فحنق عليه بعد مدة فقتله (صاحب روضة الأزهار) قال: كان هرون الرشيد جالسًا ومعه جاريتان له، فقال: لتبت معي واحدة منكما، فسبقت إحداهما، وقالت: أنا أبيت معك، فبادرت الأخرى وقالت: بل أنا، فقال للأولى: ما حجتك التي ترجح دعواك؟ فقالت: قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]، فقال للأخرى: هذه قد أتت بحجة، فما حجتك أنت، فقالت: قول الله ﷻ ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾[الضحى: ٤]، فقال: قد أتت كل واحدة منكما بحجة بينة، وأنا أبيت بينكما فبات معهما جميعًا (أبو الفرج في الأغاني) عن إسحق بن إبراهيم قال: وجه إلى الرشيد ذات ليلة وقد مضى شطر الليل، فبينا أنا عنده إذ استؤذن للفضل بن الربيع، فأذن له فدخل فقال: ما جاء بك يا فضل في هذا الوقت؟ فقال: خير يا أمير المؤمنين، إنه جرى لى في هذه الليلة أمر لم يجز كتمانه، وذلك أني رقدت مع ثلاث من الجواري مكية ومدنية وعراقية، فمدت المدنية يدها إلى ذكرى حتى قام وأنعظ، فوثبت المكية وحازته إليها دونها، فقالت لها المدنية: ما هذا التعدي، ألم تعلمي أن مالكًا حدثنا عن الزهري عن جابر بن عبد الله عن سعيد بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «من أحيا أرضا

(١) في المخطوط: «قال في كان»، والمثبت من المحقق.

مواتا فهي له»،[1] فقالت: لها المكية حدثنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الصيد لمن صاده لا لمن أثاره» فدفعتهما العراقية عنه، وقالت: هذا لى وفي يدي حتى تنقضي مخاصمتكما وتصطلحا، قال: فضحك الرشيد وأمر بحملهن إليه، ففعل وحظين عند الرشيد، وذهبن به كل مذهب، وفيهن يقول:

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان

مالي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصيان

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه يصلن أعز من سلطاني

(ويقال): إن العباس بن الأحنف قال هذه الأبيات على لسان أمير المؤمنين الرشيد وهى بنفس العباس أشبه (عارض) هذه الأبيات سليمان بن الحكم المروانى صاحب قرطبة الملقب بالمستعين، فقال:

عجبا يهاب الليث حد سناني ... وأهاب سحر نواتر الأجفان

* وأقارع الأهوال لا متهيبا ... منها سوى الإعراض والهجران

وتملكت نفسي ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان

ككواكب الظلماء لحن لناظر ... من فوق أغصان على كثبان

هذى الهلال وتلك أخت المشترى ... حسنًا وهذى أخت غصن البان

حاكمت فيهن السلو إلى الرضا ... فقضى بسلطان على سلطانى

فابحن من قلبى الحمى وتركننى ... في عز ملكى كالأسير العانى

ما ضرأنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى

لا تعذلوا ملكا تذلل في الهوى ... ذل الهوى عز وملك ثانى

إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفا بهن فلست من مروان

---

(١) [صحيح] أبو داود في: الخراج: حديث (٣٠٧٣)، والترمذي في: الأحكام: حديث (١٣٧٨)، وأحمد في «مسنده» (٣/٣٣٨-٣٨١).

هو سليمان بن الحكم بن سليمان عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك بن مروان، بويع بقرطبة سنة أربعمائة، وقتل بها سنة خمس وأربعمائة (الجوزى في الأذكياء) عن المفضل قال: دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد وبين يديه جارية لم أر أحسن منها وجهًا قد أهديت إليه، فقال لى: يا مفضل قل في هذا الورد شيئًا تشبهه به، فقلت:

كأنــه خــد مومــوق بقبلــه ... فـم الحبيـب لقـد أبقـى بـه خجـلا

(قال فقالت الجارية):

كأنـه لـون خـدى حـين تـدفعنى ... كـف الرشـيد لأمـر يوجـب الغـسلا

فقال لى: يا مفضل، قم فإن هذه الماجنة قد هيجتنى فقمت وأرخيت الستور عليهما (أبو الفرج في الأغانى) عن على بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى المتوكل أهدى إليه الناس على أقدارهم، وأهدى إليه طاهر جارية تسمى محبوبة تقول الشعر وتلحنه وتغنيه وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس فحسن موقعها من المتوكل وحظيت عنده حتى لم يكن عنده أحد بمنزلتها. قال ابن الجهم: فدخلت عنده يومًا للمنادمة فلما استقر بنا المجلس قام فدخل إلى بعض المقاصير، ثم خرج وهو يضحك فقال لى: يا على؛ إني دخلت فرأيت فلانة قد كتبت على خدها بالمسك جعفرًا، فما رأيت أحسن منه فقل في ذلك شعراء، قال ابن الجهم: وكانت الجارية حاضرة معنا فتفكرت قليلاً وأطرقت إلى الأرض ثم أخذت العود وترنمت حتى صاغت لما قالته لحنًا، ثم اندفعت تغنى:

ه وكاتبـة بالمـسك في الخـد جعفـرا ... بنفـسى خـط المـسك مـن حيـث أثـرا

لئن من أودعت اسطرا من المسك خـدها ... لقد أودعـت قلبـى مـن الوجـد اسطرا

ه فيـا مـن لمملـوك يظـل مليكـه ... مطيعـا لـه فيمـا أسـر وأظهـرا

ه ويا من لعينى مـن رأى مثـل جعفـر ... سـقى الله صـوب المـزن آثـار جعفـرا

قال ابن الجهم: وأنا في ذلك كله مفحم لا أستطيع أن أنظم حرفًا، فقال لى المتوكل: ويلك يا على أين ما أمرتك به؟ فقلت: يا سيدى، أقلنى فوالله لقد أفحمت وعزب عنى ذهنى قال: فلم يزل يعيرنى بذلك (صاحب روضة الأزهار) عن على بن الجهم قال: دخلت

على أبى عثمان المازنى وعنده جارية كأنها فلقة قمر وبيدها تفاحه فقالت لى: ما أراد الشاعر بقوله:

خبرينـــي مـــن الرســـول إليـــك ... واجعليـــه مـــن لا يـــنم عليـــك

قلت: لا أعرف. قالت: أراد هذه ورمت إلى بالتفاحة، قال: فوالله ما وجدت لها جوابًا من نسبة كلامها (البيهقى في الكمائم) قال: بينما الأمين يطوف في قصره ليلاً إذ مرت به جارية سكرى فمد يده إليها وراودها عن نفسها فتمنعت، وقالت: عسى تمهلنى لقد فلما كان من الغد طالبها أبو عدها فقالت له: أما سمعت قولهم:

كـــلام الليـــل يمحـــوه النهـــار

فعزم عليها وواقعها، وسأل عمن بالباب من الشعراء فأمرهم بنظم القضية، فقال مصعب بن عبد الله الزهرى:

أتعـــذلنى وقلبـــى مـــستطار ... كئيـــب مـــا يقـــر لـــه قـــرار

بحـــب مليحـــة فتنـــت فـــؤادى ... بألحـــاظ يمازجهـــا احـــورار

ولمـــا أن مـــددت يـــدى إليهـــا ... لألمـــسها بـــدا منهـــا نفـــار

فقلـــت الوعـــد ســـيدتى فقالـــت ... كـــلام الليـــل يمحـــوه النهـــار

(قال أبو على في الأمالى) قال: وأكل الرشيد يومًا مع ابنه عبد الله المأمون، وأقبلت جارية تصب الماء على يد الرشيد فنظر إليها عبد الله وأومأ إليها بقبلة فأنكرت ذلك عليه بعينها، وأوجب ذلك أنها أبطأت بصب الماء، فقال الرشيد: ما هذا؟ وتوعدها بالقتل إن لم تصدقه، فقالت: إن عبد الله أشار إلى بقبلة فأنكرت عليه بحاجبى، فنظر الرشيد إليه وقد كاد يموت جزعا، فقال له: يا حبيبى أتحب الجارية وضمه إلى صدره ليسكن لهفه؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: هى لك، فادخل بها في تلك القبة ففعل، فلما خرج قال له الرشيد: يا عبد الله هل قلت في ذلك شيئًا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وأنشده:

ظبـــى كتبـــت بطرفـــى ... مـــن الـــضمير إليـــه

قبلتـــه مـــن بعيـــد ... فاعتـــل مـــن شـــفتيه

* ورد أخبـــــث رد ـــــ بالكـــسر مـــن حاجبيـــه
فمـــا برحـــت مكـــاني ـــــ حتـــى قـــدرت عليـــه

أخبث رد يروى بالباء الموحدة ويروى بالنون (عريب المأمونية) كانت تقول: ملكني ثلاثة من الخلفاء، وما اشتهيث منهم أحدًا إلا المعتز فإنه كان يشبه أبا عيسى بن الرشيد (قال) أبو محمد بن حرم في نقط العروس: إن صدق ففيهم والد وولده والله أعلم• وكانت عريب تحب أبا عيسى بن الرشيد حبًّا شديدًا، وكان أبو عيسى من أجمل الناس. قالت عريب: وكنت حين ملكني الأمير بنت أربع عشرة سنة. قال نحرير الخادم: دخلت ذات يوم إلى قصر الحرم. فنظرت إلى عريب جالسة على كرسي ناشرة شعرها وهى تغتسل، فسألت عنها. فقيل: هذه عريب دعاها اليوم مولاها، فافتضها وتصيرت بعد موت الأمين لأخيه المأمون، فذهبت به كل مذهب وبلغ به حبها إلى أن قبل قدمها، وكانت هربت من سيدها الذي أخذها منه الأمين ليلاً إلى حاتم بن عدى، وكان قد استخفى عند مولاها، وكانت تنظر إليه وينظر إليها، وربما اختلس منها قبلة، فلما ظهر من اختفائه هربت عريب إليه، فأقامت عنده زمانًا ولا يعلم سيدها أين ذهبت، فقال عيسى بن زينب في ذلك:

قاتـــــل الله عريبـــــا ـــــ فعلـــــت فعـــــلاً عجيبـــــا
ركبـــــت والليـــــل داج ـــــ مركبًـــــا صـــــعبًا مهيبـــــا
ونـــــادت لمحـــــب ـــــ فتلقاهـــــا مجيبـــــا
حـــذلاً قـــد نـــال في الدنـــــيا مـــن الـــدنيا نـــصيبا

(قال) أحمد بن المدبر: خرجت مع المأمون وأنا صبى إلى أرض الروم لطلب ما تطلبه الأحداث من الرزق، فلما خرجنا من الرقة رأينا جماعة من الخدم في العماريات وكنا رفقة وكلنا أتراب، فقال لى أحدهم: في بعض هذه العماريات عريب، فقلت: من يراهنني على أن أدخل بين العماريات، وأنشد أبيات عيسى بن زينب المتقدمة، فراهنني بعضهم فعدلت إلى الأحمال وأنشدتها وأنا رافع صوتى بها حتى أتممتها، فإذا امرأة قد أخرجت رأسها من عمارية، وقالت: يا فتى نسيت أجود الأبيات، وأطيبها أليس فيها:

وعريـــــب رطبـــــة الـــــشفـ ـــــرين قـــد نيكـــت ضـــروبا

فما لك نسيت ذلك، اذهب فخذ ما راهنت أصحابك عليه وألقيت السجف، فعلمت أنها عريب، فبادرت إلى أصحابي خوفا أن يلحقني مكروه من بعض الخدم (قال) أبو الفرج في الأغاني: زارت عريب محمد بن حامد وكان يهواها وكانت هي أيضا تحبه، فجعل يعدد عليها ويقول: فعلت كذا وفعلت كذا، فأقبلت عليه وقالت: يا هذا قم لما جئنا له، واجعل سراويلي مخنقى وألصق ركبتي بوريدى، واجمع بين خلخالي وقرطي واعمل عملك، وإذا كان من الغد وأحببت العتاب فاكتب لى ذلك في طومار لأجيبك عنه، ودع عنك ما شغلت به نفسك طول ليلتك. فقد قال الشاعر:

دعـــي عــد الــذنوب إذا التقينــا تعـــالى لا نعـــد ولا تعـــدى

(صاحب طارد الهموم) قال: خلع المتوكل على بهلول ثوب وشى، فلبسه ومر بدار حمدونة المغنية وكانت من الحسان المستحسنات، فقالت لجاريتها: أدخليه لعلنا أن نخدعه على الثوب، فلما دخل قالت له: يا بهلول! كأني بك تقول: أنا جائع، وأشتهى طعامًا، قال لها: هو كذلك، فأخرجت له طعامًا فأكل، ثم قالت له: كأني بك تتشوف إلى سماع صوت من غنائي. فقال لها: إن الأمر لكما ذكرت، فغنته، ثم قالت له: كأني بك تقول اخلع هذا الثوب على حمدونة، فقال لها: أو تريدينه؟ قالت: نعم، قال: لا يمكن ذلك إلا بعد أن أعمل واحدًا فأجابته، فقال لها: إن بظهري ألما يمنعني، ولكن اصعدى أنت على ففعلت فقضى حاجته منها كذلك ثم نزلت فطلبت منه الثوب، فقال: وهل صنعت شيئًا، إنما أنت فعلت بى، فقالت له: فكيف وجه العمل؟ فقال لها: أن أعمل واحدا وأنا فوقك، فأخذ منها آخر كما أراد، ثم طلبت الثوب فقال لها: وبماذا تستحقينه فعلت بى وفعلت بك. قالت له: فما وجه الخلاص؟ قال: أن أصنع واحدًا لروحي، فقالت له: شأنك وذاك ففعل بها الثالث، ثم دفع لها الثوب وخرج واستسقاها ماء فشرب، وأطلق الإناء من يده فانكسر، وجلس على الباب فجاء صاحب المنزل فرآه، فقال له: ما أجلسك يا بهلول على باب داري؟ فقال له: خلع على الأمير ثوب وشى فاستسقيت من هنا ماء فأخرجت إلى حمدونة إناء فشربت منه فوقع وانكسر، فأخذت منى الثوب، فقال صاحب الدار: أخرجي له ثوبه، فقالت له حمدونة: أهكذا كان الحديث؟ فقال: قد حكيته أنا على قدر جنوني فاحكيه أنت على قدر عقلك (أبو الريحان في كتاب الجماهر) قال: كانت للمعتضد حظية تسمى دريرة وكان يحبها، فبني لها موضعًا يخلو بها فيه يسمى البحيرة، فقال فيه ابن بسام:

تـــــرك النــــاس بحـــيرة وتخلــــــى في الـــــبحيرة
قاعــــدًا يـــــضرب بالطبـــــــ ــــــل علـــــى حردريـــــرة

فبلغ ذلك المعتضد فأمر بتخريب البحيرة، ولم يعلم أحد سبب ذلك (قال): واتفق أن هجا ابن يسام القاسم بن عبد الله بن وهب، فقال يخاطب أباه عبيد الله عند موت ابنه الحسين:

قـــل لأبـــى القاســـم المرجـــى قابلــك الـــدهر بالعجائـــب •
مـــات لـــك ابـــن وكـــان زينـــا وعـــاش ذو الـــشين والمعايـــب
حيـــاة هـــذا كمـــوت هـــذا فلـــست تخلـــو مـــن المـــصايب

فاشتهرت الأبيات وتداولتها الألسن، حتى صارت يتمثل بها في كل شيء (وكان ابن حمدون النديم) يلعب بالشطرنج مع المعتضد يومًا، فدخل القاسم بن عبيد الله يستأذن في بعض الأمور، وخرج ثم دخل في حاجة أخرى فوجد المعتضد يقول الأبيات ويكررها، فرفع المعتضد رأسه فرآه فحمله الخجل والحياء منه أن قال: هلا قطعت لسان هذا الفاجر، فخرج القاسم مبادرًا وطلب ابن بسام فما وجده، ورجع المعتضد إلى لعبه فارتعدت يد ابن حمدون في لعبه، فقال له: مالك؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن ابن بسام من نبلاء الشعراء وإني خائف أن يقطع أبو الفضل لسانه، فما لبث أن جاء القاسم، فسأله الأمير عن ابن بسام، فقال له: لم يوجد فقال له: إنما أمرتك أن تبره وتكرمه ليعيذك من هجائه؛ فإني من أجله خربت البحيرة، فخرج القاسم وأحسن إليه وولاه البرور (عمارة في تاريخ اليمن) قال: كانت السيدة بنت أحمد بن جعفر بن أحمد الصليحية بعيدة الصيت بالجمال والكمال والأدب جمعت كل حسن، وكانت تسمى بلقيس الإسلام، وكان زوجها المكرم الصليحى لما مات عنها تركها بدار العز التي بناها بمدينة ذي جبلة من بلاد اليمن، فلما إستولى سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحى على الملك أراد أن يتزوجها ليكمل له ملكه، فامتنعت منه فعزم على قتالها، ثم أشير عليه بأن يكاتب في أمرها المستنصر العبيدى صاحب مصر إذ كان أهل اليمن قائمين بدعوته، فامتثل ذلك وأرسل إليه رسولين من قبله في هذه القضية، فرجعا إليه بقضاء حاجته ومعهما خصى يرسم الكلام معها، فدخل الخصى إليها وقد حضر وجوه أهل الدولة قائمين لقيامه، فقال: أمير المؤمنين يسلم على الحرة الملكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن عمدة الإسلام خالصة الأنام ذخيرة الدين ولية أمير المؤمنين،

ويقول لها: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾[الأحزاب: ٣٦]، وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عينا وخمسون ألفا أصنافا وتحفا وألطافا فقالت: أما كتاب مولانا أمير المؤمنين فإني أقول فيه ﴿ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴾[النمل: ٢٩]، وأما أمره فلا أقول فيه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾[النمل: ٣٢]، ثم قالت للرسولين: وأما أنتما فوالله ما جئتما إلى مولانا من سبأ بنبأ يقين بل حرفتما القول عن مواضعه وسوّلت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، وتم عقد النكاح بينهما واستأذنها في الدخول بها بدار العز، فأذنت له فدخل بها ومدَّ يده إليها فلم تمتنع عليه، فواقعها أوّل مرة ثم أراد المعاودة فمنعته، وبعد لأي ما أجابته، وأراد المعاودة ثالثًا فغضبت وخرجت من البيت الذي كانت معه فيه (ويحكى) أنه إنما اجتمع بها في تلك الليلة خاصة، وأنه عرض له في صبيحتها من قيام بعض الثوار عليه ما أوجب اشتغاله بمدافعته، ولم يقض لهما اجتماع بعد ذلك. وبعض أهل اليمن يقول: إنه لم يرها، وإنما أجلست له تلك الليلة جارية من جواريها، وعلم بذلك فكتم الأمر ولم يفشه (الثعالبي في اليتيمة) قال: كانت بهمدان شاعرة مجيدة تعرف بالحنظلية فخطبها أبو على الكاتب فتمنعت عليه. فألح عليها وألحف، فكتبت إليه:

• أيسرك أير ماله عند حرى هذا فرج
فاصرفه عن باب حرى وأدخله من حيث خرج

قال أبو منصور الثعالبي حاكيًا عن الصاحب بن عباد: هي والله في هذين البيتين أشعر من كبيشة أخت عمرو والخنساء أخت صخر وجنوب الهذيلية وليلى الأخيلية (ابن حيان في المقتبس) قال: وجه الأمير عبد الرحمن بن الحكم المرواني شاعره يحيى بن الحكم المعروف بالغزال إلى ملك الروم فأعجبه حديثه وخف على قلبه وطلب منه أن ينادمه، فامتنع الغزال من ذلك واعتذر بتحريم الخمر، وكان يومًا جالسًا معه وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهى كالشمس الطالعة حسنًا، فجعل الغزال لا يميل بطرفه عنها، وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه، فأنكر ذلك عليه وأمر الترجمان بسؤاله، فقال له: عرفه أنه قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه فإني لم أر قط مثلها، وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها، وأنها شوقته إلى الحور العين، فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده وسرت الملكة بقوله، وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذي دعا

المسلمين إلى الختان وتجشم المكروه فيه وتغيير خلق الله -تعالى- مع خلوه من الفائدة، فقال للترجمان: عرفها أن فيه أكبر فائدة، وذلك أن الغصن إذ زبر قوى واشتد وعلظ، ومادام لا يفعل به ذلك لا يزال رقيقًا ضعيفًا، فضحكت من قوله وفطنت لتعريضه (ابن سعيد في خزانة التاريخ) قال: وجه الأمير عبد الرحمن بن الحكم -المذكور- غازيًا إلى خليفته، وكانت عنده بقرطبة جارية يهواها، فاحتلم في بعض الليالي بها، فلما استيقظ قال:

وافـــاك مــــن قرطبـــة زائـــرًا   وطيـــف لم أنـــت بـــه هـــائم

وقال لشاعره عبد الله بن شمر أجز، فقال:

لـــو كـــان حقًّـــا لـــشفي غلـــه   وإنمـــا أنـــت بـــه حـــالم

فاستخلف عبد الرحمن على الجيش، وعاد إلى صاحبة الخيال ففعل في اليقظة ما فعل في النوم وشفي غلته وعاد إلى الجيش (الحجازي في المسهب) قال: جلس المعتمد بن عباد في بعض الأيام بموضع من منازهه المشرفة على إشبيلية، وأحب الاجتماع بزوجته الرميكية. فوجه إليها يعرفها بذلك ويستفهمها هل غرضها وصولها إليه أو وصوله إليها، فكتبت إليه:

غرضـــي أن يكـــون منـــك وصـــول   بخطـــى تـــسبق الريـــاح حثـــاث
ثـم تعلـو صـدري وتحـرث بطـني   بقمـــدٍّ يخـــط كـــالمحراث
وإذا مـــا حـــصلت للنيـــك فـــوقي   لم تـــدعني إلى بلـــوغ الـــثلاث

قال الحجازي: فعمل إليها الخطى الحثاث وبلغها إلى الثلاث• اسم الرميكية: أم البنين، وصفها الحجازي بالجمال وطيب النادرة ونظم الشعر، وهى التي ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة، حتى كتب عليه أهل إشبيلية بذلك وبتعطيل صلوات الجمع عقودًا ورفعوها إلى أمير المؤمنين، وكان من أمره معهم ما كان، وسجن المعتمد باغماد وسجنت الرميكية معه، فماتت قبله هنالك• وكان أصل تزوّجه لها أن المعتمد كان كثيرًا ما يتنكر هو ووزيره ابن عمار، ويخرجان إلى الموضع المعروف بمرج الفضة، وهو مكان بهج يجتمع الرجال والنساء للفرجة فيه، فبينما المعتمد عشية على ضفة الوادي إذ هبت ريح فزردته، فقال لابن عمار: أجز• صنع الريح من الماء زرد• فتلكأ ابن عمار وبدرته امرأة كانت بمقربة منها فقالت• أي درع لقتال لو جمد• فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به

مع عجز ابن عمار وإفحامه، ونظر إليها فرأى صورة جميلة فوقعت بقلبه، وانصرف إلى قصره بعد أن وكل بها أحد خصيانه وأمر بحملها إليه، فلما وصلت إليه استفهمها عن نسبها، فأخبرته أنه من صنف الساسة المشتغلين بالانزاء على الدواب وأنها خلو من الزوج، فتزوّجها وقطعا برهة من عمرهما في سرور متوال• وله معها القضية المشهورة في قوله: ولا يوم الطين، وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين، فاشتهت المشي فيه، فأمر المعتمد فسحقت الطيوب وذرت في ساحة القصر حتى عمته، ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على الطيوب المذكورة وعجنت بالأيدي حتى صارت كالطين وخاضته مع جواريها، وكان يومًا مشهورًا• وغاضبها في بعض الأيام، فأقسمت أنها لم تر منه خيرًا قط، فقال لها: ولا يوم الطين، فاستحيت واعتذرت وولدت للمعتمد منها ابنته بثينة، وكانت أيضًا نحوًا من أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر ولما أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت من جملة من سبى، ولم يزل ابن عباد والرميكية عليها في وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول عند الناس، وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها سرية، ووهبها لابنه فنظر من شأنها، وهيئت له، فلما أراد الدخول عليها امتنعت وأظهرت غضبها، وقالت: لا أحل له إلا بعقد النكاح إن رضي أبى بذلك، وأشارت عليهم بتوجيه كتب من قبلها لأبيها وانتظار جوابه، فكان الذي كتبت فيه لأبيها من نظمها وبخطها:

• اسمع كلامي واستمع لمقالتي ... فهي السلوك بدت على الأجياد

• لا تنكروا إني سبيت وأنني ... بنت لملك من بني عباد •

• ملك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤول للإفساد

• لما أراد الله فرقة شملنا ... وأذاقنا طعم الأسى عن زاد •

• قام النفاق على أبي في ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمرادي •

• فخرجت هاربة فحازني امرؤ ... لم يأت في أفعاله بسداد •

• إذ باعني بيع العبيد فضمني ... من صانني إلا من الأنكاد

• وأرادني لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بني الأنجاد

ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا ... ولأنت تنظر في طريق رشادي

• فعساك يا ابتي تعرفني به إن كان ممن يرتجي لوداد •

• وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والإسعاد •

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بإغماد سر هو وأمها بحياتها ومآل أمرها، وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبي المذكور، وكتب إليها في أثناء كتابه:

بنيتي كوني به برة فقد قضى الدهر بإسعافه

(ابن بسام في الذخيرة) قال: كانت ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصرى الملقب بالمستكفى واحدة أوانها ونادرة زمانها حسنة منظر ومخبر وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبًا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، وتتهالك أفراد الشعراء ولكتاب على حلاوة عشرتها إلى سهولة حجابها وكثرة مننا بها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب على أنها أطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل لقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها، قال: وكانت قد كتبت على طرز جعلته على أحد عاتقيها:

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

(وكتب في الطرز الآخر)

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأمنح قبلتى من يشتهيها

وهى التي أولع بحبها أبو الوليد بن زيدون، وإياها يخاطب بقوله:

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

والروض عن مائه الفضى مبتسم كما حللت عن اللبات أطواقا •

• وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه رق لى فاعتل إشفاقا •

لا سكن الله قلبًا عن تذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقا •

لوشاء حملى نسيم الريح نحوكم وافاكم بفتى أضناه ما لاقى •

(ومن) كلام ابن زيدون مخبرا عن أول اجتماعه بها مما لم يثبت في الذخيرة قال: كنت في أيام الشباب هائمًا بغادة أرى الحياة متعلقة بقربها، ولا يزيدنى امتناعها إلا اغتباطًا بها، فلما ساعد القضاء وآن اللقاء كتبت إلى:

ترقب إذا جن الظلام زيارتى فإني رأيت الليل أكتم للسر

وبى منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

ثم لما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عبيره أقبلت بقد كالقضيب في ردف كالكثيب وقد أطبقت نرجس المقل على ورد الخجل، فملنا إلى روض مدبج وظل سحسح قد قامت رايات أشجاره وامتدت سلاسل أنهاره ودر الظل منثور وجيب الراح مزرور، فلما شببنا نارها وأدركت منا ثأرها برح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه، وبتنا بليلة نجتنى أقحوان الثغور ونقتطف رمان الصدور. ولما نشر الصبح لواءه، وطوى الليل ظلماءه ودعتها وأنشدتها:

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانًا أطلعك

إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

وذكر ابن بشكوال في الصلة ولادة هذه، فقال: كانت أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر. قال: ولم يكن لها تصاون يطابق شرفها، وذكر أنها توفيت سنة ثمانين وأربعمائة، ثم استدرك بعد ذلك فذكر أنها توقيت سنة أربع وثمانين (أبو سعيد في المقتطف) قال: كان أبو الفرج بن الجوزى إذا جلس على المنبر للوعظ رفع الناس إليه رقاعًا بما يعرض لهم من المسائل فيقرؤها ويجيب عنها وهو على المنبر. قال: فرفعت له ذات يوم امرأة مشهورة بالجمال والرفاهية رقعة فيها: ما يقول سيدنا الإمام- امتع الله ببقائه- وقد ألف في كل فن إلا في الطب في امرأة يضرب عليها ما بين فخذيها وتجد أكالاً شديدًا بين شفريها، وقد سألت عن ذلك جميع الأطباء فلم تجد لدائها دواء ولا علمت لعلتها غاية ولا انتهاء، فلما وصلت الرقعة إليه، قال: وأين صاحب الرقعة التي تتضمن مسألة الطب؟ الجواب وبالله التوفيق:

يقولـــون ليلـــى في العـــراق مريـــضة فيـــاليتنى كنـــت الطبيـــب المـــداويا

قال: فبكى الناس وتواجدوا، ولم يعلموا ما تحت ذلك (أبو سعيد في كتابه المسمى بالطالع السعيد) قال: كتبت حفصة بنت الحجاج الركونى المشهورة بالأدب والجمال إلى بعض من كان بينها وبينه في ذلك الزمان صحبة واتصال:

أزورك أم تـــزور فـــإن قلبـــى إلى مـــا شـــئتم أبـــدًا يميـــل

وقـــد أمنـــت أن تظمـــا وتـــضحى إذا وافـــى إليـــك أبـــى المقيـــل

فثغـــرى مـــورد عـــذب زلال وفـــرع نوائبـــى ظـــل ظليـــل

فعجـــل بالجميـــل فمـــا جميـــل أناتـــك عـــن بثينـــة يـــا جميـــل

(يشبه هذه الأبيات) الأبيات التي أنشدها ابن الحصين في تاريخه لسلمى بنت القراطيسى من أهل بغداد، قال: وكانت مشهورة بالجمال والأدب، وهى:

عيـــون مهـــا الـــصريم فـــداء عـــيني وأجيـــاد الظبـــاء فـــداء جيـــدي

• أزيـــن بـــالعقود وإن نحـــري لأزيـــن للعقـــود مـــن العقـــود •

ولا أشـــكو مـــن الأوصـــاف ثقـــلا وتـــشكو قـــامتي ثقـــل النهـــود •

(قال) ابن الحصين: وبلغت هذه الأبيات المقتفى، فقال: اسألوا عنها هل تصدق صفتها قولها؟ فقالوا: ما يكون أجمل منها، فقال: اسألوا عن عفافها، فقيل: هي أعف الناس فأرسل إليها مالاً جزيلاً، وقال: تستعين به على صيانة جمالها ورونق أدبها (وهنا انتهى الكتاب) والحمد لله على حسن معونته، وصلواته المتوالية على خير بريته سيدنا محمد وآله وذريته، وأستغفر الله تعالى مما خطته يميني ونطق به لساني من لغط الكلام وسقطه وفضول القول وهدره.

(يقول مصححه الراجي غفر المساوي السيد حماد الفيومي العجماوى)

نحمدك اللهم يا من خلقت نوع الإنسان بباهر قدرتك في أحسن تقويم، وأعليت من شئت من أفراده باختصاصك له إلى ذروة التفضيل والتكريم، خلقت له زوجًا من نفسه ليميل بغريزي طبعه إليه• وجعلت بينهما من المودة والرحمة ما يظهر به ما أودعته من بديع حكمتك لديه• ونصلى ونسلم على سيدنا محمد صفوتك المخصوص بمكارم الشيم، وعلى آله وأصحابه كنوز الأسرار ومعادن الكرم .

(وبعد) فإن فن الأدب خير فن، روضت في رياض محاسنه عقول العوارف، وهذبت في مآدب آدابه جوامح النفوس، وانتظمت من جواهره عقود المعارف، وإن من أعظم ما اكتحلت عيون ألفاظه من إثمد معانيه واتسقت لآلئ ضروبه من جواهر مبانيه لكتاب تحفة العروس ونزهة النفوس للقطب الرباني والهيكل الصمدانى العلامة (**أبى عبد الله الشيخ محمد بن أحمد التيجانى**)- بل الله بصيب الرحمة ثراه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه- فكم أودع في كنوز حقائقه من فرائد أحاديث يشتفى بسلسبيلها فؤاد الغليل، ويصح بريا عبيرها من أمزجة الأرواح كل جريح عليل، تستفتح منها في رياض المسامرة من أخلاق الغادرات زواهر الأزهار، وتنبسق عن محاسن صفاتهن كمائم الأنوار، ويحسو فم السمع منها ماء حياة يطيل عمر المسرة وتكتحل منها مآثر الأكارم بما هو لعيونها قرة، ولما كاد أن يعفى أثر هذا الكتاب ذيل الاندراس وتنمحى معالم معارفه في زوايا التناس، قيض الله حضرة الهمام الأفخم والملاذ الأكرم الأستاذ الشيخ على يوسف سليمان — صاحب مكتبة القاهرة رفع الله قدره ونشر بالكمالات ذكره- مع عصابة من ذوي الفضائل وأرباب الفواضل لتعطير الأكوان بعبير طبعه وتطييب الأرجاء بنشر نفعه، فجاء كما رام تسر بهجته الناظرين، وتقر بإدارة كؤوس أحاديثه أعين الطالبين، مبالغًا في إتقان تصحيحه على حسب الاستطاعة، وفاء بحقه وأداء لواجبات هذه الصناعة، وكان ذلك بمطبعة القاهرة التي مركز إدارتها في الأزهر بمصر، وفاح مسك ختامه وتم بدر تمامه يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر الله رجب الأصب الأصم سابع شهور عام ألف وثلاثمائة وتسعون من هجرة سيد العرب والعجم ﷺ وعلى آله وكل تابع له وناسج على منواله، ما هبت نسمات الوصال على أرباب الأحوال.

آمين ..... تم بحمد الله وفضله كتاب

تحفة العروس ونزهة النفوس

إشراف/ محمد بن على بن يوسف

فهرس

تم بحمد الله كتاب

تحفة العروس ونزهة النفوس

ما تحبه المرأة فى الرجل

ما يحبه الرجل فى المرأة